أدهم شرقاوي

"قس بن ساعدة"

على منهاج النبوة



kalemat

على مِنْهَاجِ النُّبُوَّة

على مِنْهَاج النُّبُوَّة
أدهم شرَقاوي

الطبعة الأولى 2021
دار كلمات للنشر والتوزيع
بريد إلكتروني:
Dar_Kalemat@hotmail.com
الموقع الإلكتروني:
www. kalemat.com

على مِنْهَاجِ النُّبُوَّة

أدهم شرقاوي

2021

kalemat

الإهداء

أتخيَّلُكَ الآن نازلاً من غار حراء ترتجفُ من هول الوحي
فأودُّ لو أني أضمك إلى قلبي
أتخيَّلُكَ محاصرًا في شِعْبِ أبي طالب
فأتمنى لو أني أنال شرف أن أطعمك بيديّ
أتخيَّلُكَ مرجوماً في الطائف
فأودُّ لو أني أقف أمامكَ فأتأذّى أنا وتسلم أنتَ
أتخيَّلُكَ مهاجرًا من مكة تحت جنح الظلام
فأتمنى لو أني أُقبِّلُ يدكَ وأقول لكَ: جُعِلتُ فداك
أتخيَّلُكَ في الغارِ رفقةَ أبي بكرٍ
فأودُّ لو علّقتُ قلبي على بابه فليمزّقوه ولا يمسّكَ سوء
أتخيَّلُكَ تمسحُ الدّم عن وجهكَ الشريف يوم أُحدٍ
فأتمنى لو أن تلك الضربة أصابتني وأخطأتكَ
أتخيَّلُكَ ممكسًا كتف الشاة وفيه سُمٌّ اليهودية
لأقول لكَ: أنا آكله عنكَ
كم تعبتَ ليكون لنا دين، بأبي أنتَ وأمّي يا رسول اللّه

شُهداء اللّه في الأرض!

كانتْ جلسةً رائعة، وكيف لا تكون كذلك والنبيُّ ﷺ فيها! والصحابة يُكحِّلون أعينهم بالنظر إلى وجهه، يا لحظِّهم! وتمُرُّ جنازةٌ ... فيُثني الصحابة عليها خيراً، ربما قالوا يومها: كان الميت صديقاً وفياً، وزوجاً مُحبّاً، وابناً باراً، وجاراً كريماً، كان يُصلح بين المتخاصمين، ويتصدّق على المساكين، ويُسامح من أخطأ بحقه، وكان قلبه معلقاً بالمساجد!

فقال النبيُّ ﷺ: وَجَبَتْ!

ثم بعد قليل مرَّتْ جنازةٌ أخرى، فأثنى الصحابة عليها شراً، ربما قالوا يومها: كان الميت صديقاً غادراً، وزوجاً لئيماً، وابناً عاقاً، وجاراً مُؤذياً، كان لا يحترم كبيراً ولا يعطف على صغير، والطريق إلى المسجد لا يعرفها ولا تعرفه!

فقال النبيُّ ﷺ: وَجَبَتْ!

فسأل الصحابة: ما وَجَبَتْ يا رسول اللّه؟

فقال: من أثنيتم عليه خيراً وجبتْ له الجنة، ومن أثنيتم عليه شراً وجبتْ له النار، أنتم شُهداء اللّه في الأرض!

كلنا سنُحمل يوماً على الأكتاف، فكل نفسٍ ذائقة الموت، وما نحن إلا جنائز مُؤجلة، وكما قال كعب بن زهير:

كلُّ ابنِ أُنثى وإن طالتْ سلامته
يوماً على آلةٍ حدباء محمولُ!

فهل فكّرنا ماذا سيقول شهداء اللّه في الأرضِ عنا يوم نُحملُ في التوابيت؟!

كل إنسان تتعامل معه اليوم هو شاهد لكَ أو عليكَ، تذكر هذا جيداً وأنتَ تُخالط الناس، وانسَ ما شئتَ ولكن إياك أن تنسى: وَجَبَتْ!

ماذا سيقول أبواك عنك؟ اللهم اغفرْ له فقد كان نعم الابن، أم سيقولان اللهم إنك تعلم ما كان من أمر عقوقه!

ماذا ستقول زوجتك عنك؟ اللّهم إنه كان خير زوج، أم ستقول خُذْ بحقي منه يا اللّه!

ماذا سيقول أبناؤكَ عنك؟ اللهم إنه كان أباً عادلاً لم يُفضِّل ابناً على بنتٍ، ولا ولدًا على ولد، أم سيقولون يا اللّه إنه قد ظلمَ وميَّزَ وأضاع الأمانة ولم يُحسن التربية!

ماذا سيقول جيرانك عنك؟ اللهم أنزله في جوارك فقد كان خير جار، أم سيقولون وأخيراً استرحنا من أذاه!

ماذا سيقول زملاؤك في العمل عنك؟ اللهم ارحمه فقد كان طيباً ينصحُ ويُساعد، ويحفظ السر، أم سيقولون اللهم إنك تعلم أنه كان واشياً لا يُؤتمن، ومُؤذياً لا يُحتمل!

كل مُتعثِّر أقمته وأخذت بيده هو شاهد لك.

كُلُّ دمعةٍ مسحتها هي شاهدة لكَ.

كل فقير رأى منك دفء ابتسامتك قبل دفء درهمك هو شاهد لكَ .

كلُّ مسكين أعنته، وجائع أطعمته، وتائه أرشدته، ومظلوم نصرته، شهود لكَ، فكثِّرْ شهودكَ، فجنائز الغد تتنفسُ اليوم!

إنه قد شَهِدَ بدراً!

كانتْ مكة على موعدٍ قريبٍ مع الفتح، رسول اللّه ﷺ قد حسم أمره بالسير إليها، وأخبر الجيش بالاستعداد، ولأن الحرب خِدعة، ولأنّ من يملك عنصر المفاجأة نادراً ما يُهزم، أمر النبي ﷺ الصحابة بكتمان أمر المسير إلى مكة.

كان كل شيء يسير كما هو مُخطط له، الصحابة من أهل مكة يحلمون باللحظة التي سيُقبِّلون فيها ترابها، والصحابة من أهل المدينة ما زالوا يحلمون بعُمرةٍ رُدُّوا عنها يوم الحُديبية! وبقية الصحابة من جزيرة العرب يحلمون باللحظة التي سيرتفع فيها أذان مكة مُعلِناً أنَّ اللّه أكبر! غير أنَّ شيئاً لم يكن بالحسبان قد وقع... يستدعي النبيُّ ﷺ الفرسان الثلاثة: علي، والزبير، والمقداد، ويأمرهم بالتّوجّه على الفور إلى «روضة خاخ» حيث هناك امرأة تحملُ رسالةً عليهم إحضارها إليه مهما كلَّف الأمر!

توجَّه الثلاثة مُسرعين، فوجدوا المرأة هناك، فطلبوا منها أن تُعطيهم الرسالة، فأنكرتْ وجودها، فقالوا لها: إما أن تُخرجي الكِتاب، أو لنضعنَّ الثياب!

فلما علمتْ أنهم عازمون على تفتيشها، أعطتهم الرسالة وعادوا بها إلى المدينة، وهناك فتح النبيُّ ﷺ الرسالة فإذا هي من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يُعلِمهم فيها بعزم النبي ﷺ السير إلى مكة لفتحها!

خرقٌ أمني خطير! وإن شئتَ فقُلْ: خيانة عُظمى!

ويُبـرر حاطبٌ فعلته بـأنَّ لـه أهـلاً ضعفـاء فـي مكة، وأنـه مـا أراد برسـالته غيـر أن تكُفَّ قريش أذاهـا عنهم!

ويقبـلُ النبـيُّ ﷺ عُـذره... غيـر أن عمـر بـن الخطـاب بحزمـه المعتـاد، وشراسـته المتوقعـة إذا مـا تعلَّق الأمـر بهـذا الديـن يقـول: يـا رسـول اللّه ائـذن لـي أن أضـربَ عنـق هـذا المنافـق!

فقـال لـه رسـول اللّه ﷺ: لا يـا عمـر، إنـه قـد شـهد بـدراً، ومـا أدراك لعـلَّ اللّه قـد اطلـعَ علـى أهـل بـدر فقـال: اعملـوا مـا شـئتم فقـد غفـرتُ لكـم!

إنه قد شهد بدراً!

يـا تُـرى هـل نتذكـر ماضـي النـاس المشـرق عندمـا يقـعُ منهـم خطـأ، أم أننـا ننسـى كل المعـروف، واللحظـات الحلـوة، والمشـاعر الجميلـة التـي عشـناها عنـد أول زلـة قـدم؟!

فـي حيـاة كل إنسـان «بـدر قـد شـهدها» فلمـاذا لا نمحـو الخطـأ ببـدر تلـك بـدل أن نمحـو بـدراً بهـذا الخطـأ؟

لماذا نُريد من الناس أن يكونوا ملائكة على الدوام؟

أليـس لـكلّ جـواد كبـوة، ولـكل قـدم زلـة، ولا بـد للنبيـل أحيانـاً أن يخونـه نُبلـه؟

وقد قال علي بن الجهم:

ومـن ذا الـذي تُرجـى سـجاياه كلهـا

كفـى المـرءُ نُبـلاً أن تُعـدَّ معايبـه!

تجد الزوجة تخوضُ كل يوم بدراً، تربيةً للأولاد، وطبخاً ونفخاً، وتدريساً واهتماماً، وعند أولٍ خطأ ينسى الزوج ذلك كله وكان بإمكانه أن يقفز عنه!

وتجدُ الزوجَ محباً حنوناً رحيماً فإذا أخطأ قامت الدنيا ولم تقعد، تنسى الزوجة عُمراً من المعروف بموقف كان بإمكانها التغاضي عنه!

لماذا على المدير أن ينسى كل ماضي الموظف المشرق عند خطأ عابر، وعلى الموظف أن ينسى لُطف المدير السابق عند أول موقف حزم؟

لماذا ينسى الوالدان سنوات ابن في البِر لموقف عقوق واحد، وينسى الأولاد إحسان الدهر من الوالدين للحظة ضعف إنساني واحد؟

احفظوا لكل أَحدٍ «بدره» ولا تمحوا كل المعروف بموقف واحد!

فهل تستطيع أن تُغيِّبَ وجهكَ عني؟!

كان يوم بدر يوم حمزة بن عبد المطلب بامتياز، صالَ فيه الأسدُ الهصور وجالَ، ما مرَّ بفارسٍ إلا وصرعه، ولا أتى على محاربٍ إلا أهلكه، كيف لا وهو الذي كانت تُلقبه قريش في الجاهلية بِصائِدِ الأُسود، ولقَّبه النبي ﷺ في الإسلام بأسدِ الله وأسدِ رسوله!

لقد أصابَ قريشاً في مقتلها، واعتبرته المسؤول الأول عن هزيمتها في بدر، وكان لأكثر من بيتٍ قرشي ثأرٌ عنده! وكان وحشي بن حربٍ عبداً رامياً بالحربة، مُجِيداً فيها، فوُعِدَ إن هو قتل حمزة يوم أُحدٍ أن يصير حُراً، وهكذا كان، استشهد أول قائد هيئة أركان في تاريخ الإسلام، وصار وحشيٌ حُراً طليقاً! ولما فتح النبيُّ ﷺ مكة، هربَ وحشيٌ إلى الطائف خوفاً من فِعلتِه، ثم إنه قد قيل له: إن الرجلَ لنبيٌّ، وإنه لا يثأر لنفسه، وقد قال: الإسلام يجُبُّ ما قبله، فلو أتيتَه وأسلمتَ، لَقَبِل منك، وعفا عنك!

فجاء وحشيٌ إلى النبي ﷺ، ولما رآه قال له: أنتَ وحشي؟

قال: نعم.

فقال له النبي ﷺ: أنتَ قتلتَ حمزة؟

فقال: قد كان من الأمر ما بلغكَ، وقد جئتُ أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَك رسول الله!

فقال له النبيُّ ﷺ: فهل تستطيع أن تُغيِّبَ وجهكَ عني؟!

ولم يلتقيا بعدها، فلما قُبِضَ النبي ﷺ، وادَّعى مُسيلمة الكذاب

النبوة، خرج وحشي في جيش المسلمين، وقتل بحربته مُسيلمة! وكان بعدها يقول: قتلتُ بحربتي هذه خير الناس وشر الناس، حمزة بن عبد المطلب ومُسيلمة الكذاب!

«فهل تستطيع أن تُغيِّبَ وجهكَ عني؟!»
هنا مربط الفرس، وإسطبلُ الكلام!

الإسلام يجُبُّ ما قبله، ولا يستطيعُ النبيُّ ﷺ أن يردَّ إسلامَ من جاءه مسلماً لأي فعلة فعلها في الجاهلية حتى لو كان قد قتلَ عمّه! لهذا قَبِلَ إسلامَ وحشي! ولكنه بأبي هو وأمي لا يستطيع أن يخرجَ من قفص بشرِيَّتِه، إنه يُحبُّ ويكره، ولا يُريدُ أن يرى وجه وحشي طالما فيه جفن يطرف!

لقد طبَّق شرع ربه بقبوله إسلام وحشي، ولكن حقه الشخصي رفضَ أن يتنازل عنه، ما زال موجوعاً لفقد عمه وقائد جيشه وأحد أشرس جنود الإسلام!

العفو عند المقدرة من شِيَمِ النُّبلاء، وقد كان النبيُّ ﷺ نبيلاً فعفا، ولكن العفو شيء والودُّ شيء آخر!

أحياناً يجرحنا الآخرون عميقاً، يُسبِّبون لنا جروحاً غائرة لن تُشفى ما دامت السماوات والأرض، وقد يدخل الناس للصلح، وقد نسامح، ولكننا لا نُريدهم بجانبنا مرةً أُخرى، ولا نُريد رؤية وجوههم حتى، لأننا كلّما رأيناهم سنتذكر طعم الطعنة التي طعنونا إياها، ونتحسّس الجرح الذي أحدثوه فينا ولم يبرأ بعد!

تفهموا أن الذي لا يريدُ عودة الأمور إلى مجاريها مجدداً ليس

بالضـرورة حاقـدًا ولكنّـه تـأذّى، وكمـا يقـول الأديـب الروسـي ليـو تولسـتوي: عندمـا يخونونـك فكأنمـا قطعـوا ذراعيـك، تسـتطيع أن تُسـامحهم، ولكنـك لا تسـتطيع أن تُعانقهـم!

وهذهِ يدُ عثمان!

لمَّا كان عام الحُديبية وسار النبي ﷺ بالمُسلمين يُريدون مكة للعُمرة فقط، أُشيع في مكة أنّ المسلمين إنّما جاؤوا للحرب، فقرر النبي ﷺ أن يُرسل إليهم رسولاً يُخبرهم أنه ما أراد إلا العُمرة، ولن يمكث في مكة أكثر من يوم وليلة! ووقع أول الأمر اختياره على عمر بن الخطاب، ولأنَّ بني عَدِيَّ يومئذ قِلّة في مكة ولن يقدروا أن يحموه إذا أرادتْ قريشٌ الغدر، اقترحَ الفاروق على النبيِّ ﷺ أن يُرسل مكانه عثمان بن عفان، فهو من بني أُمية، الفخذُ القوي والثريُّ من قريش ولن يتجرّأ عليه أحد...

ويقبلُ النبي ﷺ رأي عمر، ويُرسلُ عثمان بن عفان مُوفَداً منه إلى قريش برسالةٍ مفادها: «ما أتينا للحرب، إنها العُمرة فقط!»

فأتى عثمان مكة، وأبلغ أبا سُفيان وسادة قريش رسالة النبيﷺ، فأخبروه أنهم سينظرون في أمرهم، وقال أبو سفيان لعثمان: إن شئتَ أن تطوف بالبيت فطُفْ!

فقال له عثمان: ما كنتُ لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

فأبقَتْهُ قريش عندها ريثما تستقر على رأي تبعثه معه إلى النبي ﷺ، وعندما تأخر عثمان أُشيع أنه قد قُتل، وكانت الأعراف الدبلوماسية وقتذاك تقتضي أن الرُّسل لا تُقتل، لهذا غضب النبيّ ﷺ، وطلب من المُسلمين أن يُبايعوه على الموت لقتال قريش عند الشجرة، بما عُرف فيما بعد ببيعة الرضوان!

ووضع النبي ﷺ يده، وبدأ الصحابة يضعون أيديهم فوق يده

الشريفة ويُبايعونه على الموت، ثم لما اجتمعت الأيدي فوق يده، رفع يده الشريفة الأخرى وقال: وهذه يد عثمان!

صحيح أن هذه البيعة ما كانت لتكون لولا غياب عثمان، ولكن عثمان كان حاضراً رغم غيابه، سيد الناس ينوب عنه، ويده الشريفة تسدُّ فراغ يد عثمان!

علمَ النبيُّ ﷺ أن بيعة الموت لو كانت لسبب آخر وكان عثمان حاضراً ما تخلَّف عن البيعة لهذا سدَّ غيابه.

فهل حفظنا نحن غيبة بعضنا؟!

هل تمَّ جمع صدقة لفقير فقال أحدنا هذه عن صديقي الغائب فلو كان حاضراً لتصدَّق؟!

هل اصطحبَ أحدنا أباه أو أمه إلى المستشفى وفي لحظة خلوة قال لأحدهما: إنّ أخي غاب لِعذرٍ ولو كان معنا لكان هنا مكاني وما سبقته إلى بِرِّكما؟!

عندما كانت غزوة تبوك، افتقد النبيُّ ﷺ كعبَ بن مالك، فسأل: ما فعلَ كعبُ بن مالك؟

فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بُرداه والنظرُ في عِطفيه!

فقام مُعاذ بن جبل وقال: بئسَ ما قلتَ، واللّهِ يا رسول الله ما علمنا عنه إلا خيراً!

نعم غاب كعب، ولكنه كان حاضراً في قلب معاذ، فحفظ له غيبته!

وقد قال رجل للمُبرِّد النحوي الشهير: شتمني فلان فحلمتُ وسكتُّ عنه، ثم شتمكً، فساويتكَ بنفسي، وسكتُّ عنه!

فقال له المُبرِّد: ليسا سواء، إنَّ احتمالك في نفسك حِلْم، واحتمالك في صديقك غدر!

كلما غاب صديق تعرِفُ مروءته، سُدَّ مكانه، وتذكَّرْ: «هذه يد عثمان!»

لم أستفِقْ إلا وأنا في قرن الثعالب!

ضاقتْ عليه مكة، أبو طالب الذي كان يحوطه ويرعاه قد مات، وخديجة جبهته الداخلية ومتراسه قد ماتتْ أيضاً، ولم يتغيَّر شيء في مكة، ما زالت غارقة في الضلال، تُكذِّبُ نبيَّها، وتسومُ أصحابه أصناف العذاب، فقرَّر المسير إلى الطائف، علَّه يجد فيها قلوباً أرحم من تلك القلوب القاسية في صدور سادة قريش، وفي الطائف عرضَ دعوته على سيدها ابن عبد ياليل، فوجده كأبي جهل غلظةً، وكأبي لهبٍ تكذيباً، وكأُمية بن خلف أذيةً، فأطلق خلفه سُفهاء الطائف وغلمانها يرشقونه بالحجارة حتى سالَ الدم من قدميه الشريفتين!

بعد سنوات من هذه الحادثة، كانتْ جزيرة العرب تدين بالإسلام، فقد جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً! وتسأله عائشة: هل أتى عليكَ يوم أشد من يوم أُحد؟!

كانت تعرفُ كم كان موجعاً ذلك اليوم، فَقَدَ فيه عمه حمزة، المُقاتل الشرس، ورئيس هيئة أركانه! وفقد سبعين من خيرة أصحابه، وشُجَّ رأسه، وكُسرتْ مقدمة أسنانه!

ولكنه حدّثها عن يوم الطائف، لقد كان عليه أشدّ من يوم أُحُد، فبعد أن رجموه وأخرجوه، يقول لها: فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستَفِقْ إلا وأنا في قرن الثعالب! فرفعتُ رأسي فإذا بسحابة فيها جبريل، فناداني، فقال: إنَّ الله تعالى قد سمع

قـول قومـك لـك، ومـا ردّوا عليـك، وقـد بعـثَ إليـكَ ملـك الجبـال لتأمـره بمـا شـئتَ فيهـم! فناداني ملـكُ الجبـال، وقـال: إن شـئتَ أطبقـتُ عليهـم الأخشـبيّن!

فقلتُ: بل أرجو أن يُخرج اللّه من أصلابهم من يعبد اللّه وحده لا يُشرك به شيئاً!

الشاهد في القصة:

فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفِقْ إلا وأنا في قرن الثعالب!

هـو يعلـم أنـه نبـي، ويعلـم أنَّ دينـه سـينتصر نهايـة المطـاف، ويعلم أن اللّه معه ولن يخذله، ولكنه إنسـان يحـزن، ويضيق صدره، ويُصيبه الهم، بل ويسير هائماً على وجهه لا يدري أين تاخذه قدماه بأبي هو وأمي، ثم ينتبه فإذا هو في قرن الثعالب قد مشى مسافةً بعيدة عن الطائف!

فما بالك بنا نحن الذين لو جُمع إيماننا جميعاً في كفةٍ وإيمانه هو في كفة لرجح إيمانه على إيماننا، ولفاقَ يقينه باللّه يقيننا، ولغلبَ صبره صبرنا، أليس من حقنا نحن أيضاً أن ننكسر أحياناً، ونمشي لا ندري أين تأخذنا أقدامنا؟!

فهل قدَّرنا هذا لبعضنا، وعرفنا أنه تمرُّ بالإنسان لحظات يخرجُ فيها عن طبعه الطيب، واتزانه الذي عرفناه به، وعقله الراجح الذي ألِفناه عليه؟!

تمرُّ بالإنسان لحظات لا يُطيق فيها أن يقول كلمة، أو يسمع نصيحة، أو يُقابل إنساناً، فلماذا نعتبرُ الأمر شخصياً، ونزيد

همـوم بعضنـا بعضًـا بـدل أن نُراعـي أنَّ النفـس فـي إقبـال وإدبـار، وأن الـروح تمـرضُ تمامـاً كمـا يمـرضُ الجسـم؟!

إذا رأيتَ صديقـك ضَجِـراً، فـلا تكـن لـه همـاً فـوق همـه، كُـن لـه قـرن الثعالـب الـذي يسـتفيقُ عنـده!

احتـرم حزنـه، وحاجتـه فـي أن يبقـى وحـده، ثـم حيـن يهـدأ، ربّـت علـى كتفـه، وامسـح علـى صـدره، وواسِ قلبـه، حدِّثـه حديـث القلـب للقلـب، والـروح للـروح، دعـكَ مـن المنطـق قليـلاً، فالنفـس لحظـة انكسـارها تحتـاج احتـواءً لا درسـاً، والـروح لحظـة تيههـا تحتـاج احتضانـاً لا محاضـرة!

نحـن نضعـف لا مـن قلـة الإيمـان ولكـن مـن قسـوة الحيـاة، مـا كان إيمـان النبـي ﷺ قليـلاً يـوم الطائـف، ولكـن الحيـاة كانـت قاسـية، ولقـد علِـم اللّه حجـم وجعـه وانكسـاره، فلـم يُعاتبـه لأنـه هـام علـى وجهـه، ولـم يقـل لـه أيـن إيمانـك بـي، بـل أرسـلَ لـه ملائكـةً، تحفـه وتنصـره، علـم اللّه تعالـى أن رسـوله نهايـة المطـاف إنسـان، وأن النـاس تمـر بهـم لحظـات ضعـف تحتـاج عندهـا قلبـاً حنونـاً لا عقـل فيلسـوف أو لسـان خطيـب!

أَجِبْ عني!

مرَّ عُمر بن الخطاب يوماً بالمسجد، فإذا حسَّان بن ثابت يُنشِدُ فيه شِعراً، فانتهره عُمر لا تحريماً للشعر، ولا انتقاصاً من قيمة الشعراء، كيف لا وهو القائل: خذوا لُغتكم من كتاب ربكم وقديم شِعركم! وإنما كان نهيه إعلاءً لقيمة المسجد، وتنزيهه أن لا يُقال فيه إلا قرآن كريم وحديث نبوي.

ولكنَّ حسَّان بن ثابتٍ قال له: يا أمير المؤمنين كنتُ أُنشِدُ في المسجد شِعراً وفيه من هو خير منك!

ثم التفتَ إلى أبي هريرة وقال له: يا أبا هُريرة أما سمعتَ رسول الله ﷺ يقول لي: يا حسَّان أَجِبْ عني، اللهمَّ أيِّده بروح القُدُس؟!

فقال أبو هريرة: نعم

فمضى عمر وتركه!

واستطراداً، إني لو كنتُ مُحدِّثاً، وأردتُ أن أجمع الأحاديث الواردة في فضل عُمر بن الخطاب، لأوردتُ هذا الحديث في فضائله، فليستْ الفضيلة في أن يكون المرء على صواب دوماً، إنما أن يكون وقّافاً عند الحق إذا تبيَّن له أنه مُخطئ!

أَجِبْ عني!

هنا مربط الفرس، وبُغية الكلام!

هـذا الديـن الـذي احتـاج يومـاً إلـى سـيف خالـد حيـن احتدمـتْ المعـارك الحربيـة، احتـاج أيضـاً إلـى قصائـد حسـان حيـن احتدمـتْ المعـارك الفكريـة، خالـد لـم يكـن بإمكانـه أن يسُـدَّ مـكان حسَّـان، وحسَّـان لـم يكـن بإمكانـه أن يسُـدَّ مـكان خالـد! لقـد وضـع اللّه سـبحانه كل واحدٍ منـا علـى ثغـر، وعليـه أن يحـرس هـذا الثغـر بـكل مـا أُوتـي مـن قـوة، دون أن يسـتصغر الثغـر الـذي يحرسـه، ودون أن يتفاخـر بـأن ثغـره أهـم مـن بقيـة الثغـور!

مـال عثمـان بـن عفـان كان يـوم جيـش العُسـرة أهـم مـن قـراءة أُبـي بـن كعـب، وعنـد جمـع المصحـف الشـريف كانـت قـراءة أُبـي بـن كعـب أهـم مـن مـال عثمـان، وسـيف خالـد، وقصائـد حسَّـان، فكُـن أسـداً عندمـا يحيـن دورك!

سـيف علـي بـن أبـي طالـب يـوم تصـدَّى لمَرْحـبٍ فـي غـزوة خيبـر، يُـوازي مـال أبـي بكـرٍ الـذي أعتـقَ بـه بـلالاً، مـا كان لسـيف علـيّ أن يُحـرر عبـداً مسـلماً مـن قيـده، تمامـاً كمـا لـم يكـن لمـال أبـي بكـر أن يقضـي علـى مَرْحـبٍ! هـذا الديـن تكامـل بيـن أتباعـه، لا تنافـس وتفاضـل!

وهـذا هـو حـال الإسـلام اليـوم، ثُغـور شـتَّى، وكل واحـد منـا علـى ثغـر!

الأم في بيتها على ثغر، لأن صناعة الرجال مهمة عظيمة!

والمُدرِّس في صفه على ثغر، لأن الأمة الجاهلة تُقاد ولا تقود!

المُجاهـد علـى ثغـر لا يسـده إمـام المسـجد، وإمـام المسـجد علـى ثغـر لا يسـدّه التاجـر الثـري، غيـر أن ثغـر التاجـر الثـري صدقـةً وإنفاقـاً وإعانـة للنـاس لا يقـل أهميـة عـن دور المجاهـد الـذي يجـود

بدمه، وإمام المسجد الذي يأخذ بأيدي الناس إلى الله!

اُنْظُرْ أين أقامك الله، هذا هو ثغرك الذي عليكَ أن تحميه، وتُجاهد فيه، وعندما يقوم كل واحد منا بدوره، تستعيد هذه الأمة مجدها!

مرِضَتْ زوجة الملك، فأوصى الأطباء أن تستحم كل يوم بالحليب، فتساءل الملك كيف يملأ الحوض حليباً كل يوم، فاقترح وزيره أن يحضر كل راعٍ في المملكة دلو حليب في الليل يفرغه في الحوض، وهكذا تُحَلُّ المشكلة!

قال كل راعٍ في نفسه، لو وضعتُ دلو ماء، سيضيعُ بين دلاء الحليب، ولن يعرف الملك، وفي صبيحة اليوم التالي، وجد الملك الحوض مملوءاً ماءً!

لم يبدأ كل واحدٍ بنفسه، لقد انتظر أن يقوم الآخرون بدوره، وهذا باختصار هو حالنا اليوم.

قُمْ أبا تُراب!

كان وصَّالاً للأرحام، يزور بناته، ويُلاعب أحفاده، ويُلاطف أصهاره، ويُكرم أنسباءه، وجاء مرةً لزيارة فاطمة ابنته وقطعة قلبه الفُضلى، فلم يجد علياً في البيت، فسأل عنه، فأخبرتْه أنه قد حدث بينهما خلاف فخرجَ من البيت!

فتركها ومضى، وطلبَ من رجل أن يبحث له عن علي، فعادَ إليه وأخبره أنه نائم في المسجد، فذهب إليه، فإذا هو نائم واضع خده على الأرض وعليه بعض التراب، فقال له: قُمْ أبا تُراب! وجعلَ يمسحُ بيده الشريفة التراب عن وجهه!

لم يسأل فاطمة عن الخلاف الذي وقع بينها وبين زوجها، ولم يطلب منها أن تُخبره بما قالت له، ولا ما قال لها، أراد أن يُعلِّمنا أن البيوت أسرار، وأنّ تدخُّل الأهل في كل صغيرة وكبيرة في حياة الزوجين يُفاقم المشاكل، فلا تُحاولوا كشف ما ستره اللّه، دعوا الأزواج تتخاصم وتتصالح!

الخلافات الزوجية تقع في كل البيوت وهذا شيء طبيعي وعادي جداً، هذه فاطمة سيدة نساء العالمين، وهذا علي خليفتنا الراشد، ومع هذا وقع بينهما خلاف فما بالك بنا نحن الذين دونهم، فانظروا إلى المشاكل على أنها جزء من الحياة، تقع وعلينا أن نحلها ونتعلم دروساً منها، لا أن نفرط عُرى الأُسرة، ونُشرد الأولاد، ونصبح علكةً في كل فم!

وانظُـرْ إلـى حكمـة النبـي ﷺ، يذهـبُ إلـى علـي ويترفَّـق بـه ويسـترضيه، ولا يُعاتبـه عمـا حـدث بينـه وبيـن ابنتـه، حتـى أنـه لـم يسـأل مـا الـذي حـدث، وهـذا درس بليـغ للأهـل فـي أن لا يتحزَّبـوا لأولادهـم عندمـا تقـع الخلافـات الزوجيـة، ولا يصبُّـوا الزيـت علـى النـار، علـى العكـس يجـب أن لا ينسـى أهـل الـزوج معـروف كِنتهـم السـابق وماضيهـا ومواقفهـا النبيلـة معهـم، ويجـب علـى أهـل الزوجـة أن لا يجعلـوا مـن زوج ابنتهـم شـيطاناً رجيمـاً لمجـرد خـلاف وقـع بينـه وبينهـا!

ويُعلِّمنـا علـيٌّ درسـاً هامـاً أيضـاً فـي أدب الخـلاف، ومشـاكل البيـوت، لقـد خـرجَ مـن البيـت تـاركاً فاطمـة لتهـدأ، نحـن فـي غضبنـا نقـول أشـياء مُؤذيـة، ونسـمع مـن الآخـر أشـياء تُحزننـا، فالأفضـل إذا وقـع الخـلاف أن لا نقـف كالديـوك المُتصارعـة قبالـة بعـض، هـذا يسـمع ويـرد، وذاك يسـمع ويـرد!

ويُعلِّمنـا علـيُ درسـاً آخـر أيضـاً، لقـد خـرج هـو مـن البيـت ولـم يطـرد زوجتـه منـه كمـا يفعـل كثيـر مـن الأزواج اليـوم جاهليـن أن خـروج الزوجـة مـن البيـت يُفاقـم المشـاكل، وهـو أمـرٌ جـارحٌ لهـا ولأهلهـا، ناهيـك عمَّـا فيـه مـن فضـح الأُسـرة ونشـر غسـيلها أمـام الرائـح والغـادي!

فـإذا وقـع بينكمـا خـلاف واحتـدم، اتركهـا فـي البيـت واخـرج، وعُـدْ فـي المسـاء، أو نَـمْ فـي بيـت صديـق لـك، أو فـي فنـدق إن بـدا لـكَ أنَّ هـذا أفضـل. وهـي حتمـاً سـتهدأ ويعـزّ عليهـا غيابـك، وتُقـدِّر لـك أنـك تركتهـا فـي بيتهـا مُعـزَّزة مُكرَّمـة!

إِن تَصْدُقِ اللَّه يصدُقْكَ!

لم يكن أحدٌ من الصحابة يعرفه، مجرَّد أعرابي جاء من الصحراء وبايع النبيَّ ﷺ على الهجرة والجهاد. ثم كانت غزوة، وخرج الأعرابي مُدافعاً عن هذا الدين في جُملة من خرج، ثم منَّ الله على المسلمين بالنصر، وقسّم النبي ﷺ الغنائم بين أصحابه، وترك للأعرابي نصيبه، فلما جاء وقيل له تركَ لك رسول الله ﷺ هذا، أخذَ الغنيمة وتوَجَّه إليه، وقال له: يا رسول الله ما هذا؟

فقال له: قسمته لكَ.

فقال: ولكن ما على هذا اتبعتكَ يا رسول الله، ولكني اتّبعتُكَ على أن أُرمى بسهمٍ ههنا -وأشار إلى رقبته- فأموت فأدخل الجنة!

فقال له النبي ﷺ: إنْ تَصْدُقِ اللَّه يصدُقك!

فلما كانت جولة أُخرى من القتال، أُتِيَ به إلى النبي ﷺ محمولاً، والسهم مغروز في رقبته حيث أشار سابقاً، فقال النبيﷺ: أهو هو؟

فقالوا: نعم يا رسول الله.

فقال: صدقَ الله فصدقه الله!

ثم كفَّنه النبي ﷺ في جُبَّتِهِ، وصلى عليه، وكان ممّا سمعوا من دعائه يومها أنه قال: اللهم هذا عبدك خرج مُهاجراً في سبيلك، فقُتِلَ شهيداً وأنا شهيد على ذلك!

إِنْ تَصَدُقِ اللّه يصدُقك!

يُمكنك أن تتحدث طويلاً عن رغبتك في الجهاد، وعن نيّتك في الالتزام بصلاة الفجر، وعن أُمنيتك في حفظ القرآن الكريم، وعن عزمك على الصدقة كثيراً لو كنتَ غنياً، والناس لا يُمكن أن يحكموا عليكَ إلا بظاهركَ، ولكن اللّه سبحانه يراك من الداخل، ينظر إلى قلبك عارياً من فنون الخطابة، وحسن البلاغة، وضجّة الإعلام والبيانات، وعلى ما في قلبك سيعطيك!

إنَّ اللّه يُعطي على نيّة العمل أجر عمل كامل لم يُعمل حين يعلم في قلب عبده صدقاً أنه لو استطاع لعملَ، ولا يقبل الطاعة على حسن ظاهرها إن علم أن وراءها رياءً وحب شُهرة ونفاقاً، وقد كان عبد اللّه بن سلول يُصلي الفجر جماعة خلف النبيﷺ وهو في الدرك الأسفل من النار، لقد عمل بجوارحه عمل الصالحين وعمل بقلبه عمل المنافقين، وإنما المرءُ بقلبه!

وقد جاء في الأثر أنه قد أصاب بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام فاقة ومجاعة، وأنَّ راعياً بسيطاً نظرَ إلى الجبال حيث يرعى غنم الناس، وقال: اللهم إنك تعلمُ أنه لو كان لي مثل هذه الجبال ذهباً لتصدقتُ بها على عبادك!

فأوحى اللّه تعالى إلى موسى عليه السلام أن يا موسى قُلْ لعبدي أني قبلتُ منه صدقته!

تذكروا دوماً أن اللّه لا ينظر إلينا من أعلى فحسب، ولكنه ينظر إلينا من الداخل أيضاً، وعلى قدر النوايا تكون العطايا!

ما لي أراك منكسراً؟

عـاد المسـلمون مـن أُحُـدٍ بالهزيمـة، وهزيمـةٌ تُربِّيـك وتكسـرك وتُريك خطـأك خيـر مـن نصـرٍ يُطغيـك! أراد اللّه سـبحانه أن يُربّـي هـذه الأمـة ويُخبرهـا أن لا نصـر إذا لـم يُطَـعْ عبـده ورسـوله!

ولأنّ فقـد الأحبـة مُوجـع، والفِـراق أليـم، والصحابـة بشـر، خيَّـم عليهـم الحـزن، حتـى النبـي ﷺ كُلِـمَ بفقـد عمـه، وظلَّـتْ خسـارة حمـزة جرحـاً ينـزُّ داخلـه إلـى أن فـارق الدنيـا! ولكـن علـى الحيـاة أن تمضـي، فلملمـوا جراحاتهـم، وطيَّـب بعضُهـم خاطـر بعـض، وكان النبـيُّ ﷺ الأكثـر تطييبـاً للخواطـر رغـم أنـه كان الأكثـر ألمـاً! ففـي مـرة لقـيَ جابـر بـن عبـد اللّه بـن حـرام، فقـال لـه: يـا جابـر، مـا لـي أراك منكسـراً؟

فقال له: يا رسول اللّه قُتِلَ أبي يوم أُحُد، وتركَ عيالاً ودَيْناً!

فقال له النبي ﷺ: أفلا أُبشرِكَ بما لقيَ اللّهُ به أباك؟

قال: بلى.

فقـال لـه: مـا كلَّم اللّه أحـداً قـطّ إلا مـن وراء حجـاب، ولكنـه أحيـا أبـاك فكلَّمـه كِفاحـاً، وقـال لـه: عبـدي تمـنَّ علـيَّ أُعطِـكَ! فقـال: يـا رب أن تُحيينـي فأُقتـلَ فيـك ثانيـة! فقـال الـربُّ عـزَّ وجـل: إنـه قـد سـبق منـي أنهـم إليهـا لا يُرجعـون!

ما أعذبها من عبارة: يا جابر ما ليَ أراك منكسراً؟!

أحياناً لا يريدُ الناسُ أكثر من كلمة حلوة، وتربيتة على الكتف، وأن تُخبرهم أنكَ تهتم، وأنه يُوجعك حزنهم. إن الكرم ليس مالاً فقط، الاهتمام كرم أيضاً، والمواساة أحياناً تُساوي مال الدنيا كله! فهل طبّقناها في حياتنا، هل رأينا حزناً بادياً على وجه صديق فسألناه ما به، هل أشعرناه أنّنا نهتمّ، وأنّنا بجانبه وعلى استعداد لفعل أي شيء لنُزيل عنه بعضاً ممّا نزل به، أم تعاملنا مع الناس على مبدأ: لا يهمّني أحد ما دمتُ أنا بخير!

كان جابر يعرفُ أنَّ أباه قد ماتَ شهيداً دفاعاً عن دينِ الله وشريعته، وأن آخر لحظات عمره كانت تحت راية النبي ﷺ، ويا لها من خاتمة، ولكن كلّ هذا لم يُلغِ أنه يحتاج من يُذكره بفضلِ أبيه، فلا شيء يرمّمُ فقد الدنيا سوى معرفة أن الآخرة خير منها وأبقى.

فإذا عزّيتَ أهل عزاءٍ بفقيدهم ذكِّرهم بحسناته وأخلاقه في الدنيا، وأن المؤمن إنما ينتقل من جوار الناس إلى جوار الله، هذا وحده يُبلسم الجرح!

في الحديث لا يذكر جابرٌ أن النبي ﷺ قضى دين أبيه، ولكنه عليه السلام قد فعلَ، ليس مع جابرٍ فقط، وإنما حين كثُر المال، كان يقول للمسلمين: من تركَ مالاً فَلِوَرَثَتِه، ومن تركَ دَيْناً فعلينا!

أحياناً يموت الناس في المستشفيات، ويتركون وراءهم حساباً ثقيلاً لا يستطيع الأهل تسديده، وأنتَ أعلم بحال الميت وأهله، فإن علمتَ فيهم فقراً، وقلة ذات يد، سَلهم إذا ما كانوا يحتاجون شيئاً، والأنبل لو بادرتَ بالمساعدة من غير سؤال إذا غلبَ على يقينك أنهم أهل حاجة، فلا يجتمع عليهم ألم الفقد، وثقل الدَّين!

ما فَعَلَ شِرادُ جَمِلِكَ؟!

خرجَ رسولُ اللّه ﷺ إلى «مرِّ الظَّهران» وهي قرية قرب مكة، وكان مِمَّن خرجَ معه الصحابيُّ خَوَّاتُ بن جُبير. خرجَ خَوَّات من خيمته، فإذا نسوةٌ يتحدثنَ، فأُعجِبَ بهنَّ! فرجعَ إلى خيمته وأخرجَ حُلَّةً جميلة من بين ثيابه ولبسها، ثم جلسَ إليهنَّ! فرآه النبيُّ ﷺ، وقال له: يا أبا عبد اللّهِ ما يُجلسكَ إليهنَّ؟

فقال له: يا رسول اللّه لي جملٌ شَرود، أبتغي له قيداً!

فأشار إليه النبيُّ ﷺ أن قُمْ!

ثم ارتحلوا يقصدون المدينة، فكان النبيُّ ﷺ كلما رآه في الطريق قال له: السلام عليكَ يا أبا عبد اللّه، ما فعلَ شِرادُ جملك؟!

وعندما وصلوا المدينة، اجتنبَ خوَّاتُ المسجد حياءً من النبيﷺ أياماً، ثم عاد أخيراً إلى المسجد، وقام يصلي، فجاء النبيُّ ﷺ، فصلى ركعتين، وخوَّاتُ يُطيل في صلاته يريدُ أن يذهبَ النبيُّ ﷺ حتى لا يُذكِّره بما كان منه! ولكن النبيّ العظيم والمُربِّي الرائع قال له: طوِّل أبا عبد اللّه ما شئتَ، فلستُ راحلاً حتى تنتهي!

فلما لم يجد حلاً غير أن يُنهي صلاته، أتمَّها وسلم، فإذا النبيُّ ﷺ يقولُ له: ما فعلَ شِرادُ جَملكَ؟!

فقال له خوَّاتٌ: والذي بعثكَ بالحق ما شردَ ذاك الجمل منذ ذلك اليوم!

فقال له النبي ﷺ: يرحمك اللّه!

ولم يعد يسأله بعدها!

عَلِمَ النبيُّ ﷺ أنه لم يكن لخوَّات جمل شارد، وإنما جلسَ إلى النسوة في لحظة ضعفٍ بشري، ولأنه كان يعلمُ عنه خيراً لم يُرِدْ أن يفوتها له، ولكن انظرْ إلى الأسلوب، لم يقلُ له أعلمُ أنك تكذبُ عليَّ ولا جملَ لكَ، ولكن بسؤاله المتكرر: ما فعَلَ شِرادُ جملك! كان يقول له أنا أعلمُ حقيقة الأمر!

إحدى مآسينا في هذا الزمان أننا نتعامل مع بعضنا بعضًا بغلظة، ننتظِرُ الهفوات أن تقع لنمحوَ كلّ عملٍ نبيلٍ، وماضٍ مشرق لصاحب الهفوة، ربما شهَّرنا به، أما النبيُّ ﷺ، فقد أبقى الأمر بينه وبين صاحبه، وبشيء من التكرار الحلو، والتأنيب العذب، جعله يقرُّ بخطئه دون أن يفضحه!

نحن نهاية المطاف بشر، المُؤمن والكافر، الطَّائع والعاصي، العالِم والأُمِّي، الغني والفقير، الوزير والخفير، فينا شهوات تستعر، وحبٌّ للمال جُبلنا عليه، ورغبة الرجال في النساء، والنساء في الرجال تسري في دمائنا، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

نحن نرتكبُ المعاصي في لحظة ضعف بشري، لا في لحظة كُفر، واستهانة بمراقبة الله لنا، واستخفافاً بالشريعة المُحمَّدية، لهذا علينا أن ننظر في ذنوب الناس على أننا عباد لا على أننا أرباب!

صحيح أنه علينا أن لا نرضى المعصية، وأن نُنكرها بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا، ولكن علينا أن نعرف أن المعصية التي ارتكبها

فـلان، والذنـب الـذي ارتكبتـه فلانـة، قـد عصمنـا اللّه منـه رحمـةً وفضـلاً، ولـو رفـع عنـا عصمتـه وفضلـه لارتكبنـا مثلهـم وأكثـر، فاستُروا ولا تُعيِّروا، فما عيَّرَ أحدٌ أحداً بذنبٍ إلا ووقع فيه لاحقاً!

هـذا صحابـي، رأى النبـي ﷺ، وسـافر معـه، وجاهـد معـه، وصلـى معـه فـي المسـجد، ثـم إذا بـه يضعـف لحظـةً، ويغلبـه هـواه ونزعتـه الإنسـانية، فمـا بالـك بنـا نحـن، فترفَّقـوا بالنـاس!

إنها كانت تُحبُّ خديجة!

كانتْ في الأربعين من عمرها وكان هو في الخامسة والعشرين! كانتْ حنونة تُغدِقُ عليه كلَّ قلبها فتُشعره أنها في مثل سنِّه، وكان حكيماً ناضجاً إلى الحد الذي يُشعرها أنه في مثل سنِّها!

كانتْ ثرية جداً ولكنها كانت تُشعره أنه عندها أغلى ممَّا تملك، وكان فقيراً ولكن كان يُشعرها أنها أغلى عنده ممَّا تملك!

فإن قيل لك أنَّ الحُبَّ يصنع المُعجزات فصدِّقْ!

وينزلُ الوحي، ويا لهول الموقف، لا بُدَّ له من ملجأ بعد هذا الذهول والبرد الذي أصابه، فلم يذهب إلى عمِّه الشجاع حمزة، ولا إلى عمِّه الحنون أبي طالب، ولا إلى صديقه الوفي أبي بكر، وإنما ذهب إلى خديجة، كان يعرفُ أنَّ عنده امرأة تُساوي جيشاً كاملاً ولقد كانتْ عند حُسنِ ظنه بها! هدَّأته، وذكَّرته فضائله، ثم أخذته إلى ورقة بن نوفل، فلما علمتْ أنه نبي كانت أول من أسلمَ من أهل الأرض!

وتموت خديجة... وتضيقُ الأرضُ عليه، فيأخذه ربُّه إلى السماء فيما يُشبه عزاءً لرجل مكلوم فقدَ حبيبته الحنون، وصديقته الرؤوم، وزوجته الوفيَّة! ويُهاجر ويتزوج ويبقى مكان خديجة في قلبه شاغراً لا يملأه أحد!

كان قد شارف على الستين حين رأى عجائز قد شارفنَ على الثمانين فخلعَ رداءه ليجلسنَ عليه، وقال لمن حوله يُبدِّد استغرابهم: هؤلاء صُويحبات خديجة!

وتأتيه امرأة عجوز في بيته، فيهشُّ لها ويبشُّ، فتستغربُ عائشة كل هذا الترحاب، فيُعلِّل قائلاً: إنها كانت تأتينا زمان خديجة!

زمان خديجة! ألاحظَ أحدكم أنه كان يُؤَرِّخ حياته بها!

وكان يذبحُ الشاة، ويُقطِّع لحمها ثم يقول: أعطوا منه صُويحبات خديجة!

ويقول أنس كان النبيُّ ﷺ إذا أُتِيَ بالشيء يقول: «اذهبوا به إلى بيت فُلانة فإنها كانت تُحِبُّ خديجة»!

إنه لا يُحبها فقط، بل يُحبُّ كل من أحبَّها!

مُخطئ من يعتقدُ أن الحُبَّ منقصة للرجولة، وأن إظهار الحُبِّ والاهتمام والوفاء ضعف في الشخصية، ها هو سيد الرجال يحبُّ خديجة حيةً وميتة، فلا تخجلوا بمشاعركم، عيشوها حتى آخر رمق، لا شيء في الدنيا أجمل من الحُبِّ الحلال!

مُخطئ من يعتقد أن القسوة هي التي تصنعُ منه رجلاً، بل الرجل بمقدار ما يلينُ ويعطِف ويُكرم ويُدلِّل، وإن حُسْنَ العهدِ من الإيمان كما قال سيدنا!

مُخطئ من يعتقد أن النساء لا يمشين إلا بالصوت والسوط، بالحُبِّ وحده يمكن امتلاك المرأة، بالحُب وحده!

ربِحَ البيعُ أبا يحيى!

كان الوقتُ قد حانَ للخروج من ضِيق الدَّعوة المكيَّة إلى سِعة الدولة المدنيّة، لقد تربُّوا فيها بما يكفي، وجازوا الامتحان الصَّعب، جعفرٌ خرج إلى الحبشة بمن معه مُؤثرين الدِّين على الوطن، وبلال مرَّغ كبرياء أمية بن خلف في التراب، وحمزة صفعَ أبا جهلٍ على وجهه، وعلي يفتدي النبي ﷺ ويبيتُ في فراشه، وأبو بكرٍ يشتري رقيقَ المسلمين ويُعتقهم، ثم يسير رفقة صاحبه إلى المدينة إيذاناً ببدء مرحلةٍ جديدة ستُغيِّرُ وجه الأرض إلى الأبد!

لم تعُدْ مكة تُغري المسلمين بالبقاء فيها، حبيبهم في المدينة، وما يفعل المرءُ وحيداً دون محبوبه! بدأوا يخرجون واحداً تلو الآخر على غفلة من قُريش، وها هو صهيبٌ يخرجُ قاصداً المدينة، غير أنَّ قُريشاً قد أحسَّتْ بخروجه فأرسلتْ في إثره نفراً يُعيدونه، فوقف قبالتهم وأخرجَ سهامه من كنانته، وقال لهم: يا معشر قُريش تعلمون أني أرماكم، واللهِ لا تصلون إليَّ حتى أرميكم بكل سهم معي، ثم أضربكم بسيفي ما بقيَ بيدي منه شيء!

فقالوا له: أتيتَنا صعلوكاً فكثُر مالك عندنا، ثم تُريدُ أن تخرجَ بنفسك ومالك، واللهِ لا يكون ذلك!

فقال: أرأيتم إن تركتُ لكم مالي هل تخلُّون سبيلي؟

قالوا: نعم.

فدلَّهم على الموضع الذي خبَّأ فيه ماله بمكَّة، فتركوه يمضي في سبيله!

وكان النبيُّ ﷺ في بثٍّ مُباشرٍ مع الحدث، جبريلُ ينقلُ إليه الواقعة، وينزلُ عليه بقول الله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾

ولما وصل صهيبٌ إلى المدينة، تلقَّاه النبيُّ ﷺ بوجهٍ باسم كأنه فلقة قمر، وقال له: ربح البيع أبا يحيى، ربحَ البيعُ أبا يحيى!

ربحَ البيعُ لأنه التَركُ لله!

كل معصيةٍ تزينتْ لكَ، ولا يحول بينك وبينها إلا أنكَ ستتركها للهِ فاستشعر معها ربِحَ البيعُ، يُصبحُ التَّركُ وقتها لذةً أجمل من لذة الأخذ!

كل انتقام كان بإمكانك أن تنتقمه، ولا يحول بينك وبينه إلا أنك ستتركه لله، استشعر معه ربحَ البيعُ، يُصبحُ العفو لذةً أجمل من لذة الانتقام!

كل مديون عجزَ أن يُسدد لكَ ما تبقى لكَ عنده، فآثرتَ أن تُسامح وتتصدَّق وتستر، بدل أن تفضحَ وتشكو، استشعرْ عندها ربِحَ البيعُ، ستُصبح لذة الصَّدقة أجمل من لذة استرداد المال!

كل مالٍ وضعته في يد فقير، وأنت تعلمُ أنك تضعه في يدِ الله أولاً، استشعرْ معه ربِحَ البيعُ، ستفوق لذة العطاء لذة الأخذ!

كل موقفٍ امتلأتَ فيه غضباً على زوجةٍ أو ولد، ثم استعذتَ باللهِ، وكتمتَ غيظكَ لوجه الله، استشعر معه ربِحَ البيع، ستصبح لذة العفو نصراً أجمل ألف مرةٍ من لذة أن تأخذ حقكَ بيدك!

بئسَ أخو العشيرة!

كلّ كلامه حكمة، وكلّ موقف له درس، وكلّ لحظة من لحظات عمره يجب أن تُدوَّن بحبر من ذهب على صحائف من فضة، هو الرجل الذي لا يوجد منه في تاريخ البشرية إلا نسخة واحدة، وهذه حكمة أخرى، ودرس آخر، ولحظة يجب أن تُدوَّن!

كان يوماً جالساً في بيت عائشة، فاستأذن رجلٌ في الدخول عليه، فقال: ائْذنوا له بئس أخو العشيرة!

فلما دخل عليه ابتسم في وجهه، وألانَ له الكلام، فلما غادر الرجلُ، قالت له عائشة: يا رسول الله: حين استأذنَ عليك قلتَ الذي قلتَ، ثم تبسَّمتَ له وانبسطتَ إليه!

فقال لها: يا عائشة، متى عهدتني فحَّاشاً، إن شرَّ الناسِ عندَ اللهِ منزلًة يوم القيامة من تركه الناسُ اتقاء شرِّه!

هذا درس بليغ في المُداراة! ويخلطُ الساذجون بين المُداراة والنفاق، وهذا خلطٌ مذمومٌ، وفهمٌ عقيمٌ لأدبيات التعامل مع الناس!

هناك تصرفات متشابهة قد تبدو للْوهلة الأولى متطابقة، ولكن إذا ما تأملناها بعين الفَراسة بدا لنا البون شاسعاً، وأن بينهما شعرةً رقيقة يا لحظِّ من أدركها فقد فهم الحياة!

إن من يخلط بين المُداراة والنفاق كالذي يخلط بين البخيل والاقتصادي، وبين الجبان والحَذِر، وبين المتهور والشجاع، وبين الوقح والجريء، وبين المُبذِّر والكريم!

قد يمنعك ظرف ما أن تقول للظالم أنه ظالم وهذه مُداراة، ولكن النفاق أن تصفق لظلمه! عدم قول الحق لا يعني الرضا بالباطل، الرضا بالباطل هو التصفيق له، والشدّ على يد أهله، على أنَّ الأصل هو قول الحق، ولكن اللّٰه أعلم بظروف العباد!

والأهم من هذا كله، احذرْ أن تكون أنتَ بئسَ أخو العشيرة!

أن يُداريك أبواك وينتقيا كلامهما معك خوفاً من سلاطة لسانك وسوء طبعك وقلة أدبك!

وأن تُداريك زوجتك لطول يدك!

وأن يُداريك أولادك لسوء خلقك!

وأن يُداريك جارك لأنه يعرف أنك كالعبوة الموقوتة، لا أحد يعرف متى تنفجرُ في وجهه!

وأن يُداريك زملاؤك في العمل لأنك مؤذٍ وشرير، لا يُؤتمن جانبك!

وأن يُداريك جلساؤك خوفاً من كلمة قد تصدر منهم عن أحدٍ، فتحملها إليه لأنهم عهدوا فيك أنك تمشي بالنميمة بين الناس!

عندما يتحدث معك أبواك بأريحية، وتُجادلك زوجتك بأمان، ويُناقشك أولادك بسلام، ويتعامل معك جارك بتلقائية، ويتصرف معك زملاؤك ببساطة فأنتَ إنسان عظيم، وما كان هذا منهم إلا لأنهم علِموا حسن أخلاقك.

المُهابُ أحياناً سيىءُ الخُلُق!

يُروى أنّ الخليفة المأمون نادى يوماً على غلامه ووجوه الناس وأعيانهم عنده، فلم يُجبه، فنادى ثانية فلم يُجبه، ثم في الثالثة خرج الغلام وقال: ما هذا القصر، كلّما غبتُ عنكَ ناديتَ يا غلام يا غلام!

فقبض المأمون على لحيته وصمت، وغطّى الحاضرون وجوههم خوفاً من أن يضرب عنقه فيُصيبهم دمه! ولكنه رفع رأسه وقال: إنّ الملوك إذا حسنت أخلاقها ساءت أخلاق عبيدها، وإذا ساءت أخلاقها حسنت أخلاق عبيدها، وإني لا أشتري سوء خلقي بحسن أخلاق عبيدي!

غارتْ أُمُّكم!

كان يقسِمُ المبيت بين نسائه، لكل واحدة منهنَّ ليلة، وكانتْ تلك الليلة ليلة عائشة، كان يجلسُ في بيتها وعنده بعض أصحابه الذين كانوا على موعد مع درس عظيم في الحياة الزوجية!

وتطبخُ زينب بنت جحشٍ طعاماً، ولا تطيبُ نفسها أن تأكل حتى تُطعمَ النبيَّ ﷺ منه، فتسكبُ له الطعام في صحنٍ لها، وتُنادي على خادمها ليذهب به إلى النبي ﷺ، وهناكَ أصابَ عائشة ما يُصيبُ الضرائر من الغِيرة، إنه بِعُرْفِ النساء اعتداءٌ على ليلتها، فتضرِبُ يد الخادم، ويقع الصحن وينكسر، وينسكبُ ما فيه على الأرض!

ضَعْ نفسك مكانه! يا له من موقف مُحرج، زوجتك ترمي بصحنِ طعام أرسلته إليك زوجتك الأخرى أمام ضيوفك! لا شكَّ أنكَ قد شعرتَ بالإهانة، وأول ما ستفكر به أن تثأر لرجولتك، وستُعنِّفها أمامهم مُحاولاً أن تُخبرهم بطريقة غير مُباشرة أنك سيد البيت ولا ترضى بهذه المهزلة!

ولكن اُنظُر إليه كيف تصرَّف، وتعلّمْ الدرس!

جلسَ على ركبتيه، وجمعَ أجزاء الصحن المكسور، ولملمَ الطعام عن الأرض، وقال لمن حوله مبتسماً: غارتْ أُمُّكم! ثم أبقى الخادم عنده قليلاً، ريثما تُحضر عائشة صحناً بدل الذي كسرَتْه وتُرسله مع الخادم إلى زينب!

حـربٌ زوجيـة كانـتْ علـى وشـك أن تقـع أطفأهـا بهدوئـه واتزانـه وفقهـه، علِـمَ أن المـرأة تغـار فـي مثـل هـذه المواقـف، وأنهـا متـى غـارتْ تفقِـدُ شـيئاً مـن لياقتهـا وحُسـن تصرفهـا!

لـم يُعنِّفهـا ليُثبـت رجولتـه، لقـد أثبتهـا بطريقـة أخـرى، باسـتيعابه للموقـف، باتزانـه، وبرجاحـة عقلـه!

إنّ الحيـاة تضعنـا كل يـوم أمـام مشـروع مُشـكلة وقطيعـة، ردُّ فعلنـا هـو الـذي يجعلهـا مُشـكلة، أو يُطفـئ النـار قبل أن تشـتعل، ومُخطئٌ من يظـنُّ أن الحيـاة الزوجيـة سـاحة حـرب عليـه أن ينتصـر فـي كل معركـة فيهـا، علـى العكـس إنّ الحيـاة الزوجيـة لا تسـتمر إلا بالتغاضـي، تغاضـي الرجـل وتغاضـي المـرأة، فلـو وقفنـا عنـد كل تصـرف، ولـو انفعلنـا عنـد كل كلمـة لأصبحـت الحيـاة جحيمـاً لا يُطـاق!

ثـم اُنظـرّ إليـه، إنـه لا يتغاضـى عنهـا فقـط، وإنمـا يلتمـسُ لهـا العـذر، لقـد كسـرت الصحـن بدافـع الغيـرة! لقـد راعـى طبعهـا. فالذي يُريـدُ أن ينجـح فـي الحيـاة عليـه أن يفهـم طبـاع النـاس، أن لا يُعامـل الزوجـة بنفـس العقليـة التـي يُعامـل بهـا صديقـه، وأن لا يُعامـل أولاده بنفـس العقليـة التـي يُعامـل بهـا زمـلاءه فـي العمـل، لـكل فئـة عمريـة، وكل طبقـة اجتماعيـة، طبـع ومشـاعر مُختلفـة عـن الأخـرى، والـذي يتعامـل مـع الجميـع بعقليـة واحـدة كالطبيـب الـذي يُعالـج جميـع المرضـى بـدواء واحـد!

الغضـبُ يُعمـي العقـل، فـلا تتحـاوروا فـي لحظـة غضـب، فالحـوار فـي لحظـة الغضـب كمُحاولـة رؤيـة الإنسـان وجهـه علـى صفحـة المـاء وهـو يغلـي، دع المـاء يبـرد ويصفـو ثـم اُنظـرّ إليـه، وهكـذا هـي الحيـاة الزوجيـة.

لكني أفقِدُ جُليْبِيباً!

كان جُليبيبٌ دميم الوجه، قصير القامة، لا مال له! أي امرأةٍ تقبلُ بهذه المواصفات؟! لا حُسن وجه يُغطّي على الفقر، ولا غنى يُخفّف شيئاً من الدمامة! كل ثروته في الحياة أن النبيَّ ﷺ كان يُحبه، ويا لها من ثروة، لو حازها المرءُ ما ضرَّه ما خسِرَ بعدها، فالمرءُ مع من أحبَّ!

ثم ارتأى النبيُّ ﷺ أن يبحثَ لجُليبيبٍ عن زوجة، فقال لرجلٍ من الأنصار: زوِّجني ابنتك! فقال الأنصاري: نِعْمَ عيني يا رسول اللّه!

فقال له: إني لستُ أُريدها لنفسي!

قال: فلمن يا رسول اللّه؟

قال: لجُليبيب!

فقال: حتى أُشاور أمَّها! فأتى زوجته، وأخبرها بالخبر، فقالتْ: لا واللّهِ ما نُزوِّجه! فلمَّا أراد أن يقوم ويُبلغَ النبيَّ ﷺ قرارهما برفض جُليبيب، قالت لهما البنت: من خطبني منكما؟

فقالا: رسول اللّه ﷺ.

فقالت: أتَرُدُّون أمرَ رسول اللّه، قبلتُ، ولن يُضيِّعني اللّه!

وتمَّ الزواج، ثم كانت غزوة، وكان من عادة النبيِّ ﷺ إذا انتهتْ المعركة أن يقول: هل تفقدون أحداً؟

فقالوا: لا يا رسول اللّه.

فقال: لكني أَفقِدُ جُليبيباً، فابحثوا عنه بين القتلى!

فبحثـوا عنـه، فوجـدوه إلـى جانـب سـبعةٍ قـد قتلهـم، ثـم قتلـوه، فقالـوا: هـا هـو يـا رسـول اللّه!

فأتـاه، ووقـف عنـد رأسـه وقـال: قتلَ سـبعةً وقتلـوه، هـذا مِنِّـي وأنـا منـه، هـذا مِنِّـي وأنـا منـه! ثـم وضعـه علـى سـاعده ريثمـا يُحفـر لـه قبـر، فلمـا انتهـوا، أنزلـه فـي قبـره.

يُحسـبُ للبنـت أنهـا قبِلـتْ طلـب رسـول اللّه وإن خالـفَ هواهـا، ولكـن هـذا لا يُلغـي أن مـن حـق البنـت أن تشـترط الوسـامة أو شـيئاً منهـا فـي الـذي سـتتزوجه، وقـد كان عُمـر بـن الخطـاب يقـول: لا تُكرهـوا فتياتكـم علـى الرجـل القبيـح، فإنهـنَّ يُحببـنَ مـا تُحبـون!

وليـس فـي هـذا قلـة أدبٍ ولا قلـة ديـن، بالمناسـبة عندمـا وافقـتْ البنـت علـى الـزواج مـن جُليبيـب، دعـا النبـيُّ ﷺ لهـا وقـال: اللهـمَّ صُـبَّ الخيـر عليهـا صبـاً ولا تجعـل عيشـها كـداً كـداً! فكانـتْ مـن أكثـر النسـاء مـالاً بعـد جُليبيـب!

أيضـاً مـن حق الأهـل أن يختـاروا لبناتهـم الأفضل وظيفـةً وتعليمـاً، صحيـح أننـا أُمرنـا أن نبحـث عـن الدِّيـن أولاً، ولكـن إذا اجتمعـتْ كل الصفـات فنـورٌ علـى نـور، وهـؤلاء صحابـة، ولـو رفضـوا تزويـج ابنتهـم لجُليبيـب مـا أجبرهـم النبـي ﷺ، ولا غضـبَ منهـم، لـكل أُسـرة معاييرهـا، فاحترمـوا معاييـر النـاس!

علـى أهميـة الشـكل والأناقـة والمـال، إلا أن هنـاك فارقًـا شـاسـعًا بيـن البحـث عـن هـذه الأشـياء حيـن الارتبـاط، وبيـن جعلهـا معيـاراً للتفاضـل بيـن النـاس، ليـس بالضـرورة أن الأغنـى هـو الأفضـل، فقـد خسـفَ اللّه بقـارون الأرض، وليـس صاحـب المهنـة مُسـتقبحاً وقـد كان

زكريا عليه السلام نجاراً . وكم من وسيم سيدخل النار، وكم من دميم هو من أهل الجنة! أن لا نقبل الارتباط بصفات دنيا شيء، وأن نحتقر الناس شيء آخر، الأمر أشبه بأنك تريدُ لابنك وظيفةً غير كناسٍ للطريق، ولكنك بالمقابل لا تحتقر كنَّاس الطريق!

لا تبرحوا أماكنكم!

خرجتْ قُريش من غزوة بدر مُثخنة، فقد مرَّغ الإسلام كبرياءها في التراب، وقتلَ أبرز رؤوس الكفر فيها، لهذا لم تكن غزوة أُحُد مجرَّد جولة ثانية من صراع الحق والباطل، كانتْ بالنسبة إلى قُريش تعني الثأر، أما المُسلمون فقد كانوا على موعد مع واحد من أبلغ الدروس في تاريخ الإسلام!

لاحظَ النبي ﷺ ميمنة جيش قريش بقيادة خالد بن الوليد، فخشِي أن يلتفَّ بفرسانه من وراء الجبل ويُصبح المسلمون بين فكَّي كماشة، فوضع سبعين من الرُّماة على الجبل، وأصدر إليهم أمراً عسكرياً واضحاً: لا تبرحوا أماكنكم، إن رأيتمونا نُهزم فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نُنصر فلا تُشاركونا!

وبدأت المعركة، وأبلى المسلمون بلاءً حسناً، وذاقتْ قُريش بعض الذي ذاقته في بدر، فرَّ جنودها، وتبعهم المسلمون، ثم ظنَّ الرُّماة على الجبل أن الأمر انتهى، فنزلوا يُريدون الحظ من النصر والغنائم! عندها حدث ما كان النبي ﷺ يخشاه، التفَّ خالد بفرسانه وصار المسلمون بين فكَّي كماشة، وتحوَّل نصرهم إلى هزيمة، وتعلَّموا الدرس البليغ: هذه الأُمة لن تُحقِّق النصر ما لم تلتزم بأوامر نبيِّها وقائدها!

فإن كانتْ غزوة أُحُد قد انتهتْ فإنَّ مهمة الرُّماة الذين يحفظون ظهور المسلمين لم تنتهِ بعد، فطوبى للمُدافعين عن هذا الدين كل في مجاله، طوبى للقابضين على الجمر رافضي

الانحناء والتلوُّن، كلما وهنوا قليلاً تعزّوا بصوت النبي ﷺ يُنادي فيهم: لا تبرحوا أماكنكم!

فلا تبرحوا أماكنكم!

الأمهات اللواتي يُربين أولادهن على الصلاة والصيام والأخلاق، أنتنَّ تحمين ظهورنا فلا تبرحن أماكنكن!

الآباء الذين يسألون أولادهم عن جزء عمَّ كما يسألونهم عن علاماتهم المدرسية، أنتم تحمون ظهورنا فلا تبرحوا أماكنكم!

المُدرِّسون الذين يُؤمنون أنَّ هذا الجيل إذا تربَّى جيداً يُمكن أن يخرج منه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي مرة أخرى، أنتم تحمون ظهورنا فلا تبرحوا أماكنكم!

المُوظفون الذين يُؤدون أعمالهم بمهنية وضمير، ويُراقبون اللّٰه قبل مدرائهم، أنتم تحمون ظهورنا فلا تبرحوا أماكنكم!

المهندسون الذين يُشيِّدون الجسور، ويشقون الطُرُق دون غش واحتيال وصفقات مشبوهة، أنتم تحمون ظهورنا فلا تبرحوا أماكنكم!

فتيات الحجاب والعفة اللواتي يُربين أنفسهن استعداداً لتربية أولادهن، أنتن تحمين ظهورنا فلا تبرحن أماكنكن!

شباب صلاة الفجر، ومجالس الحديث، ودُور القرآن، أنتم ترسانة الإسلام الأفتك والأقوى، فلا تبرحوا أماكنكم!

كل واحد فينا لو تأمَّل موضع قدميه لاكتشف أنه جندي لأجل هذا الدين، وأنه لو حارب بشراسة وأمانة فإنه سيسدّ ثغراً هاماً، ويدفع خطراً عظيماً، كل واحد منا في مكان وضعه اللّٰه فيه، وألقى على كتفه مسؤولية وأمانة، فلا تبرحوا أماكنكم!

إنما أنا شافع!

كانتْ «بريرة» أَمَةً مملوكة لأُناسٍ من الأنصار، وكان لها زوج اسمه مغيث، واشتاقتْ نفس بريرة للحرية فكاتبتْ أسيادها لأجل إعتاقها، وبعد أن تمَّتْ المُكاتبة، وسدَّدتْ بريرة ثمن حريتها، كان أول قرار اتخذته أن تُفارق زوجها مغيثاً! فالشرعُ يُعطي الأَمَة خيار أن تبقى مع زوجها أو تُفارقه إن هي تحرَّرتْ وبقيَ هو عبداً، وقد اختارتْ بريرة أن يكون فِراقاً!

وكان مغيث يُحبها حُباً جماً، ويمشي خلفها في طرقات المدينة يستعطفها أن ترجع إليه فلا تلتفتُ له!

وكان النبي ﷺ يسير في الطريق رفقة عمه العباس فرآهما على هذه الحال، فقال لعمِّه: يا عباس ألا تعجبُ من حُب مغيثٍ بريرة ومن بُغض بريرة مغيثاً؟

وعندما يئِس مغيث من عودة بريرة إليه، قصدَ النبي ﷺ ليُكلِّمها أن ترجع إليه، فأرسل النبيُّ ﷺ في طلب بريرة وقال لها: يا بريرة لو راجعته فإنه زوجكِ وأبو ولدكِ؟

فقالت له: يا رسول اللّه تأمرني؟

فقال: إنما أنا شافع.

فقالت: لا حاجة لي فيه!

من ناحية دينية فإن رسول اللّه ﷺ هو نبي هذه الأمة، ومن ناحية سياسية فإنه رئيس الدولة، ورغم هاتين المكانتين

الساميتين لا يردُّ عبداً مملوكاً طلب منه خدمة! فهل مشينا نحن في حاجة ضعفاء المسلمين وفقرائهم أم تذرَّعنا بانشغالنا تارة، وبأنهم ليسوا على قدر مقامنا تارةً أخرى، ناسين أو مُتناسين أن كلنا لآدم وآدم من تراب!

وانظُرْ لأدب بريرة لو أمرها النبيُّ ﷺ أن ترجع إلى مغيث فإنها كانت سترجع رغم إنَّ رجوعها على غير هواها، فهل قدَّمنا شرع الله وأوامر النبي ﷺ على أهوائنا ومشاعرنا ورغباتنا، هل فعلنا الحلال الصعب على النفس، وتركنا الحرام الذي نميل إليه بنزعتنا الإنسانية لا لسببٍ سوى أن الله ورسوله أرادا أن نفعل ففعلنا وأن نترك فتركنا؟!

أنتَ مأجور على سعيك للإصلاح بين الناس ولو لم يتم الصلح، نحن لن نُحاسَب على النتائج إنما سنُحاسَب على ما فعلناه، ثواباً للخير ووِزراً للشر بغض النظر أثمر الخير أم لا، وآذى الشر أم لا، فلا يقُلْ لك الشيطان لا تمشِ في الصُّلح بين فلان وفلان لأنهما لن يقبلا وساطتك! ما ضرَّك إن لم يقبلا، لا تأخذ الأمر على محمل شخصي، هذا نبيُّ الأُمَّة لم تقبل امرأة كانت بالأمس مملوكة شفاعته، فلم يغضب ولم يحمل عليها!

هذا الدين كرَّم النساء، واحترم رغبات قلوبهنَّ، امرأة لا تُريد رجلاً فلم يُجبرها النبي ﷺ عليه، فعندما ترفضُ ابنتك عريساً فلا تُجبرها عليه، لأنَّ في هذا ظلم لها وله! وفيه عدم حفظ أمانة، فالله سبحانه وضع ابنتك عندك أمانة وهو ينظر إليك ما تفعل بهذه الأمانة، فالله الله في قلوب النساء!

أوَمُخرِجيَّ هُمْ؟!

كانت الارضُ غارقةً بالضلال حتى أخمص قدميها، اللهُ يخلقُ ويُعبدُ غيره، ويرزقُ ويُشكرُ سواه، أعراضٌ تُنتهك، وبناتٌ تُوأَدُ، وأُناسٌ يُباعون في الأسواق! ثم شاء الرحيم أن يتلطَّفَ بالبشرية!

على مرمى سهم من الكعبة التي تعجُّ بالأصنام، كان هناك رجل وحيد في غار حراء يتأمل السماوات والأرض، ويَعرفُ أنَّ دينَ قريشٍ باطل، وأنّ الله أجلُّ وأعلى من أن يرضى ديناً كدينها! كان مُهيَّأً بإتقان ليستلم لواء البشرية ويُغيِّر وجه العالم، ثم حانت اللحظة، وأُوقِدتْ أول شمعة في ظُلمة الأرض «اِقرأْ»!

ويا لهول الوحي، ويا لرهبة الموقف! وينزلُ النبيُّ ﷺ إلى بيته مُرتجفاً يقول: دثِّروني، دثِّروني!

وعند خديجة، المرأة التي لا يُوجد منها في تاريخ البشرية إلا نسخة واحدة، يتلقَّى الحبيبُ أولَ سلوى! ضمَّته إلى صدرها، وقالتْ له بقلبها على هيئة كلمات: واللهِ ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصِلُ الرَّحم، وتصدُقُ الحديث، وتحملُ الكلَّ، وتكسبُ المعدوم وتُقري الضيفَ، وتُعين على نوائب الحق!

ثم أخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان رجلاً طاعناً في السِّن والحكمة، عالِماً بالتوارة والإنجيل، حنيفاً على مِلَّةِ إبراهيم عليه السلام، وقالتْ له اسمع من ابن اخيك!

فلما حدّثه النبيُّ ﷺ بما كان بينه وبين جبريل، أخبره ورقة أن هذا هو الوحي الذي كان يأتي الأنبياء من قبله، وأنه سيكون

النبـيَّ لهـذه الأمـة! ثـم قـال لـه قولـة الحكيـم الـذي يعـرفُ سُـنَّة الله فـي النـاس، وصـراع الحـق والباطـل علـى مـرّ التاريـخ: ليتنــي فيهـا جذعـاً، ليتنــي أكـونُ حيـاً إذ يُخرجـكَ قومُـكَ!

فيسـأله النبيُّ ﷺ بدهشة: أوَمُخرِجيَّ هُمْ؟!

فقال له: نعم، لم يأتِ رجلٌ بمثلِ ما جئتَ به إلا عُوديَ!

وكأنَّ النبـيّ ﷺ يومهـا يسـأل: لـمَ سـيُخرجونني؟ مـا الذنـبُ الـذي اقترفتُـه، ومـا الجريمـة التـي ارتكبتُهـا، أيُّ مـالٍ أخـذتُ، وأيُّ دمٍ سـفكتُ حتـى يُحـال بينـي وبيـن وطنـي؟

ثـم دارت الأيـام، وأخبرتنـا سـيرته، أنـه مـا عُـودِيَ إلا لأنـه جـاء بالحـقِّ، والحـقُّ أثقـل علـى الطغـاة مـن الجبـال!

ونحـن اليـوم بضعـة منـه، وبقيـة رسـالته، ومـا تكالبـتْ علينـا الأمـم إلا للحـقِّ الـذي معنـا، ومـا أثقلـه عليهـم!

فكلَّمـا ضاقـتْ عليكـم، كلَّمـا رأيتـم البـلاد تُحاصـر، والصواريـخ تهـدِمُ البيـوت وتحصـدُ الأرواح، كلمـا رأيتـم الإعـلام قـذراً يريـدُ أن يُطفـئَ شـمعتكم، ويُحـرِّض عليكـم، ويرميكـم بِتُهـمِ الإرهـاب والرجعيـة والتخلُّـف تعـزُّوا بالنبـي ﷺ!

تخيلـوه نـازلاً مـن غـار حـراء يرتجـفُ مـن هـول الوحـي، مُحاصَـراً فـي شِـعب أبـي طالـب، مرجومـاً فـي الطائـف، ممنوعـاً مـن دخـول مكـة، مُتآمَـراً عليـه ليُقتـل ويتفـرق دمـه بيـن القبائـل، مُطـارَداً يـوم الهجـرة، مَاسـحاً الـدم عـن وجهـه يـوم أُحـد، شـاكياً سُـمَّاً دسَّـته لـه امـرأة يهوديـة، كـم تعـبَ ليكـون لكـم ديـن، فعَضُّـوا عليـه بالنواجـذ!

إنها جرَّتْ بالرَّحى!

شكتْ فاطمة ريحانة رسول الله ﷺ إلى عليٍّ تعبها من عملها في البيت، فأخبرتْهُ أنها جرَّتْ بالرَّحى حتى أثَّرتْ في يدها، واستقتْ بالقِربة حتى أثَّرتْ في عُنقها، وكنستْ البيت حتى اغبرَّتْ ثيابها! فقال لها: لقد جِيء لأبيكِ بِسَبي، فلو ذهبتِ إليه وسألتِهِ خادماً! فذهبتْ فاطمة إلى النبي ﷺ، فوجدتْ عنده أُناساً، فلم تُحدِّثه أمامهم، ولكنها أسرَّتْ لعائشة بسبب مجيئها، وعادتْ إلى بيتها!

فلما انفضّ مجلسُ النبي ﷺ، أخبرتْهُ عائشة بسبب مجيء فاطمة، فذهب إلى بيتها، وكانت وعلي قد أخذا مضجعهما للنوم، فاستأذن ثم دخلَ فقال: ألا أدلّكما على ما هو خير لكما من خادم؟ إذا أخذتما مضاجعكما، فكبِّرا ثلاثاً وثلاثين، وسبِّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم!

هذه فاطمة سيدة نساء العالمين، وقطعة قلب أبيها، تطحن الحبوب بالرَّحى حتى تترك الرَّحى أثرها في يدها، وتحمل الماء إلى بيتها بالقِربة حتى تترك القِربة أثرها في عنقها، وتكنسُ بيتها حتى يكسو الغبار ثيابها، فهل أنقصَ هذا من قيمتها عند زوجها، أو عند أبيها، أو عند ربها؟!

طبعاً لا شيء في أن تحصل المرأة على خادمة تُعينها على عمل البيت، فهو والله عمل شاق صعب! ونبيلٌ هو الزوج الذي

يكون فـي سَعة مادية، وبحبوحة اقتصادية، فيُحضر لزوجته خادمة تُساعدها، والأنبل هو الأب الذي نظر في حال ابنة له، فرقَّ لها وأحضرَ هو لها الخادمة، على أنَّ هذا لا يُلغي أن عمل البيت هو واجب الزوجة، تماماً كما واجب الزوج العمل خارجه والإنفاق عليها، بل وإعانتها في أعمال البيت أيضاً لأنَّ هذا من العِشرة بالمعروف!

ولكن مما ٱبتُلينا به في هذه الأيام هذه الأصوات الناعقة التي تُحاول باسم حرية المرأة أن تَهدم البيوت القائمة على الستر، وتمشية الحال بما هو متاح! وتصوير عمل المرأة في بيتها نوع من أنواع الرِّق، وإهانة النفس البشرية! ولستُ أدري أين الإهانة في أن تُطعم الزوجة عائلتها من صنع يدها، وأن تغسل ملابسهم، وتُنظِّف بيتها!

إن قيل إن الأمر شاق وصعب، فهذا نبصمُ عليه بالأصابع العشرة، ولكن هذه هي الحياة، لكل إنسان دوره، ولكل عمل مشقته! أما طرح الموضوع وجعله عبودية، وإهانة للمرأة فهذه دعوى سخيفة! إن حرية المرأة ليستْ بتجريدها من فِطرتها في أن تكون أماً وزوجةً وربةَ منزل، وإنما بتقدير وتبجيل ما تقوم به، كلاماً وفعلاً، كلاماً حلواً، وإشادة بدورها وأهميته، بهدية بين الحين والآخر، بضمة، وقُبلة جبين ويد!

لم تكن فاطمة رقيقة ولا مُمتهنة الكرامة وإن كانت تتعبُ في عمل بيتها، ولم يُحضر لها علي خادمة لأنه أراد أن يُتعبها وإنما لأنه لا يملك المال، ولم يُعطها النبيُّ ﷺ خادمة لأنه عادل، ولو أعطاها لكان عليه أن يُعطي كل امرأة في المدينة مثل ما أعطى ابنته!

افخـرنَ بأنفسـكنَ، أنتـنَّ اللواتـي لولاكـن مـا كانـت البيـوت ومـا استمرَّتْ، واستشـعرنَ الأجـرَ فـي كل عمـل، فـإذا كانـت اللقمـة التـي يضعهـا الـزوج فـي فـم زوجتـه صدقـة، فكيـف بالتـي تطبـخ لتُطعـم عائلـة، وتغسـل لتكسـوها!

وأنتم معاشر الرجال، لا تكونوا والدُّنيا عليهنَّ، أعينُوهنَّ!

ليستْ منقصـة أن تجلـي صحنـاً عنهـا، ولا سُـبة أن تجمـع لهـا الغسـيل، وقـد كان رسـول اللّه ﷺ فـي حاجـة أهلـه يرقـع ثوبـه، ويخصـف نعلـه، ويحلـبُ شـاته، وهـو سـيد الرِّجـال!

من دخلَ دار أبي سُفيان فهو آمن!

حاولتْ قُريش أن تُثنيه عن دعوته فلم تُفلح، لا الترغيب آتى أُكُله، ولا الترهيبُ أثمر! ولأنَّ العربَ تقولُ: آخِرُ العلاج الكيِّ! حزمتْ قُريشٌ أمرها على قتله! خطة مُحكمة، من كل قبيلةٍ رجلٌ ليتفرَّق دمه بين القبائل، فيعجز بنو هاشم عن الأخذ بالثأر ويرضون بالدية! ولكن النبيَّ المحفوف بالعناية الإلهية أُوحيَ إليه أن يتركَ عليَّاً في فراشِه تلك الليلة ويصحبَ أبا بكرٍ خلسةً تحت جنح الظلام في هجرةٍ غيَّرتْ وجه الأرض إلى الأبد!

ودارتْ الأيام، الرجل الذي نزل يوماً وحيداً من الغار صار أُمَّة، عنده جيش يأتمر بأمره، وأصحاب يفدونه بالعيون والمُهج، تغيَّرتْ موازين القوى في بضع سنين، وها هو اليوم على أعتاب مكة يُوشك أن يدخلها في وضح النهار!

ما جاء للثأر، ولكن على هذه المدينة أن تستردَّ هويتها، وعلى البيت المعمور أن يلفظ أصناماً غزتْهُ ذات شِركٍ وجاهلية!

وقبل الدخول إلى مكة، قال العباس للنبي ﷺ: يا رسول اللّٰه، إنَّ أبا سُفيان رجل يُحبُّ الفخر، فلو جعلتَ له شيئاً!

فلمَّا دخلَ مكة، أمر المنادي أن يقول: من دخلَ الكعبة فهو آمن، ومن دخلَ داره فهو آمن، ومن دخلَ دار أبي سُفيان فهو آمن!

لم تكُن هذه الجملة إلا استمالةً لأبي سُفيان وإلا ما حاجة أحدهم لدخول دار أبي سُفيان ما دام بإمكانه أن يدخل داره هو ليكون آمناً!

درسٌ عظيمٌ من دروس الحياة مفاده: أعطِ الناس ما يُحبُّون أن يُعطى لهم، ما لم يكن في هذا العطاء إثمٌ، لأن هذا أثبت للودِّ وتأليف للقلوب!

البشر مُتشابهون في الشكل فقط، أما من الداخل فنحن طبائع شتى!

مِن الناس من إن لم تُجلسه في صدر المجلس لشعر بالإهانة، ومنهم من لا يهتم حيث يجلس!

من الناس من لو أرسلَ إليكَ منشوراً ولم تُعلِّق عليه غضبَ منك، ومنهم من يُرسل الأشياء رغبة في مشاركتها ولا يهمه إذا علَّقتَ عليها أم لم تُعلِّقْ!

من الناس من يُحبُّ أن تمدحه في حضور الآخرين، ومنهم من يُشعره هذا بالخجل ويتمنى أن لا تفعل!

من الناس من إذا مازحته مزحةً غضبِ منكَ وأشعلَ حرباً ولو حاولتَ أن تسترضيه بعدها شقَّ ذلكَ عليكَ لصعوبة عقله وضيق صدره، ومنهم من إذا أغضبته فعلاً، وجئتَ تسترضيه رضيَ فوراً!

من الناس من إذا غبتَ عنه يومين ثم التقيتما عاتبكَ لأنك لم تسأل عنه، ومنهم من إذا فارقته سنةً ثم لقيكَ لم يُشعرك بتقصيرك ولأشعرَكَ أنكما كنتما البارحة معاً!

افهمْ طباع الناس من حولك، وتعامل معهم حسب طباعهم، وتذكَّرْ أن الأطباء لا يُعالجون جميع المرضى بدواء واحد، الدواء يكون من جنس المرض، وكذلك المعاملة مع الناس، وفهم طباعهم ومعاملتهم على أساسها أسلمُ لك ولهم!

مَنْ فجعَ هذه بولدها؟!

كانوا على سفرٍ معه، وأي شيءٍ في الكون أروع من أن تُسافر معه، أن تراه يمشي أمامك وبِودك لو فرشتَ له قلبك بساطاً أحمر كما يليق بحذائه أن يطأ! وأن تنظر في وجهه عن قرب فتتمنى ألا ترمش كي لا يغيب الوجه الشريف عنك جزءاً من الثانية! وأن تسمع صوته فتتمنى لو أن الكون كله يخرس فلا يُعكر صفو صوته شيء، ثم ناهيك أن تقف وراءه في الصف ليُصلي بك، طوبى لهم!

ويُحدثنا ابن مسعود أن النبي ﷺ تركهم يومها وذهب لبعض حاجته، فرأوا حُمَّرةً معها فرخان، فأخذوا فرخيّها، فجعلتْ تُحلِّقُ فوقهم وتصفِّق بجناحيها، أُمٌّ ثكلى بفقد أولادها، ثم جاء النبيُّ ﷺ وقال: من فجعَ هذه بولدها؟ رُدُّوا ولدها إليها!

يا له من دين، ويا لها من شريعة، ويا له من نبي لا يرضى أن يُكسر خاطر عصفورة! ثم إنَّ الحُبَّ اتباع، والاتباع العمل، والحب الذي ينقصه الاتباع والعمل حب ناقص مهما ادّعينا كماله، وقد قال شاعرنا:

لو كان حبّك صادقاً لأطعتَه
إن المحب لمن يُحبُّ مطيعُ!

إنَّ الذي يحرم زوجته من أبنائها لخلافٍ وطلاق عليه أن يعلم

أنّ النبي ﷺ الذي لم يرضَ أن تُفجع عصفورة بأولادها لن يرضى أن تُفجع أم بأولادها!

إنَّ جبر القلوب مُقدَّم على جبر العِظام، لأن كسر القلوب أشدُّ ألماً، وكسر العظام سرعان ما يلتئم، أما كسر القلوب فيبقى أبد الدهر، وإن النبي ﷺ لم يرضَ أن يفجعَ أحدٌ أحداً!

الكلمة التي تقولها في مجلس ضد أحد لتُضحك الآخرين عليه تنغرسُ في قلبه عميقاً، وينفضُّ المجلس، وينتهي الضحك، ويضع رأسه على وسادته حزيناً ولربما لم ينم ليلته تلك لأجل أنَّ حضرتك أردتَ أن تتسلى!

جبر الخواطر عبادة، كالصيام والصلاة تماماً!

ابتسامتك في وجه مسكين بالنسبة إليك مجرد ابتسامة لا تكلف شيئاً، ولكنّها بالنسبة إليه هدية عظيمة قد تصنع يومه كله، وتُشعره بإنسانيته وقيمته التي سلبته قسوة الحياة شيئاً منها!

زيارتك لموظف مسكين عندك نزل به مرض هي بالنسبة إليك مجرد دقائق معدودة، ولكنها بالنسبة إليه عطاء فخم، وثروة مهولة!

جرِّب أن تسأل عاملاً بسيطاً عن سبب تغيُّبِه البارحة عن العمل وتأمل مقدار السعادة في عينيه، ثمة أشياء لا تُكلِّف كثيراً ولكنها تعني كثيراً!

إسعاد الآخرين لا يحتاج إلى ثروة ضخمة بقدر ما يحتاج قلباً عظيماً، وإتعاس الآخرين لا يحتاج سيفاً مُسلَّطاً، ولا لكمة قوية، ولا صفعة شديدة، كلمة واحدة فقط قد تكون أكثر إيلاماً من ضربة سيف، فلا تفجع أحداً بنفسه!

ما ضرَّ عُثمان ما فعلَ بعد اليوم!

كانتْ غزوة تبوك اختباراً عظيماً للمُسلمين، ليس لأنها كانتْ غزوة مفصلية في تاريخ الإسلام فهي لم يحدث فيها قتال أساساً! وإنما كانتْ اختباراً عظيماً لأن الظروف وقتها كانتْ كلها بخلاف هوى النفوس، وبعكس الفِطرة التي فطر اللّه سبحانه الناس عليها، فالفصل صيف، والصحراء في الصيف لظى! الشمسُ حارقة والرمالُ مُلتهبة! ناهيكَ أن المسير طويل فهي الغزوة الأبعد في تاريخ غزوات النبي ﷺ، فالمسافة بين المدينة وتبوك تقريباً ٦٣٠ كلم! وما زاد الطين بلةً هو أن بيت المال كان وقتها فارغاً فلم يكن النبيُّ ﷺ يملكُ المال لتجهيز الجيش لذلك عُرف ذاك الجيش في كُتب السيرة بجيش العُسْرَة!

وكان من الطبيعي والأمرُ كذلك أن يحُثَّ النبيُّ ﷺ أغنياء المُسلمين على الإنفاق لتجهيز الجيش، فجادوا ولم يُقصِّروا، غير أنَّ تلك الغزوة كانت غزوة عُثمان بن عفان بامتياز، فعُثمان الثريُّ عَلِمَ أن الوقت وقته، وبيقين المؤمن الذي يعرفُ أنه وما يملكُ للّه، تبَّرع للجيش بتسعمئة بعير، وخمسين فرساً، وحملَ ألفَ دينار وتوجَّهَ إلى المسجد حيث كان النبيُّ ﷺ جالساً يستقبل مُساهمات الأغنياء، فنثرها في حِجره! فجعلَ النبيُّ ﷺ يُقلِّبُ دنانير عثمان بين يديه ويقول: ما ضرَّ عُثمان ما فعل بعد اليوم!

الفكرة أن أسمى عبادة هي تلك التي تكون من جنس النِّعمة!

قيام الليل نافلة عظيمة، ولكن عبادة الأغنياء الأسمى ليست في قيام الليل وإنما في الصدقة، وإعانة المساكين، ومساعدة المديونين، والإنفاق على دور التحفيظ!

وصيام التطوع نافلة عظيمة، ولكن عبادة الأئمة الأسمى هي في قول الحقِّ ولو على قطع الرقبة، فإنَّ الناس إذا وقعتْ الفِتن، والتبسَ الحقُّ بالباطل، نظروا إلى علمائهم ليروا رأيهم، ويصطفوا باصطفائهم، وإن وقوف الإمام أحمد في وجه المأمون، ومن بعده في وجه المعتصم في فِتنة خلق القرآن أهم وأعظم من صيام ألف يوم تطوع، لأنه بكلمة الحق التي قالها حَفِظَ دين وعقيدة ملايين المُسلمين!

إنشاء الطرق للناس، وتأمين الرَّفاه الاقتصادي، ومجانية الاستشفاء والتعليم عمل نبيل من الحاكم تجاه شعبه، ولكنَّ عبادة الحاكم الأسمى هي في تحكيم شرع الله، والدفاع عن حُرمات المسلمين وديارهم!

إقامة مستوصف يُعالج الناس بالمجان عمل نبيل تُرفع له القُبعة، ولكن عبادة المفكرين والأدباء الأسمى هي تنوير عقول الناس، والدفاع عن عقيدتها، والذَّود بالحبر عن حِياضِها، ففي الملمَّات يُوازي حبر الأدباء دماء الشهداء إن كتبَ حقّاً، وقال حقّاً!

اُنظُرْ إلى النِّعمة التي أعطاك الله إياها، تأمَّلْها جيداً، تعرِف العبادة الأسمى لكَ!

إن كنتَ غنياً لا تكنز مالك وتُعزِّي نفسك بنوافل العبادات، ما يُقبل من الفقير لا يُقبل من الغني! وإن كنتَ صاحب محراب

ومنبـر لا تُخـفِ رأيـك وتُعـزِّي نفسـك بعـدد المُصلِّيـن وراءك، إن الأئمـة كالمظـلات للنـاس والنـاس لا يحتاجـون المظـلات إلا وقـت العواصف والمطر! وإن كنتَ صاحب فكر وقلم، فلا تُعـزِّي نفسك بعـدد قُرائـك ونُسـخك التـي تبيعهـا، عبادتـك الأسـمى أن تقـول مـا يجـب أن يُقـال، أن تكـون لصيقـاً بهمـوم أمتـك، لا تكُـن مُهرِّجـاً كالداعيـة الـذي يوم كانـت تُقصـف غـزة وحلـب كان يُحدثنـا عـن حُكم المسـح علـى الخُفيـن!

تعلَّمْ لي كتاب يهود!

لمَّا قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ المنورة، جاء بنو النجَّار بِزَيد بن ثابت إليه، ولم يكُن يومها قد تجاوز السادسة عشرة من عمره، فقالوا: يا رسول الله، هذا زيد بن ثابت، يحفظُ من القرآن ما يَسُرُّكَ! فاستقرأه النبيُّ ﷺ، فقرأ له سورة «ق»، فأُعجبَ به، ولاحظ فيه ذكاءً وقّاداً، وعقلاً مُنيراً، فقال له: يا زيد، تعلَّمْ لي كتابَ يهود، فإني واللهِ ما آمنُ يهودَ على كتابي!

فما مضتْ خمسَ عشرة ليلة إلا وقد تعلَّمَ زيدٌ العبرية! فكان يكتبُ للنبي ﷺ إليهم، ويقرأ له رسائلهم إذا كتبوا إليه!

نحن لا نعيشُ وحدنا على ظهر هذا الكوكب، هناك شعوب وثقافات وحضارات ولغات أخرى نحتكُّ بها، ونتواصل معها، ومعرفة هذه الثقافات، وإتقان تلك اللغات ضرورة حياتية وليستْ ترفاً فكرياً! على أنَّ إتقان تلك اللغات لأجل التواصل وتسيير أمور الحياة شيء، وإتقانها لأجل التباهي شيء آخر!

اللغة الإنكليزية اليوم هي لغة العلوم، وبها يدرسُ أغلب طلابنا خصوصاً في الاختصاصات العلمية، وتحصيل هذه الاختصاصات واجب، وتعلُّم الإنكليزية واجب على الطلاب الدارسين لأنَّ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب!

هذا حدُّ الموضوع لا أكثر، أما أن يتحدَّثَ عربيٌّ مع عربيٍّ ويضعُ بين كل كلمتين عربيتين كلمة إنكليزية أو فرنسية من باب التباهي،

فهذه فيها من الميوعة، والانهزام الثقافي والحضاري، أكثر مما فيها من العلم! هذا في حال كان المُتحدِّثان العربيان يُتقنان الإنكليزية، أما فعل هذا مع العوام ففيه شيء من الاستعلاء والغرور!

الذكاءات مُتعددة، هذه حقيقة تربوية لا جدال فيها، من الطلاب من لديه ذكاء لغوي رهيب ولكنه ضعيف في الرياضيات، ومنهم من هو عبقري في حل المسائل الفيزيائية، أو التعامل مع المعادلات الكيميائية، ولكنه لا يستطيع أن يحفظ فقرة من عشرة أسطر إلا بشق النفس! ومنهم من يجِدُ أنّ حفظ عشر صفحات أيسر عليه من حساب مساحة مستطيل!

ودورُ الأهل والمدرسة معرفة المجال الذي يبرعُ فيه الطالب ثم توجيهه إليه، وهذا ما فعله النبيُّ ﷺ بالحرف، فعندما لاحظ ذكاء زيد بن ثابت اللّغوي طلب منه أن يتعلَّم العبرية فتعلَّمَها في وقتٍ قياسي! والشيء بالشيء يُذكر، يقول ابن كثير في البداية والنهاية: كان زيد بن ثابت من أشد الناس ذكاءً، تعلَّمَ لسان يهود في خمسة عشر يوماً، وتعلَّم الفارسية من رسول كسرى في ثمانية عشر يوماً، وتعلَّم الحبشية والرومية والقبطية من خُدَّام رسول اللّه ﷺ!

أفهمُ جيداً رغبة الأهل في أن يكون أولادهم أطباء ومهندسين، ولكن على الأهل أن يفهموا أن إجبار الأولاد على اختصاصات لا يجدون أنفسهم فيها هي ظلمٌ لهم! ما أدراك لو أنه درس ما يميل إليه ويبرعُ فيه لفاقَ ألف مهندس وطبيب!

تخيَّلوا لو أُجبر المتنبي أن يدرس الطب ويترك الشِّعر، حتماً لم تكن لتفرقَ كثيراً لو ازدادت البشرية طبيباً، ولكنها فاجعة لو خسرنا المتنبي!

اِعلَمْ أبا مسعود!

جاءَ بشريعة مُتكاملة، وأرسى قوانين كثيرة، غير أنه كان يُريدُ من هذه الأُمَّـةً أن تعبد اللّه كأنها تراه، أن تفعل الخير طمعاً في المثوبة، وأن تترك الإثم خوفاً من اللّه لا خوفاً من الحدِّ أو القانون. وما يُسمِّيه علماء السلوك الاجتماعي اليوم «بالانضباط الذاتي» هو ما أخبرنا عنه النبي ﷺ قبل ألف وأربعمئة سنة مُجيباً جبريل على سؤاله:

ما الإحسان؟ فقال له: أن تعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك!

يُحدِّثنا أبو مسعود البدري يقول: كنتُ أضرِبُ غلاماً لي بالسوط، فسمعتُ صوتاً خلفي: اِعلَمْ أبا مسعود! فلم أفهم الصوت من الغضب!

فلما دنا مني فإذا هو رسول اللّه ﷺ، فألقيتُ السَّوط من يدي!

فقال لي: اِعلَمْ أبا مسعود أنَّ اللّه أقدرَ عليكَ منكَ على هذا الغلام!

فقلتُ: واللّهِ لا أضربُ مملوكاً بعده أبداً، وهو حُرٌّ لوجه اللّه.

فقال: أما لو لم تفعل لمسَّتكَ النار!

ثمّة أشياء لا يُحاسِبُ عليها القانون، ولا تُعتبرُ في عُرف المحاكم لا جرائمَ ولا جُنَحاً، ولكن اللّه يرى، والملائكة تكتبُ،

والمحكمة غداً، حين تُنشرُ الكتب التي لا تُغادر صغيرة ولا كبيرة!

إنَّ الزوجة التي تُسمعها كلاماً لاذعاً كالسياط لن تشكوك إلى المحاكم، وإنْ فعلتْ فلن تجد من القُضاة آذاناً مصغية، ولكن الله سبحانه وتعالى سمع شكواها، ورأى جرح قلبها وهو أقدرُ عليكَ منكَ عليها!

إن العامل البسيط الذي لم تدفعْ له حقّه لن يجرؤ أن يقترب من مركز الشرطة ليشكوك، وربما إن تجرَّأ وفعل فستتجو منها وأنتَ المُتنفِّذ صاحب العلاقات والواسطات، ولكن الله سبحانه قد علِم مظلمته، وسمعَ دعواه، وهو يُجيبُ دعوة المظلوم الكافر على الظالم المُسلم لا حُباً بالكافر، ولا بُغضاً بالمسلم، ولكن حُباً بالعدل وبُغضاً بالظلم! فما بالك لو كان المظلوم مُسلماً، فسجدَ ثم قال: اللهم إني مغلوب فانتصر! دعاء نوح عليه السلام الذي يوم استجاب الله له أغرقَ الأرض كلها نصرةً له!

أولادك الذين ميَّزتَ بينهم في المعاملة في حياتك، وفي الميراث في مماتك، لن يرفع المظلوم منهم دعوى سوء مُعاملة، محاكم البشر لم تُنشأ لهذه القضايا، والميراث الذي جعلته عقد بيع وشراء لِتحرمَ ولداً وتُعطيَ آخر تعترف به السجلات العقارية، ولكن تذكر أنه ليس المهم ما تكتبه السجلات العقارية وإنما ما تكتبه الملائكة!

مما يُشاهد في الحياة عَياناً أن الأقوياء إذا تخاصموا أركنهم الله إلى الأسباب، وحظُّ كل واحد منهم من النصر مقدار ما أخذ من السبب، ولكن حين يظلمُ القويُّ ضعيفاً لن يموت القوي قبل أن يقتصَّ الله تعالى للضعيف منه، فإياك أن تخاصم وتظلم هؤلاء الذين ليس لهم إلا الله!

بل هو الرأي والحرب والمكيدة!

أرادَ المُسلمون القافلة، وأرادت قريش نجاتها، ولكن اللّه تعالى أرادَ الحربَ فكانت بدراً! كان النبيُّ ﷺ يكره الحرب، ويقول: «لا تتمنوا لقاء العدو ولكن إذا لقيتموه فاثبتوا»! وها هو العدو قد جاء، ولحظة الثبات قد أتتْ!

أنزلَ الجيشَ مكاناً قد ارتآه، وفي غمرة الاستعداد لوصول جيش قريش، يأتيه الحَباب بن المنذر ويقول له: يا رسول اللّه هذا المنزل أنزلكَ اللّه إياه فليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخّر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟!

فقال له: بل هو الرأي والحرب والمكيدة.

فقال: يا رسول اللّه، هذا ليس بمنزل حرب! فامضِ بالناس حتى تبلغَ آبار بدر، فاجعلها خلفكَ، ثم نُقاتل القوم، فنشربُ ولا يشربون!

فقال له: نِعْمَ الرأي!

فنهض، وسار بالناس، وجعل آبار بدر خلف الجيش، فقاتلوا، وشربوا، وعطشَتْ قريش!

كان اللّه سبحانه قادراً على أن يُوحيَ إليه أن ينزل في هذا المنزل دون الحاجة إلى رأي الحباب بن المنذر، ولكنه أراد أن يُعلِّمنا أنّ هذه الأمة تحتاج إلى كل طاقاتها كل في مجاله، ما عرفه الحباب بن المنذر بخبرته العسكرية غابَ عن النبي ﷺ

لأنه لم يخُض الحروب من قبل. والحياة تجارب، والأيام مدرسة، فاحترم أنتَ خبرات الناس، فها هو النبي ﷺ المُؤَيَّد بالوحي قد غابَ عنه أمر لم يَغِبْ عن رجل من المُسلمين خَبِرَ الحرب وعايشها، ليس في الأمر منقصة أن تسأل أهل الاختصاص، لا تُعالج نفسك كأنك أبقراط، فالأطباء أعرَفُ منك وربما قتلتَ نفسك جهلاً وقد كان الشفاء قاب قوسين منك أو أدنى، ولا تبنِ بيتك كأنك أعظم مهندس في العالم، ربما وقع السقف عليكَ، أنتَ خبير في مجالك، ولكن عليكَ أن تحترم خبرات الآخرين في مجالاتهم!

وانظُرْ لأدب النُّبوة، لا كِبَر ولا عناد، يسأله الحباب أهذا وحي نلزمه ولا نحيد عنه، أم هناك مجال للرأي، فيُخبره أن الأمر شورى وإن كان عنده رأي أصوب وخطة أفضل فليتفضّل! وعندما سمع رأيه لم يجد حرجاً أن يُنفِّذه! لم يقل ماذا سيقول الناس عني، رجلٌ أملى عليَّ رأيه وجعلني أُغيِّر مكان الجيش! على العكس تماماً أشادَ برأي الحباب على مرأى من أصحابه، وتحرَّك من فوره ليُنفِّذ رأيَ غيره عندما وجده أصوب من رأيه!

لا تكُن عنيدًا، إذا تبيَّنَ لك رأي أصوب من رأيك فخُذْ به، وإذا عزمتَ على أمرٍ وجاءك من تعرفُ أنه يُريد الخير لك وأقنعك أن لا تفعل فلا تفعل، ما أهلكَ شيء الناسَ أكثر من العناد!

على رِسْلِكُما!

تُحدِّثنا أُمنا صَفيّة بنت حُيي قالت: كان رسول الله ﷺ مُعتكفاً في المسجد، فأتيتُ أزوره ليلاً، فحدثتُه، ثم قمتُ لأنصرف، فقام معي ليُوصلني، فمرَّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا. فقال لهما: على رِسْلِكُما هذه صفية بنت حُيي!

فقالا: سبحان الله يا رسول الله! يُريدان أن يقولا وهل أنتَ موضع شك يا رسول الله!

فقال: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيتُ أن يقذفَ في قلوبكما سوءاً!

موقفان عظيمان تأمَّلْهما:

الأول: المدينة أمان، ولو عادتْ صفية وحدها في الليل ما تعرَّضَ لها أحد، ولكن النبي ﷺ يقطع اعتكافه، ويقوم ليُوصلها إلى بيتها، هو يعرف أنها تعرف الطريق وإنما أراد أن يقول لها: أنا أهتمُّ! أحياناً ليس عليكَ أن تقول لها أُحبكِ، ثمة مواقف صغيرة، تفاصيل حياتية عادية أبلغ من ألف كلمة أحبكِ! هل جربتَ أن تضع لقمةً في فمها، أو تُمسك يدها وأنتَ تعبر بها الشارع، أو تخلع سترتك وتضعها على كتفيها في ليلة باردة، ثمة أشياء لا تُكلّفك الكثير، ولكنها تعني لها كثيراً!

الثاني: رغم أنه فوق الشكوك، وأنه نقي كماء زمزم، وتقي كما لم يسبق لإنسان أن يكون بتقواه، إلا أنه يستوقف الرجلين

ويُخبرهما أنَّ هذه المرأة التي معه هي زوجته صفية! أراد أن يُعلِّمنا أن الإنسان لا يكفي أن لا يفعل الحرام وإنما لا يضع نفسه في موقف يظنُّ منه الناس أنه واقع في الحرام!

لا تلقِ نفسك في مواطن الشُّبُهات كي لا يرميكَ الناس بسوء الظنِّ، طبيعة النفس البشرية أنها تحمل المواقف البشرية على الظنِّ السيىء، فعلى سبيل المثال لا تجلس على مائدة يُدار عليها الخمر ولو كنت تُريد أن تنصح، لأن الذي يراك لن يشك لحظة أنك لا تشرب معهم! للنصح وقته ومجاله.

بالمقابل تخلَّ عن ظنك السيىء بالناس، من تكلَّم مع فتاة هي ليست بالضرورة حبيبته، والرواية التي ألَّفتها في رأسك قد يكون الشيطان هو الذي أملاها عليك!

كل شخص رأيته يُحادِثُ عاصياً ليس بالضرورة مثله!

الحياة أحياناً كالسوق قد يجتمع فيها اثنان لا علاقة لهما ببعضهما، ودكان البنادق تُشترى منه بنادق للصيد وبنادق للقتل فلا تدخل في نوايا الناس!

فلا تُقْدِمُوا عليه!

خرجَ عُمر بن الخطاب من المدينة يُريدُ الشَّام، فلما صارَ في منطقة يُقال لها سَرْغ، لَقِيَهُ أبو عبيدة بن الجراح وأُمراء الجُند، وأخبروه أن الطَّاعون قد وقعَ في الشَّام. فدعا إليه المُهاجرين، فمنهم من أشارَ عليه أن يرجعَ إلى المدينة، ومنهم من أشارَ عليه أن يمضيَ في مسيره! فقال لهم: ارتفعوا عني! ثم دعا الأنصار واستشارهم، فإذا هم كالمُهاجرين على رأيين أحدهما العودة إلى المدينة، والآخر بالمُضي قُدُماً! فقال لهم: ارتفعوا عني. ثم دعا شيوخ قُريش الذين أسلموا بعد الفتح فاقترحوا عليه أن يرجعَ إلى المدينةِ فهو أمير المؤمنين ومن معه بقية صحابة النبيِّ ﷺ وليس الأمر حثيثاً يدعو للمُخاطرة، فأخذَ برأيِهم!

فقال له أبو عبيدة: أفِراراً من قدرِ الله يا أمير المؤمنين؟!

فقال له عُمر: لو أنَّ غيرك قالها يا أبا عبيدة، وكان عُمر يُحبُّه ويكرهُ خلافه، ثم قال له: لو كان لك إبل فهبطتْ وادياً فيه مكان خصيب ومكان جدب أليسَ إن رعيتَ في الخصيبِ رعيتَ بقدرِ الله، وإن رعيَت في الجدب رعيتَ بقدرِ الله؟!

ثم أمر الناس أن يستعدُّوا للعودة إلى المدينة، وفي هذه الأثناء حضرَ عبد الرحمن بن عوف وكان مُتغيِّباً لبعض حاجته، فقال: إنَّ عندي من هذا علماً، سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول عن الطاعون: «إذا سمعتم به بأرضٍ فلا تُقدِموا عليه، وإذا وقعَ بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»! فحمدَ عمرُ الله تعالى أن أراه الحقَّ وهداه

إلى السُّنة، ثم مضى بالناس عائداً إلى المدينة!

هذه هي سُنَّة النبي ﷺ عند انتشارِ الأوبئة، أن لا يُسافر الإنسان لمكان موبوء، وأن لا يخرج من مكانٍ ضربه الوباء، والسبب قد أقرَّه الطب بعد ١٤٠٠ سنة من حديث النبي ﷺ، وهو أن للأمراض فترة حضانة، وهي المدة التي تقع بين إصابة المريض بالمرض وظهور عوارض عليه، وهذه تختلف من مرض إلى آخر، فالإيدز مثلاً قد يُصاب به الإنسان ولا تظهر عوارضه إلا بعد سنوات، أما فايروس كورونا ففترة حضانته أسبوعان، وقد يحسبُ المرءُ أنه مُعافى منه فينقُله معه إلى بلد آخر، وقد يكون سليماً ويلتقي في سفره بإنسانٍ لم تظهر عليه العوارض بعد فيُصاب ويرجع إلى أهله حاملاً المرض!

والحرص مطلوب، والأخذ بالأسباب واجب ، وتجنب أماكن الزحام في هذه الأوضاع أولى، ومن شكَّ بعوارض المرض فليعتزل حتى المساجد !

بقي أن نُشير أن هذا الفايروس الذي انتشر إنما هو خلق من خلقِ اللّه، ناصيته بيده سُبحانه مثلنا تماماً! إنه يعمل بأمرِ اللّهِ لا بأمر نفسه، وإنَّ اللّه سبحانه لا يخلق شيئاً إلا لحكمة ولو غابتْ عنا وعَجَزْنا بأفهامنا المحدودة أن نُدركَ حكمته جلَّ في علاه، صحيح أنَّ الهلع والخوف فطرة بشرية لا شيء فيها، واتِّخاذ التدابير الوقائية وسُبل السلامة أمر واجب في هذه الحالات، إلا أنَّ هذه الحوادث والأوبئة فُرصة لنتذكَّر عظمة هذا الرب وقُدرته، لقد قامَ هذا الكوكب واستنفرَ من مشرقه إلى مغربه

بسـبب فايـروس لا يُـرى بالعيـن المُجـردة، جنـديٌّ واحـد مـن جُنـود اللّه، جعلنـا نُـدرك كـم نحـن ضُعفـاء ونُعيـدُ بُوصلـة العقيـدة إلـى اتجاههـا الصحيـح إلـى اللّه القـوي والقـادر!

إن البـلاء لا ينـزل إلا بذنـب، ولا يرتفـعُ إلا بتوبـة، وقـد ذكـر ابـن كثيـر فـي البدايـة والنهايـة أنـه فـي سـنة ٨٧٤ للهجـرة كثُـرَتْ الأمـراض بالحمـى والطاعـون فـي العِـراقِ والشّـامِ والحِجَـاز، وماتـتْ الوحـوش فـي البـراري، ثـم تلاهـا مـوت البهائـم، ومـاتَ خلـقٌ كثيـر، فأمـرَ الخليفـة المُقتـدي بأمـرِ اللّه بتجديـدِ الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، وكسـر آلات الملاهـي، فانجلـى ذلـك الطاعـون، وذهبـتْ تلـك الأمـراض!

عافانا اللّه وإياكم، وسلَّمنا من كل سوء.

زادكَ اللّه حِرْصاً ولا تعُدْ!

إنْ سُئِلتَ عن أجمل مديح في التاريخ فقُلْ دون تردد هو قول اللّه سبحانه في عبده ورسوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. ذلك أنَّ الناس تُغالي حين تمدح، إما أن تغلبها العاطفة، والحُب يعمي عن المعايب، أو تمدح طمعاً في العطاء! أما مديحُ اللّه سبحانه وتعالى فهو مديح من يعلمُ لمن يستحق! ولو قال ربنا سبحانه «وإنكَ لعلى خُلق» لكانت مديحاً مهولاً، فكيف وقد تكرَّم على عبده ووصفَ خُلقه بالعظيم!

على خُلقٍ عظيم كان، في رضاه وغضبه، في سِلمه وحربه، في إقامته وسفره، مع الكبير والصغير، ومع الصاحب والعدو! كان دائماً يبحثُ عن شيء جميل ليُثني به على الناس، حتى في مواقف الخطأ، فكثيراً ما كان يُطيِّبُ الخاطر قبل أن يُدلي بالنصيحة!

دخل أبو بكرةَ يوماً المسجد يُريدُ الصلاة خلفَ النبي ﷺ، فإذا هو في الركوع والمُسلمون خلفه كذلك، فلما شعرَ أبو بكرةَ أنَّ النبيّ ﷺ يُريدُ أن يرفع رأسه من الركوع، دخل في الصلاة على عجل وركعَ قبل أن يصل إلى الصف ويقف بين المصلين، فلما انتهتْ الصلاة، تقدّم أبو بكرة منه، وأخبره بالذي كان منه، فقال له النبي ﷺ: زادكَ اللّه حِرْصاً، ولا تعُدْ!

اُنظُـرْ لأدب النصيحـة، لـم يقُـلْ لـه مـا كان ينبغـي لـكَ أن تركـعَ قبل أن تقف في الصف، ولم يقل له لِمَ أنتَ عجولٌ يا أبا بكرة، ولم يقل له إيّاك أن تكررها مرةً ثانية إنها ركعةً وكان بإمكانك أن تُصلّيها بعد أن أُسلِّم!

لقد بدأ بالإيجابيات، زادكَ اللهُ حرصاً، أثنى على حرص أبي بكرة في إدراك كل الركعات خلفه، ثم علَّمه الصواب! والإنسان إذا تلقّى مديحاً أولاً يكون على استعداد أن يتقبَّل النقد بعدها بصدر رحبٍ، هذا مبدأ عظيم في التعامل مع الناس فانتبهوا له جيداً!

إذا أقمتَ في بيتك مأدبةً، ولاحظتَ أن أحد الأطباق كان الملحُ فيه ظاهراً، فقُل لها لاحقاً حين تخلو بها، باركَ اللهُ بكِ، كان الطعام لذيذاً، أنتِ طاهية ماهرة، ولكن الطبق الفلاني كثير الملح، انتبهي له في المرة القادمة! هي ستتلقى ملاحظتك ببساطة وصدر رحب! أما لو قلتَ لها مباشرة الطبق الفلاني مالح كثيراً فأنتَ هُنا حطَّمتها، لقد جعلتها تشعرُ أن كل الذي قامتْ به سيىء!

إن كان عندكَ موظف يتأخر، وأردتَ أن ينضبط، فلا تقُلْ له فوراً كُفَّ عن التأخر! ابتعد عن أسلوب التهديد وتخويف الناس، يُمكنك ببساطة أن تأسر قلبه لو قلتَ له، أنتَ موظف جيد، وتقوم بعملك بكفاءة، ولكن عليكَ أن تلتزم بوقت الدوام، أُريدك قدوة لزُملائك، لاحظ الفرق بين الأسلوبين، ثم لاحظ بعدها النتيجة!

عندما نبدأ بإعطاء الملاحظات والنصائح مباشرة، نجعل الآخرين يبنون بيننا وبينهم سداً منيعاً، ويسمعون كلامنا من أُذن ويُخرجونها من الأُذن الأُخرى، ولكن عندما نذكِّرهم بإيجابياتهم قبل سلبياتهم تقع النصيحة في قلوبهم مباشرة!

لعلَّكَ تُرزقُ به!

النَّـاسُ هـم النَّـاسُ فـي كل عصـر، أكثـر مـا يشـغلهم الـرِّزقُ والمـالُ وتحصيـلُ المعيشـة، فطـرة اللّه التـي فطـرَ النـاس عليهـا! وقـد قـال سـبحانه فـي مُحكـم التنزيـل عـن الإنسـان ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ وجمهـور المفسـرين علـى أن الخيـر فـي الآيـة هـو المـال! علـى أنَّ جمـع المـال ليـس عيبـاً، والغِنـى ليـس سُـبةً، ونِعـمَ المـال الحـلال فـي يـد العبـد الصالـح، المهـم أن تملـكَ أنـتَ المـالَ لا أن يملـكَكَ! وأن يكـون لـكَ خادمـاً لا سـيداً، وأن تضعـه تحـت قدميـك ليرفعـكَ لا فـوق رأسـك ليخفضـك!

كان فـي عهـد النبـيِّ ﷺ أخـوان، أحدهمـا لـه مهنـة يتكسَّـبُ منهـا، والآخـر لا مهنـة لـه، يحضـرُ مجلسَ النبـيِّ ﷺ ويأخـذ منـه الحديـث والقـرآن! وكان الـذي لـه مهنـة يُنفـقُ علـى نفسـه وعلـى أخيـه، ثـمَّ إن صاحـبَ المهنـة أتـى النبـيَّ ﷺ يشـكو إليـه أخـاه!

فقال له النبيُّ ﷺ: لعلَّكَ تُرزقُ به!

الحديـثُ ليـس تشـجيعاً علـى البطالـة، وعلـى أن يكـون الإنسـان عالـة علـى غيـره، علـى العكـس تمامـاً إن الأحاديـث التـي تحـثُّ علـى العمـل والاجتهـاد، وتُثنـي علـى مـن يـأكل عمـل يديـه كثيـرة، ولكـن مثـل هـذه الأحاديـث إنمـا تُقـال لـلأخ الـذي لـم يكُـن لـه عمـل، ولا تُقـال لـلأخ صاحـب المهنـة لأن فيهـا تحريضـاً لـه علـى تـرك أخيـه، مـا يُقـال للمُنفـق مـا قالـه النبـيُّ ﷺ: لعلَّـكَ تُـرزقُ بـه!

العمل سبب للرزق، ولكن الرَّازق هو اللّه، وما أدراك أن اللّه قد فتحَ لكَ باب الرِّزق في عملك لا بسبب جدك واجتهادك، وإنما بسبب أبوين تُنفِقُ عليهما، وابنٍ ذي عاهةٍ لا تتأففُ منه، وفقيرٍ خصصتَ له مبلغاً شهرياً، ومريضٍ تكفلت بدوائه الدائم!
ما أدراك أنَّ اللّه قد جعلكَ باباً وسبباً يرزقُ به عبداً من عباده، وأنتَ تُرزقُ لتُعطي، يريدُ اللّه أن لا يقطع عنكَ الخير لتجود به، وتُمرره لغيرك!

أنتَ أضعف من أن ترزق نفسكَ، ومن باب أولى أشدُّ ضعفاً من أن ترزق غيرك، وأنه سبحانه حين جعلكَ سبباً في رزق غيرك فقد تكرَّمَ عليكَ واصطفاكَ لهذا العمل، فهو قادر أن يرزقه ويُغنيه عنكَ، فما حرمه الرزق المباشر الذي يقع في يده عن فقرٍ منه سبحانه، ولكنه جعل الناس لنا أبواباً إلى الجنة فلا تُغلقْ باباً فتحه اللّه لكَ، لعلكَ إن أغلقته أحوَجَكَ إلى غيرك، كما أحوجَ غيركَ إليكَ أولاً، فأعطِ واحمدْ ربَّكَ أن جعلكَ عبده المُعطي لا عبده الآخذ!

كان عبد اللّه بن جعفر من أكثر الناس صدقةً، يُعطي الفقراء بشكلٍ جعلَ حتى أقرب المقربين منه يلومونه، أن أعطِ أقلَّ من هذا، فقال لهم: لقد عوَّدَني اللّه عادةً، وعوَّدتُ عبادَه عادةً، فأخشى إن غيَّرتُ عادتي أن يُغيِّرَ اللّه عادته!

فهمٌ دقيقٌ وعميقٌ لقول النبي ﷺ: لعلكَ تُرزقُ به!

أخطأ من شدة الفرح!

لطالما كانت القصصُ والأمثالُ مطيَّةً لتقريب المعاني، ولأنها كذلك فقد كان النبيُّ ﷺ يُكثر أن يُحدِّثَ بها أصحابه، فأرادَ مرةً أن يُخبرهم عن حبِّ اللّٰهِ سبحانه للتائب وفرحه بتوبته، فأخبرهم أنَّ اللّٰه أفرح بتوبة عبده من رجل كان في صحراء، وكانت معه ناقته التي عليها طعامه وشرابه ومتاعه، ثم لما اشتدَّ الحرُّ، أوى الرَّجُلُ إلى شجرة يتفيَّأ ظلالها وينام قليلاً، ولكنه نسيَ أن يُحكم ربطها، فلما نام شردتْ الناقة، فلما استيقظ ولم يجِدْها أخذ يبحثُ عنها يميناً وشمالاً ولكن دون جدوى، ولما يئِس أن يجدها قال في نفسه: أرجعُ إلى المكان الذي كنتُ فيه فأنام حتى أموت! فلما نام ما شاء اللّٰه له أن ينام، استيقظ فإذا ناقته عند رأسه، فقال من شدة الفرح: «اللهم أنتَ عبدي وأنا ربك»!

وجعلَ النبيُّ ﷺ يقول: أخطأ من شدة الفرح!

اُنظُرْ لحكمة النبيِّ ﷺ في ضرب المثل، لقد اختارَ قصةً من بيئة القوم الذين يُحدثهم، فهم يعيشون في الصحراء، ويُسافرون قاطعي الفيافي والقفار، ويعلمون ما تعني الناقة التي عليها الزاد والماء، ويعلمون أن فقدها يعني الموت المحتَّم، ويعلمون بالتالي مقدار فرح المسافر بالعثور على ناقته بعد فقدها، لهذا وصلتْ الفكرة التي أراد أن يُوصلها إليهم بيُسر وسلاسة.

لهذا على الدُّعاة والمُربِّين أن يُخاطبوا الناس بحسب واقعهم، وبالشيء الذي يفهمون به، فالمثل الذي يُعطى لطلاب الجامعات في محاضرة قد لا يناسب العَوَام في المساجد، والقصة التي تُقال للمرأة في الأربعين مثلاً لا تُقال للطفلة في العاشرة، وقد قال النبيُّ ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أن نُخاطب الناس على قدر عقولهم»! وعقولهم هذه تشمل لُغاتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، وواقعهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي!

أخطأ من شدة الفرح!

إن قول الرجل لا شك أنه في ظاهره كفرٌ بواح! ولكن النبي ﷺ أراد لنا أن نلتمس العُذر للناس في بعض المواقف! يمرُّ الإنسان بأطوار نفسية قد يفقدُ فيها زمام عقله، فلا يعود ذلك الشخص الذي نعرفه، فالمُصيبة أحياناً تُفقدُ الإنسان صوابه، وربما قال فيها كلاماً جارِحاً لمن حوله، فلا تجب مُؤاخذته خصوصاً إذا كنا نعرف أنَّ هذه ليستْ حاله، وأنه في ظروفٍ طبيعيةٍ ما كان له أن يقول ما قال!

والفرح أحياناً كالمصائب يُفقدُ الإنسان صوابه، فتجده في حالة من عدم الاتزان، وقد يقول ما لم يكن له أن يقوله في حالة استقرار نفسي! فقدِّروا ظُروف الناس واعلموا أن النفس البشرية أطوار، جبال ووِهاد، مرةً في الأعلى ومرةً في الأسفل، وكما قال مصطفى محمود: نحن لا نملكُ أكثر من أن نُهوِّن على بعضنا الطريق!

بالمُقابل علينا أن نُحاول أن نملك زمام أنفسنا ما استطعنا حين نكون في حالة نفسية استثنائية، ومن أجمل ما قال الأوائل: **لا** تقطع وعداً وأنتَ سعيد، **ولا** تَرُدّ وأنتَ غاضب، **ولا** تُقرر وأنت حزين!

كان زكريا عليه السلام نجاراً!

قالَ مرةً لأصحابه: ما بعثَ اللّٰهُ نبياً إلا رعى الغنم.

فقالوا: وأنتَ يا رسول اللّٰه؟

قال: نعم، كنتُ أرعاها على قراريط/أُجرة لأهل مكة!

وكان يُحِبُّ أن يكون للمرءِ مهنة يكتسب منها قُوتَه، فقال: ما أكل أحدٌ طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبيَّ اللّٰهِ داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده!

وحدثهم مرةً فقال: كان زكريا عليه السلام نجاراً!

ويقول عُمر بن الخطاب: أرى الرجل فيُعجبني، فأسأل هل له مهنة؟ فإن قيل لا، سقط من عيني!

وقال الأوائل: ليس هناك مهنة حقيرة، وإنما هناك أُناس حقيرون!

إنّ من دلائل عظمة اللّٰه، أنه أحوَجَ الناسَ للناسِ، واستغنى هو عنهم جميعاً! الطبيب يحتاج النجار، والحداد يحتاج المزارع، والتاجر يحتاج العتَّال، ولا يستغني أحد عن الخبَّاز!

الفكرة أن كل عملٍ يُدرُّ دخلاً حلالاً هو عمل نبيل، وصاحبه يستحقُّ الاحترام أن أغنى نفسه أن يكون عالةً على غيره!

لا شيء في أن يسعى المرءُ إلى وظيفة مرموقة، وليس على المرءِ حرجٌ إذا أراد من ابنه أن يكون الطبيب لا الخباز، والمُهندس

لا الإسكافي، ولكن العيب أن يحتقر الخباز والإسكافي بعد أن صار طبيباً!

المهن في الأصل هي لكسب القوت وتأمين المعيشة وليس للتفاضل بين الناس، صحيح أن بعض المهن لها «برستيج» اجتماعي أكثر من غيرها، والناس ينظرون إلى أصحابها بعين إجلالٍ لا ينظرون فيها إلى غيرها، ولكن من الفهم السقيم للحياة، قياس الناس بحسب مِهنهم، وجعل قيمتهم بقيمة المناصب التي يشغلونها، والمال الذي يَجنونه!

الأنبياء عليهم السلام كلهم عملوا في رعي الغنم كما في الحديث، وداود عليه السلام كان يأكل من مهنةٍ له، وزكريا عليه السلام كان نجاراً، فلا تخجل من مهنتك، ما دمتَ تكسبُ رغيفك بالحلال فارفع رأسكَ، وافخرْ بنفسك، ثيابك المُتَّسخة ليستْ عيباً، العيبُ أن تكون ثيابك أنيقة وقلبك مُتسخًا ومالك حرامًا!

الأيدي المُمتلئة بالنُّدوب لكثرة ما تتعرضُ له من ضربات أثناء العمل هي شهادة في العصامية والاعتماد على الذات بعد الله، والأيدي المُتسخة بالسواد والشحم والغبار صك براءة من البطالة والكسل!

سر الحياة ليس في أي مهنة تعمل، وإنما أن تكون مع الله، كما أمر وكما أراد في أية مهنة عملتَ، في الحياة نَجد الطبيب المخلص والنجار الغشاش، ونَجد المُهندس المُرتشي وعامل البلدية الشريف، والله لا يُحاسب على المهنة وإنما على طريقة العمل بها!

أحقرُ الناس من إذا وصلوا إلى الجامعات خجِلوا بمهن آبائهم المتواضعة، بدل أن يفخروا برجالٍ بمهنٍ متواضعة استطاعوا أن

يُوصلوهم إلى الجامعات! قرأتُ منذ أيامٍ عن فتاةٍ تخرجتْ من الجامعة، فطلبَ منها أبوها أن لا تذكر لأحدٍ أنه يعمل في البلدية كناساً للطريق، فلبستْ ثوب تخرجها، وذهبتْ إلى مكان عمله، وطلبتْ من أحدهم أن يُصورها وهي تطبعُ على رأسه قُبلة، ثم نشرت الصورة في مواقع التواصل، وكتبت: هذا الرجل العظيم أبي!

حتى تستكملَ أجلها!

نادى يوماً على أصحابه فقال: هلُمُّوا إليَّ.

فأقبلوا إليه فجلسوا. فقال: «هذا جبريل رسول ربِّ العالمين، روح القدس نفثَ في روعي أنّ نفساً لن تموتَ حتى تستكملَ أجلها، وتستوعبَ رزقها، فاتقوا الله، وأجمِلُوا في الطلب، ولا يحملنَّ أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإنّ الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته»!

هنا بيت القصيد: حتى تستكملَ أجلها!

إني لمّا تابعتُ انتشار «فايروس كورونا»، ورأيتُ الهلع في نظرات الناس، ونبرات أصواتهم، ومضامين كلماتهم، قلتُ في نفسي: يحتاجُ الناس في هذه الظروف لمن يربِّت على قلوبهم، ويُنزل لهم العقيدة التي يؤمنون بها على الواقع الذي يعيشونه، فقد سيطر الخوف، وانتشرت الشائعات، وتنبّأ الإعلام!

إنّ الله سبحانه وتعالى قد كتب أعمارنا وأرزاقنا ونحن أجنة في بطون أمهاتنا، فلن يموت إنسان قبل انقضاء العمر الذي كتبه له! تعالوا ننظر إلى الحروب المستعرة في هذا الكوكب، نجد في ميادينها الرجل الطاعن في السن قد نجا من آلاف القذائف، بينما نسمع عن طفل رضيع شرِقَ بحليب أمه ومات! الأول نجا من قصف الطائرات والمدافع ليشيخ لأن الله سبحانه قد كتبَ

لـه عمـراً عليـه أن يعيشـه رغمـاً عـن كل شـيء، والثانـي مـات فـي حضـن أمـه، أكثـر الأماكـن دفئـاً وأمانـاً فـي هـذا الكوكـب، ذلـك أن اللّه سـبحانه قـد قضـى أن عمـره عنـد هـذا الحـد! فاطمئنـوا، لـن يمـوت إنسـان قبـل أن يُـؤدي مهمتـه التـي خُلـق لأجلهـا، وقبـل أن يعيـش عمـره الـذي كتبـه اللّه تعالـى لـه!

الخـوف الـذي يصيبنـا شـيء طبيعـي، ولا علاقـة لـه بقلـة الإيمـان، نحـن نخـاف لأننـا بشـر، والمؤمـن نهايـة المطـاف إنسـان يخـاف علـى نفسـه وأحبتـه، ولكنـه يُـؤدِّبُ هـذا الخـوف بالرضـا، ويُحلِّـي مُـرَّه بالإيمـان أنّ مـا شـاء اللّه كان، فـلا تسـتخفوا بمخـاوف النـاس، ولكـن بالمقابـل لا تبنـوا سـجناً مـن الخـوف، تحبسـون أنفسـكم خلـف جدرانـه، فـإن الخـوف والقلـق لا يمنعـان ألـم الغـد، وإنمـا يُفسـدان متعـة الحاضـر!

كلُّ مـا يصيـب المسـلم مـع الرضـا لـه فيـه أجـر، حتـى الشـوكة يُشـاكها، وإن مـن رحمـة اللّه بالمسـلم أنـه أحيانـاً يُطهّـره فـي الدنيـا ليُقدِمَـه عليـه نقيـاً طاهـراً!

لا تُوزِّعـوا أقـدار اللّهِ علـى النـاس، الأمـراض الفتّاكـة تصيـب النـاس جميعـاً، فتحصـد المسـلم والكافـر، الطائـع والعاصـي، والبَـر والفاجـر، وقـد مـات أميـن هـذه الأمـة أبـو عبيـدة بـن الجـراح فـي طاعـون عمـواس! مـع التأكيـد أنـه مـن تمـام العقيـدة أن نعلـم أنـه قـد يشـترك النـاس فـي سـبب المـوت ولكـن شـتان بيـن مصيـر المؤمـن ومصيـر الكافـر، فالعبـرة ليسـت بسـبب المـوت، وإنمـا بمـا بعـد ذلـك!

الوقاية واجبة، والإنسان مطالب بالحذر واتباع إرشادات الأطباء وأهل الاختصاص، كي لا يضُرّ نفسه وغيره، والإقبال على المهالك ليس من الإيمان في شيء، ولا من حُسْنِ التوكل، إنه من الحُمق والفهم الخاطئ للدين!

حفظنا الله وإياكم وجميع المسلمين.

فإنما أقطعُ له قطعة من نار!

أجمل ما في قصص الأنبياء تلك النفحات التي تُذكِّرنا أنهم كانوا بشراً مثلنا! يُريدُ اللّه سبحانه أن يُعلِّمنا أن الإيمان لا يُلغي الطبائع وإنما يُهذِّبها! ولا يكبت الشهوات وإنما يُؤَدِّبها!

إن نوحاً عليه السلام حين توجَّع لغرق ابنه فإنما ناجى ربه مدفوعاً بعاطفة الأبوة، فلمَّا نهاه ربه انتهى! وإن موسى عليه السلام حين أوجسَ خيفةً لما ألقى السَّحرة حِبالهم وعصيهم، لم يخفْ عن قِلة إيمان، وإنما خاف لأنه إنسان! وحين غضبَ وألقى الألواح فإنما فعلَ هذا لأنَّ بعض المواقف تُخرج الإنسان عن طوره!

وسيِّدُ الأنبياء كما إخوته الذين سبقوه بالنبوة بشر أيضاً، ولم يكُن يخجل أن يُصرِّح ببشريته، فالإنسانية ليستْ منقصة، على العكس تماماً، هنا تكمُن المعجزة! أن تكون بشراً بعواطفك وهواجسك وأحزانك وأتراحك ثم تُغيِّر هذا العالم إلى الأبد!

وقد قال مرةً: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضَكم أن يكون ألحنَ بحُجته من بعض، فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيتُ له بحقِّ أخيه فإنما أقطعُ له قطعةً من النار، فليأخذها أو يذرها»!

لعلَّ أحد الخصمين فصيح حسن اللسان، والآخر عَيِيّ لا يقدر أن يُبيِّن حقَّه، فيحكم القاضي له، ولكن السؤال: أيجعل حُكم القاضي الحرام حلالاً؟

لا واللّهِ فإن كان حكم النبي ﷺ الصادر بناءً على ما سمع لا يُبيح لأحدهم أن يأكل حق أخيه، فكيف هو حكم القُضاة الآخرين!

إن ممَّا ٱبتُلِيَ به الناس أنهم يقومون بالحلال، ولكنهم لا يتورَّعون عن الحرام، وقد كان الأوائل يرون أن الدِّين في ترك الحرام أكثر منه في إتيان الحلال!

وقد قال مالك بن دينار: لَأن يترك الرجل درهماً من حرام خيرٌ له من أن يتصدَّق بمئة ألف درهم!

الحلالُ يقوم به البَرُّ والفاجر، والصالح والطالح، ولكن الإمساك عن الحرام لا يقوم به إلا من كان قلبه خالصاً للّه!

تخرجُ الراقصة في مقابلة تلفزيونية وتتحدَّث أنها تحجُّ وتعتمر وتتصدَّق، وقد تكون صادقة في قولها، ولكنها لا تعرف أن التوقُّف عن هزِّ خصرها شبه عارية أمام الناس أفضل لها من عُمرة!

يُمكن للتاجر الغشّاش أن يكفل يتيماً، وهذا عمل نبيل، ولكن أنبل منه هو ترك الغش، والتوقُّف عن أكل أموال الناس بالحرام، لأنَّ اللّه طيِّب لا يقبل إلا طيّبًا!

نعم، يحدث أن يبني صاحب البار مسجداً، ولكن إقفال البار أحبّ إلى اللّه من بناء المسجد!

ونعم، يحدث أن يُقيم تاجر المخدرات موائد الإفطار في رمضان، ولكن التوقُّف عن تجارة المخدرات أحبّ إلى اللّه من إقامة موائد الإفطار!

الإيمان الفعليّ الصادق ليس في فعل الطاعة، وإن كانتْ الطاعات محمودة، وإنما في هجرِ المعاصي!

هذه بتلك!

كان النبيُّ ﷺ إذا عزم على السَّفر أقرعَ بين نسائه، فأيّما واحدة وقعت عليها القرعة صحبها معه! طريقة عبقرية في العدل، تجعل الفائزة بالصُّحبة تنتشي فرحاً، والتي لم تنل شرف الرفقة لا تلومه، ولا تُحدِّث نفسها أنه قد فضَّلَ ضرَّتها عليها!

وفي أحد أسفاره وقعت القُرعة على عائشة، وكانت يومذاك لم تزل صغيرة السِّن، فأمرَ الجيشَ أن يتقدَّمَ أمامه، فلمَّا غدا وحده معها قال لها: تعالي حتى أُسابقكِ!

فتسابقا، فسبقته عائشة! ثم سار بها حتى التحقَ بالناس، وعاد أدراجه إلى المدينة.

ومرَّت الأيام، كبرتْ عائشة في السن قليلاً، وزاد وزنها، وكان على موعد مع السَّفر، فأقرع بين نسائه على عادته، فوقعتْ عليها القرعة فصحبها معه، ثم في طريق العودة قال للناس: تقدَّموا.

فتقدَّم الناس... فلمَّا غدا وحده معها قال لها: تعالي حتى أُسابقكِ!

فتسابقا، فسبقها، فجعلَ يضحكُ ويقولُ لها: هذه بتلك!

النبيُّ ﷺ عليه مُهِمَّة دعوة البشرية قاطبة إلى الله، ورئيس الدولة الذي عليه تحريك الجيوش، وعقد الأحلاف، ومُراسلة الملوك، وتدبير شؤون الناس، لم يشغله هذا كله عن أن يكون

زوجاً، ويُعامل زوجته باللُّطف واللين إلى درجة أن يُسابقها في الصحراء كأنه ليس على كاهله كل هذه المسؤوليات الجسام! أراد أن يُعلِّمنا أن نكون مُتوازنين في حياتنا، لا يشغلنا العمل عن العبادة، ولا تجعلنا العبادة نترك أعمالنا ونتكفَّف الناس!

ألا يلتصق المرء بزوجته ويترك دنياه، ولا يلتصق بدنياه فيُهمل زوجته!

إنَّ من مآسينا اليوم أننا نجعل شيئاً واحداً يسرقنا من كل شيء!

تجدُ التاجرَ يقضي نهاره في عقد الصفقات، وجمع الديون، وتسديد الفواتير، فإذا عاد إلى بيته لا يهدأ جوَّاله، اتصال على فلان، واتصال من فلان، لا الزوجة تشعر بقُربه وهي التي تحتاج حنانه ودفئه كحاجتها إلى ماله بل أشدَّ! ولا الأولاد يشعرون أن لهم أباً وسنداً، يحسبُ أن المال الكثير، والأثاث الفاخر، والسيارات الفارهة تملأ غيابه، بينما في الحقيقة هم وجدوا المُعيل وفقدوا الأب، فليس بالضرورة أن يموتَ المرءُ ليُفتقد، يكفي أن يحضر بجسده ويغيب بقلبه وروحه حتى يصبح لا وجود له!

وتجدُ الزوجة مُولعة بالأثاث وترتيب البيت، وهذا شيء جميل بالمناسبة ولا حرج فيه، ولكن أن يصبح الأثاث أهم من البشر، ودورهم حراسته بدل استخدامه فهذا فيه من الحُمق أكثر ممَّا فيه من الترتيب والأناقة!

وتجدُ المُولع بالقراءة متأبِّطاً كتابه في ساعة متأخرة من الليل وزوجته بجانبه تنتظر فقط أن يسألها كيف كان يومها فلا يسأل! القراءة هواية عظيمة، وإنارة العقل مطلب جليل، ولكن القراءة

إنما يجب أن تكون على حساب وقتك لا على حساب واجباتك!

وتجدُ المتعلق بأصدقائه، كل يوم خروج وسهر، يُريدُ أن يحيا حياة العزوبية وهو متزوج، يُشعرها أن البيت قفص، وأنها سجَّان، وليس له سعادة إلا فتح باب القفص والخروج منه! وصل الأصدقاء جميل، ومن الضروري أن يكون للمرء طقوسه الخاصة، ولكن الظلم أن تكون حياته كلها طقساً خاصاً!

تاجر ما شئتَ، واقرأ كما يحلو لكَ، واجعلْ لكَ صُحبة، ولكن تذكَّر أنَّ لك زوجةً وأولاداً وأن أشياء صغيرة لا تُكلِّف شيئاً هي التي تصنع سعادة الآخرين!

اهتمِّي بنفسك، رتِّبي بيتك، ولكن تذكري أن هذه وسائل لإسعاد زوجك وأولادكِ وليست غايات بحد ذاتها، وإلا تحول الأثاث إلى صنم في البيت، له من التبجيل كما كان لأصنام قريش ذات يوم عند الكعبة!

ٱنظُروا لمن هو أسفلَ منكم!

إحدى مشاكلنا نحن البشر أن عيوننا فارغة، نُحصي ما نفقِدُ من النعم أكثر مما نشكرُ على ما أُعطينا، وننظرُ إلى ما في أيدي الآخرين أكثر مما ننظُر إلى ما في أيدينا! ولا ندري أنَّ النَّظر إلى ما في أيدي الآخرين يُفقدنا لذَّة الاستمتاع بما في أيدينا!

ولأن العُيون الفارغة مرضٌ عُضال، أرادَنا النبيُّ ﷺ أن لا نكون مرضى، فأعطانا العلاج يوم قال: «ٱنظروا لمن هو أسفلَ منكم، ولا تنظُروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة اللّه عليكم»!

قبل أن تنظُرَ إلى صاحب السيارة الفارهة، ٱنظُرْ إلى الشخص الذي بُتِرتْ أقدامه!

قبل أن تنظر إلى صاحب «الڤيلا» الفاخرة، ٱنظُرْ إلى المشرَّدين في الخِيام ينخرُ البرد عِظامهم!

قبل أن تنظر إلى ثروة الغني، ٱنظُرْ إلى كفّ الفقير الذي يتسوَّل ويستعطي الناس!

ثمَّ إنك لا ترى إلا جزءاً من الصورة، أنتَ ترى ما أُعطيَ الناس، ولكنك لا تدري شيئاً عما حُرموا منه!

ما أدراك أنَّ هذا الذي لديه الكثير من المال يفتقد الكثير من الأشياء التي لا تشتريها الأموال، ما أدراك أنه قد فقدَ أُمه، أو ضاع منه حُبُّ حياته، أم أنه مُبتلى بمرضٍ لا علاج له فيقف هو

وثروتـه عاجِزَيـن، يتمنَّـى لـو أنـه لا يملـكُ هـذا المـال، مُقابـل صحـة تشـعرُ بهـا وتتفيَّـأ ظلالهـا وتراهـا قليلـة!

مـا أدراكِ أن هـذه التـي تخـرجُ مـع زوجهـا إلـى مطاعـم كثيـرة، وتَرِيـن صورتهـا فـي المطـارات والرحـلات قـد حُرِمـتْ لـذَّة الإنجـاب، وأنهـا تتمنَّـى لـو كانـتْ مكانـكِ متسـمِّرة فـي بيتهـا، المهـم أن تسـمع طفـلاً صغيـراً يقـول لهـا «مامـا»!

مـا أدراكَ أنَّ هـذا الـذي يملـكُ وظيفـة مرموقـة قـد فقـدَ أمـه وهـو صغيـر وأنـه يتمنـى لـو كان مكانـك وكنـتَ مكانـه فقـط لتضُمَّـهُ وتأخـذه إلـى صدرهـا!

مـا أدراكِ أن وزن فلانـة ليـس كثـرة أكل وإنمـا مـن عـلاج الكورتيـزون، وأن نحافـة فلانـة ليسـتْ رشـاقة وإنمـا لأن مرضـاً يأكلهـا مـن الداخـل!

الأشياء ليست دائماً كما تبدو!

توقفـوا عـن النظـر إلـى مـا فـي أيـدي الآخريـن، ٱنظُـروا إلـى مـا فـي أيديكـم، فـإن النظـر إلـى نِعـم الآخريـن يـدل علـى عيـن فارغـة، ونفسـية مريضـة، وهـو قبـل كل هـذا سـوء أدب مـع اللّٰه!

لو سترتَه بثوبك!

جاءَ في الأثر أنَّ موسى عليه السَّلام لمَّا نزلَ ببني إسرائيل القحط والجدب، حثَّهم على التوبة والاستغفار، ثُمَّ خرجَ بهم إلى صلاة الاستسقاء، وطلبَ منهم ألا يُصلي معه إلا تائب! فصلَّى ببني إسرائيل فلم ينزل المطر، فسأل موسى عليه السَّلام ربَّ العِزَّة عن ذلك، فأوحى اللّه سُبحانه إليه أنَّ بينكم رجلاً عاصياً لم يتُب بعد! فطلبَ موسى من بني إسرائيل أن يخرجَ من بينهم هذا العاصي كي لا يُحرموا المطر بسببه! وما هي إلا لحظاتٍ حتى انهمرَ المطرُ رغمَ أنه لم يخرج من بني إسرائيل أحد! فسأل موسى عن سبب المطر رغم بقاء العاصي بينهم، فأوحى اللّه سُبحانه إليه أنَّ العبدَ قد تابَ بينه وبين ربه! فسأله موسى عن اسمه، فقال له اللّه تعالى: يا موسى سترته عاصياً، أأفضحه تائباً!

عندما زنى ماعِزٌ رضيَ اللّه عنه، مرَّ بصديقٍ له اسمه هُزال الأسلمي وحدَّثه بما كان منه، ولكن هُزالاً لم يعِظْه، ولم يحُثَّه على التوبة، بل أشار إليه أن ينطلق إلى النبيِّ ﷺ فيُخبره بالأمر! فأتى ماعِزٌ إلى النبيِّ ﷺ واعترفَ عنده بالزنا، فأمر عليه السَّلام برجمه، لأنَّ الأمر إذا وصلَ إلى الإمام سقطَ العفو، ولا بُدَّ من إقامةِ الحَدِّ! ثم إنَّ النبيَّ ﷺ لقيَ هُزالاً الأسلمي بعد ذلك فقال له: لو سترْتَه بثوبك كان خيراً لك!

نعم وَضَعَ الإسلامُ حدوداً، وما من نظامٍ بشريٍّ قامَ يوماً إلا وفيه منظومة عقوبات تختلف من مجتمع إلى آخر، ولكن الإسلام العظيم حثَّ على التوبة والسِّتر عند ارتكاب المعاصي، فما دام اللّه سترَ على الإنسان فالأَوْلى ألا يذهب العاصي إلى الإمام ويطلبَ تنفيذ العقوبة! ولخَّص ابن تيمية هذا كله في جُملةٍ واحدةٍ حين قال: والأصلُ في الذنوبِ التوبة والاستغفار لا إقامة الحدود!

السِّترُ مبدأٌ من مبادئ الشريعة، كلُّ مُسلم مُطالب أن يسترَ على نفسه وعلى غيره، والنفسُ البشرية مفطورة على سترِ نفسها وفضحِ غيرها!

من تتبَّعَ عورات الناس تتبَّعَ اللّه عورته، ومن ستر غيره ستره اللّه، لأن الجزاء من جنس العمل!

كلنا مطرَّزون بالعُيوب ولولا رداء من السِّتر وضعه اللّه علينا لانفضحنا وما نظر إلينا الناس نظرة احترام أبداً!

وأجمل خُلُقٍ يعمل به العبد هو أن ينظُرَ إلى الخُلقِ الذي يُعامِل به الرَّبُّ سبحانه عباده، فيعاملهم مثله، وأن اللّه سِتّير يُحبُّ السِّتر!

كل ذنبٍ لإنسانٍ سمعتَ عنه دعه يقف عندكَ، أنتَ أيضاً لك ذنوب وللناس ألسُن، فاشترِ سِترك بسِتر الناس!

إنَّ اللّه يُحبُّ العبد الخفي!

نعى السائبُ بن الأقرع إلى عُمر بن الخطاب شُهداء المُسلمين في معركةِ نهاوند، فعدَّ أسماءً من أعيان الناس وأشرافهم، ثم قال السائب: وآخرون من أفناء الناس لا يعرفهم أمير المؤمنين!
فبكى عُمر وقال: وما ضرَّهم ألَّا يعرفهم عُمر، إنَّ اللّه يعرفهم!

وفي سِيَرِ أعلام النُّبلاء للذهبي قال: كان في جيش هارون الرَّشيد عشرين ألف مُجاهد لا يكتبون أسماءهم في ديوان الجُند، فلا يأخذون رواتبهم، كي لا يعرفهم أحدٌ إلا اللّه!

أما مُناسبة الحديث، فهو حين قُتل عثمان بن عفان كان سعد بن أبي وقّاص في البادية يرعى إبلاً له، فجاءه ابنه، فلما رآه سعد من بعيد قال: اللهم إني أعوذُ بك من شرِّ هذا الراكب! يبدو أنه بفراسته عرفَ أنَّه يحمل أخباراً سيئة، فلما وصل عنده قال له ابنه: أنتَ في إبلكَ وتركتَ الناس يتنازعون المُلك بينهم!
فقال له سعد: اسكُتْ، سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ اللّه يُحِبُّ العبدَ التقيَّ الغنيَّ الخفيّ»!

والعبدُ الخفيُّ هو الذي يُخفي حسناته عن الناس كما يُخفي عنهم سيئاته، فيجعلُ بينه وبين اللّه خبيئة صالحة لا يعلمها إلا اللّه!

ليس بالضرورة أن يعرفَ الناسُ كل صدقة تتصدَّقُ بها، فالرِّياءُ مَفسدةُ الأعمال، وإنْ لم يقصد المرءُ رِياءً فلعلَّه يجرح كرامة من تصدَّق عليه دون أن يدري، وترميمُ قُلوبِ الناس وحفظُ كراماتِهم مُقدَّمٌ على إعانتِهم وترميم جيوبِهم!

ليس بالضرورة أن تُوثِّق كل عمل خير تعمله، ولا كل عبادة تقوم بها، لقد كلَّف اللّه سُبحانه الملائكةَ بهذا الأمر، فأَرِحْ نفسك، كل ما عملْتَه من خير أو شر ستجده يوم القيامة أمامك في كتاب «لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها»!

كان ابن القيم يقول: الخوافي للخوافي!

وإني أقول:

مرضُكَ الذي لا يعلمه إلا اللّه، اجعلْ له صدقةً خفيةً لا يعلمها إلا اللّه!

والهمُّ الذي يربضُ على صدرك ولا يعلمه إلا اللّه، اجعلْ له استغفاراً خفياً لا يعلمه إلا اللّه!

القلقُ الذي يعتريكَ ولا يعلمه إلا اللّه، اجعلْ له ركعتين في الليل لا يراهما إلا اللّه!

قلةُ الرِّزق الذي نزلَ بك ولا يعلمه إلا اللّه، اجعلْ له استغفاراً بينك وبينه!

وتذكَّرْ: ما ضرهم ألَّا يعرفهم عمر، يكفي أن اللّه يعرفهم!

كما يرزقُ الطير!

حـجَّ عُمـر بـن الخطـاب فـي سـنةٍ مـن سـنوات خلافتـه، فلقـيَ أُناسـاً قـد جـاؤوا إلـى الحـجِّ بغيـرِ زاد، وإذا هـم يسـتعطون النـاس، فسـألهم: مـن أنتـم؟

فقالوا : نحن المُتَوَكِّلون!

فقال لهـم: بل أنتـم المُتَّكِلون، إنمـا المُتوكل الـذي يُلقـي حبـةً فـي الأرض، ويتـوكَّل علـى اللّه!

يُخطـئُ كثيـرٌ مـن النـاس فـي فهـم التـوكُّل علـى اللّه سـبحانه، ويحسـبون أنَّـه تـرك الأخـذ بالأسـباب، ناسـين أو مُتناسـين أن هـذه الأسـباب إنمـا هـي واقعـة فـي قَدَرِ اللّه، وأن اللّه سـبحانه قـد وضـع لهـذا الكـون سُـنناً ونواميـس علـى المـرء الأخـذ بهـا مـا اسـتطاع، ثـم بعـد ذلـك يضـع يقينـه علـى اللّه أنَّ هـذه الأسـباب لا تضـرُّ ولا تنفـع حتـى يـأذن اللّه سـبحانه!

نعـم نُؤمـن أنَّ اللّه هـو الشـافي ولكـن مـن الحماقـة عـدم قصـد الأطبـاء وطلـب العـلاج!

ونُؤمـن أن اللّه هـو الـرازق ولكـن مـن الحماقـة عـدم الذهـاب إلـى العمـل!

كان النبـيُّ ﷺ أكثـر النـاس يقينـاً بـاللّه، ولكنـه فـي المُقابـل كان أكثـر النـاس أخـذاً بالأسـباب، فيـوم الهجـرة اصطحـبَ معـه دليـلاً

يدُلُّه على الطريق إلى المدينة ولم يقُلْ أنا نبيٌّ وسوف أصل على أية حال!

ويوم أُحُد لبسَ دِرعين رغم أنه يُؤمن أن الأعمار بيدِ اللّه ولكنه أراد أن يُعلِّمنا ثقافة الأخذ بالأسباب!

وعندما كان يغزو كان يُورِّي في مسيره، بمعنى أنه إذا أراد أن يُحارب قوماً سلكَ طريقاً مُغايِراً حتى يُفاجِئَ العدو، رغم أنه يُؤمن أن النصر من عندِ اللّه!

نعم علَّمنا النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّ اللّه وحده هو الذي يُحيي ويُميتُ ويرزقُ ويشفي ويُعطي ويمنع، فقال: «لو أنكم تتوكَّلون على اللّه حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزقُ الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً»! ولكنه بالمُقابل علَّمنا أن الدُّنيا دار أسباب! فالطُّيور لا تبقى في أعشاشها تنتظرُ رزق اللّه تعالى لتملأ بطونها، وإنما تخرج مُبكرة، تبحث عن الحَبِّ الذي يسدُّ جوعها، فلا يقع كل عصفور إلا على ما قسمه اللّه تعالى له من الرِّزق!

من الفهم السقيم لبعض الناس أنهم ينتظرون المُعجزات دون بذل الأسباب! ويُحدثك أحدهم كيف شقَّ موسى عليه السَّلام البحر بعصاه، وكيف التقمَ الحوتُ يونس عليه السَّلام فلم يُصبْه أذىً، وكيف أُلقيَ إبراهيم عليه السَّلام في النار فكانتْ برداً وسلاماً! ينسى هؤلاء أنَّ المُعجزات هي أمرٌ خارقٌ للعادة، يخرقُ بها اللّه نظام الكون الذي وضعه ليُعلِّمنا أنه لا يتركُ عباده، وأن هذه الأسباب إنما تحكمُ الناس ولا تحكمه جلَّ في عُلاه! وإلَّا فإن

حاول أحدنا أن يشقَّ البحر بعصاه لقال عنه الناس مجنون! ولو ألقى نفسه في النار لماتَ منتحراً!

لا شيء أسوأ من وضع اليقين على الأسباب سوى ترك الأخذ بها!

أكُنتَ تدعو بشيءٍ؟

زار النبيُّ ﷺ رجلاً من أهل المدينة قد أصابَه المرض، فوهن جسمه، وخفَّ وزنه حتى ظنَّ كل من عادَه أنها النهاية!

استرعىَ حالُ الرجل النبيَّ ﷺ فسألَه: أكُنتَ تدعو بشيء؟

فقال: نعم، كنتُ أقولُ: اللهمَّ ما كنتَ معاقبي به في الآخرة فعجِّله لي في الدنيا!

فقال له النبيُّ ﷺ: سُبحان الله، لا تُطيقه، أفلا قُلْتَ: اللهمَّ آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقِنا عذابَ النار!

فدعا الرجل بها، فشفاه الله!

الفكرة أنَّ القدر مُوَكَّلٌ بالمنطق، والناسُ أحياناً يدعون بصورةٍ خاطئةٍ، ويشترطون على الله شروطاً تتنافى مع رحمته، فيُعطيهم الله ما سألوه، حتى يفقهوا ويرجِعوا!

هذا الصحابيُّ من حِرصِه على النجاة من عذاب الآخرة، كان يدعو أن يجعل الله كل عذابه في الدنيا، فدلَّه النبيُّ ﷺ على الصواب، وهو الدُّعاء بالنجاة في الدُّنيا والآخرة!

يمرضُ ولدٌ صغيرٌ فتسمعُ أمه تدعو: ليتني أنا ولا أنت! وهذا الدُّعاء من الأُم لا شك يحمل في طياتِه رحمةً وحباً لابنها، لكنه ينطوي على على جهل، لماذا على الأُم أن تدعو بانتقال المرض إليها في حين أنَّ بإمكانها أن تدعو الله سبحانه أن يُعافي ابنها ويعافيها!

لا يعرفُ الإنسان متى يُوافق دعاؤه ساعة استجابة، لهذا عليه أن يتأدَّب في الدُّعاء، ولا يسأل اللّه إلا خيراً!

تكسرُ البنتُ صحناً، فتغضبُ الأمُّ وتدعو عليها قائلة: كسر اللّه قلبِك! ماذا لو استُجِيبتْ هذه الدعوة، أكسر قلبٍ مقابل كسر صحن؟!

يتشاجرُ الأولادُ في البيت، فتسمعُ دعاء الأُم في الغالب أو الأب أحياناً: اللّه يغضب عليكم! ماذا لو استُجِيبَتْ هذه الدعوة! أَغَضَبُ اللّه سُبحانه مقابل لحظة شِجار صبيانية؟!

على المرء أن يختارَ ألفاظه في الدعاء، وأن لا يسأل اللّه سُبحانه إلا الخير، فإنَّه جلَّ في عُلاه لا يُعجزه شيء!

جاء في الأثر أنَّ يُوسف عليه السَّلام ناجى ربَّه وهو في السِّجن قائلاً: يا ربي قد طالَ السِّجن!

فأوحى اللّه إليه أن يا يُوسف أنتَ سألتَ السِّجنَ فأعطيناك، ولو سألتَ العافية لعافيناك!

ذلك أن يُوسف عليه السَّلام من عِفّته، لمَّا خيَّروه بين السجن والزنا، قال: «ربِّ السِّجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه»!

فأنَّى يُستجاب له؟!

جاءَ في الأثرِ أن رجلاً قال لعيسى عليه السلام: أَوصِني
فقال له: انظُرْ إلى رغيفك من أين هو!
المعنى: اِبحثْ عن الحلال!

ولأنَّ دعوة الأنبياء واحدة، والدِّين عند الله الإسلام، قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله طيِّب لا يقبلُ إلا طيِّباً، وإنَّ الله أمَر المؤمنين بما أمرَ به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾. ثم ذكرَ الرَّجُلَ يُطيل السَّفر، أشعثَ أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّيَ بالحرام، فأنَّى يُستجابُ له!

وروى الطَّبرانيُّ في الأوسط أنَّ سعدَ بن أبي وقاصٍ قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني مُستجاب الدَّعوة.
فقال له: يا سعد، أَطِبْ مطعمكَ تكُن مُستجاب الدَّعوة!

يشكو الناس هذه الأيام كثيراً أن الدُّعاء لا يُستجاب، وهذا واقع مُشاهد، سببه أنَّ الناس استهانتْ بأكل الحرام! وإنهم يحسبون أنَّ المال الحرام يعني أن تسرقَ من جيبِ إنسان بعض ماله، وهذا في الحقيقة جزء من المال الحرام لا كله!

المِيراثُ الذي تستأثرُ به وحدكَ دون إخوتك، أو تُعطيهم أقلَّ مما فرضَ الله لهم مالٌ حرام!

والمالُ الذي تموتُ الزوجة وتتركه وراءها فتأخذه وحدكَ وتحرم منه أهلها وأولادكَ مالٌ حرام!

الرَّشوة التي تتلقَّاها لتُنجز بها معاملات الناس مالٌ حرام!

والوظيفة الشكلية التي لا تحضر إليها ولا تعرف منها إلا راتبها مال حرام!

والعملُ الذي لا تُنجزه بحسب المواصفات والاتفاق مالٌ حرام!

والبضاعة التي تبيعها ولا تُبيِّن عيبها للناس مالٌ حرام!

والدَّين تأخذه من الناس لتُفرج كربكَ وفي نيتك أن لا ترده مال حرام!

والجمعية التي تشتركُ بها ثم تقبضها وتتوقف عن الدفع مال حرام!

والكماليات والسفرات والمظاهر الفارغة التي تقوم بها وللناس عليكَ حقوق وللعمال رواتب لا تُؤدِّيها مال حرام!

والرِّبا الذي تأخذه من البنك مال حرام مهما أفتاكَ فلانٌ وعلاّن!

والتحايلُ على الله مالٌ حرام!

كنتُ يوماً عند الحلاق أنتظرُ دوري، وجرى حديث بين رجلين حول الرِّبا الذي تدفعه البنوك، وكان أحدهما يُؤكِّد أنه حرام، بينما الآخر قال: نعم حرام أن تأكله ولكن خذه ولا تشترِ به طعاماً، املأ سيارتك بالوقود، وادفعْ أجر العمال، وفاتورة الكهرباء!

فأخرجَتْني هذه الفتوى عن صمتي، وقلتُ له: وبِمَ يختلفُ

هـذا العمـل عـن عمل بنـي إسـرائيل الذيـن نُهـوا عـن الصيـد يـوم السـبت، فكانـوا ينزلـون إلـى البحـر يـوم السـبت، ويُلقـون شِـباكهم حـول الأسـماك فيحبسـونها داخلهـا، ثـم يعـودون صبيحـة يـوم الأحـد ويُخرجونهـا إلـى الشـاطئ! فمسـخَهم اللّه قِـردةً وخنازيـر! إنَّ اللّه لا يُخـدع، ولا يُجـدي معـه التحايـل!

اُنظُـروا إلـى رغيفكـم مـن أيـن هـو، وتأمَّلـوا مـن أيـن تكسـبون أموالكم، وكيـف تُنفقونهـا، ثـم بعـد ذلـكَ سـترون دعاءكـم يتحقَّـقُ كأنـه فلـق الصُّبـح!

أفلا كُنتم آذنتموني؟!

كان على عهدِ النبيِّ ﷺ امرأةٌ سوداء تُنظِّفُ المسجد... ثم ماتتْ، فكأنهم استصغروا أمرها فدفنوها ولم يُخبروا النبيَّ ﷺ بأمرِها!

ثم إنَّ النبيَّ ﷺ فقدَها، فسأل عنها، فقالوا: ماتت يا رسول الله!

فقال: «أفلا كنتم آذنتموني، دُلوني على قبرها»!

فدَلُّوه، فصلَّى عليها، ثم قال: «إنَّ هذه القُبور مملوءة ظُلمة على أهلها، وإنَّ الله عزّ وجل يُنوِّرها بصلاتي عليهم»!

مما آبتُلينا به في هذه الأيام أنه إذا ماتَ لأحد الأثرياء والمُتنفِّذين وأصحاب المناصب قريب جاءَ الجميعُ إلى عزائه، وإذا ماتَ الإنسان البسيط كان الذين يمشون في جنازته يُعدُّون على الأصابع! أصبحَ الموتُ طقساً من طقوس الانتفاع!

يُروى أنه ماتتْ خادمة كبير القضاة، فجاء التجار والأعيان ووجهاء البلد يُعزُّونه بها... وعندما ماتَ كبيرُ القُضاة لم يمشِ في جنازتِه من هؤلاء أحد، فقد كانوا يُباركون لكبيرِ القُضاةِ الجديدِ منصبه!

الحُبُّ في هذا الدين عبادة، ومكانةُ الأشخاص في قلبكَ يجب أن تكون بحسب قُربهم من الله وبُعدهم عنه، لا بحسب ثرائهم ومناصبهم، فالمرأة التي كانت تُنظِّف المسجد لم يرفعْ قدرها

عند النبيِّ ﷺ غير عملها الصَّالح في خدمةِ دين اللّه، علينا أن نتوقَّف عن الاعتقادِ أنَّ قيمة الإنسان بما يملك، إنما المرءُ بقلبه، ما أدراك أنَّ هذا المُسِنُّ الذي يأتي لصلاةِ الفجرِ يتَّكِئُ على عكازه هو عند اللّه خير من أثرياء الدنيا كلهم، وأنه بطل وقوي، أقوى كثيراً من الشُّبانِ الذين يرفعون الأثقال في النوادي، ولا يستطيع أحدهم أن يرفعَ لحافه إذا ما نادى المُنادي: الصلاةُ خيرٌ من النوم!

من قالَ لكَ أنَّ الوزير أحبُّ إلى اللّه من كنَّاس الطريق!

وأنَّ المُمثلة الثرية والحَسناء أقرب إلى اللّه من عجوز تثني ركبتيها على سجادتها، ولسانها لا يكفّ عن ترداد: اللهم حُسن الخاتمة!

إنَّ قيمة الناس عندنا يجب أن تكون بمقدارِ صلاحِهم وخدمتِهم لدينِ اللّه، الثريُّ الصالحُ خيرٌ من الفقيرِ العاصي، والفقيرُ الصالحُ خيرٌ من الثريِّ العاصي!

ربحَ بيعُ صُهيبٍ لأنه تركَ مالَه للّه!

وارتفعَ شأنُ بلال لأنه ردَّد تحت الصخرة أحدٌ أحد!

و«سلمان منا آل البيت» لأنه طافَ الدنيا بحثاً عن الحق!

لا تزهدوا بالبُسطاء والمساكين، فواللّهِ إن اللّه يرضى عنكَ بالصَّدقةِ على فقيرٍ أكثر ممَّا يرضى بالهدية للغنيِّ، ويُحبُّك لزيارةِ المسكينِ المريض فارغ اليدين، أكثر ممَّا يُحبك لزيارةِ المُتنفِّذِ وصاحبِ المنصبِ وبيدك باقة ورد أو علبة حلوى!

لو كان المُطعِمُ بن عَدِيٍّ حياً!

يا ليوم الطائف ما أقساه، حملَ الجنة يومذاك وذهبَ بها إلى هناك أَنْ آمنوا وادخلوها، ولكن ابن عبد ياليل سيد القوم قال له: أما وجدَ اللّٰه غيركَ ليُرسله؟! ثم أطلقَ وراءه الغِلمان والسُّفهاء ليرجموه بالحجارة! كُذِّب بدعوته، وأُوذِيَ بجسده، وسالَ الدمُ الشريف، وما أجرأ الناس على اللّٰه، وما أحلمَ اللّٰه على الناس!

ولأنَّ المصائب لا تأتي فُرادى، ولأنَّ أشدَّ الناس ابتلاءً الأنبياء، وهو سيدهم، كان على موعد مع ابتلاءٍ جديد حتى قبل أن تلتئم الجراح في قدميه، أما عن جرح قلبه فكان ما زال ينزُّ حين قررتْ قُريش أن تمنعه من دخول مكة، وهكذا صار بين نارين لا الغريب قبِلَ منه دعوته، ولا القريب قبلَ عودته! فكان لا بُدَّ له أن يبحث عمَّن يُجيره ويحميه ويُدخله تحت كنفه إلى مكة، فذهب إلى المُطعِمِ بن عديٍّ، وقبلَ أن يُجيره، وباتَ عنده تلكَ الليلة، ثم لما كان الصباح، خرجَ المطعم وبنوه مُتقلِّدي السيوف، حتى أتوا الكعبة، وقال للنبي ﷺ: طُفْ بالبيت ما شئت!

فجاء أبو سُفيان فقال للمطعم: أمُجيرٌ أنتَ أم تابعٌ له؟

فقال: بل مُجير.

فقال أبو سُفيان: قبلنا جواركَ، وخلَّينا بين محمد وما هو فيه!

ثم مكثَ أياماً في مكة، وأُذِنَ له بالهجرة، ودار الزمان قليلاً، ماتَ في دورته المُطْعِمُ بن عديٍّ، ثم كانتْ غزوة بدر التي انتهتْ

بالنصر، ولما جِيء بأسرى قُريش إلى النبي ﷺ قال: لو كان المُطْعِمُ بن عديٍّ حيَّاً وكلَّمني في هؤلاء النَّتنى لتركتهم له!

رغمَ أن هؤلاء أسرى حرب، ولو أن أحداً استطاع أن يقتله ما تردَّد ثانية، ولكنه حفظَ للمطعم بن عديٍّ معروفه معه، ولم ينسه، وأخبرهم أنه لو كان حياً وشَفِعَ فيهم ما ردَّ طلبه، ولأطلقهم له عرفاناً بمعروفه الذي صنعه معه!

النُّبلاء لا ينسون مواقف الآخرين المشرِّفة معهم حتى ولو كانوا من غير مِلةٍ وعلى غير دين!

فهل حفظنا للناس معروفهم، وتحيَّنَّا الفُرص لنرد إليهم هذا الجميل عملاً بهَدْيِه وسُنَّته، أم أخذنا ومضينا؟!

العبدُ تُقيده السلاسل، أما الحُرُّ فيُقيده المعروف! فكُنْ حراً ولا تنسَ معروفاً أُسديَ إليكَ، صحيح أن الذي فعلَ المعروف هو في الغالب لا ينتظر سداداً، ولكن من العار أن تنسى أنتَ!

تقدَّم رجل لخطبة امرأةٍ، فقال له أبوها ما زوجتكَ إياها عن زُهد فيها، ولا عن ثُقلٍ في الإنفاق عليها، ولكنها سُنة اللّٰه في الناس، ما استطعتَ أن تُحضره من مهر وبيت وجهاز أحضره، وما قصَّرتَ به أنا أدفعه!

وتمَّ الزواج، ويقول الزوج بعدها: نحن معاً منذ عشرين عاماً ما أغضبتُها يوماً، وحتى حين كانت تُشاجرني كنتُ أتذكرُ معروف أبيها معي، فأُراضيها ولو كانتْ هي المُخطئة!

إنَّ المعروف لا يضيع، وإن ضاعَ عند الناس فلن يضيع عند الله، فاصنَع المعروف صنع من لا ينتظر السداد، ولكن إن أسدى إليك أحدٌ معروفاً فاعتبره دَيْناً وابقَ طوال العمر مُتحيِّناً اللحظة التي تُتاح لك فيها سداده فهذا من خُلق الأنبياء.

هذه صفات المُؤمنين حقاً!

وأخيراً فُتحتْ مكة، واستردَّتْ هويتها التي خلقها اللّه لأجلها، قِبلة التوحيد، ومهوى قلوب المؤمنين! لقد تخلَّصتْ من رجس الشِّرك الذي غزاها ذات جاهلية، ثم إنَّ الوقت قد حان لتطهيرِ جزيرة العرب كلها!

يستدعي النبيُّ ﷺ الأسد الهصور عليَّ بن أبي طالب، ويُرسله على رأس سرية لهدم «الفُلْس» الصنم الذي تعبده قبيلة طيء... ولأنَّ علياً لا يبرح حتى يبلغ، أتمَّ المهمة بنجاح، حطَّم الصنم، وعاد بالأسرى إلى المدينة، فوضعهم النبيُّ ﷺ قرب المسجد حتى ينظر في أمرهم.

وفي اليوم التالي وبينما النبيُّ ﷺ يهمُّ بدخول المسجد، إذ وقفتْ امرأةٌ وقالت له: يا محمد، إن رأيتَ أن تُخلي عني فلا تُشمِّتْ بي أحياء العرب، فقد هلكَ الوالد، وغابَ الوافد، فامنُنْ عليَّ منَّ اللّه عليكَ، فإن أبي كان سيِّد قومه، يفُكُّ العاني، ويعفو عن الجاني، ويحفظُ الجار، ويحمي الذِّمار، ويُفرج عن المكروب، ويُطعم الطعام، ويُفشي السلام، ويحملُ الكَلَّ، ويُعين على نوائب الدَّهر، وما أتاه أحدٌ بحاجةٍ فردَّه خائباً، أنا سَفَّانة بنت حاتم الطائي!

فقال لها النبيُّ ﷺ: هذه صفاتُ المؤمنين حقاً، ولو كان أبوكِ مسلماً لترحَّمنا عليه! ثم قال للصحابة: خلُّوا عنها فإنَّ أباها كان يدعو إلى مكارم الأخلاق!

هذه صفات المؤمنين حقاً! هنا مربط الفرس، ومَطِيَّة الكلام!

دِينُك الحقيقي ليس في مسجدك، ولا على سجادة صلاتك، دينك الحقيقي أمانتك في متجرك، ووظيفتك!

دِينُك الحقيقي في تواضعك بل ذُلِّكَ أمام أبويك، في إحسانِك مع إخوتك وأخواتك، في الصبر على زوجتك، في رحمة أولادك!

دِينُك الحقيقي كيف أنتَ مع جيرانك!

دِينُك الحقيقي حين يُجمع مالٌ لمريضٍ وأنتَ قادر على المُساعدة، فتعطي أو تبخل!

دِينُك الحقيقي حين يخوض الناس في أعراض الناس أمامك، فتمشي معهم، أو تُمسك عليكَ لسانك وتحفظ للغائبين غيبتهم!

دِينُك الحقيقي حين تصِلُ إلى مسامعك ذنوب فلانٍ وفلانة، فتستر ولا تخوض في أعراض الناس، أو تفضح!

دِينُك الحقيقي حين يُلقى إليكَ بالسِّر، فتحفظ أو تُفشي!

إن التوحيد والصلاة والصيام وسائر العبادات هي حقُّ اللّٰه على العبد، وهي نصف الدِّين، أما نصفه الآخر فكيفَ أنتَ مع الناس، وإنَّ التديُّن الذي لا ينعكس على السلوك هو تديُّن أجوف! وإن الإيمان الذي لا يجعلك رقيقاً وكريماً ومأمون الجانب هو إيمان ناقص!

صحيح أن الأخلاق كلها لا تشفعُ للمرءِ إن ماتَ على الكُفر، ولكن الإيمان الذي ليس فيه أخلاق هو إيمان أعرج، وما أجمل مقولة ابن القيم: إنَّ الدِّين كله خُلق، فمن فاقكَ في الخُلق، فقد فاقكَ في الدِّين!

فاعملْ من وراء البحار!

جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ يسأله عن الهجرة، فقال له: ويحكَ إنَّ شأن الهجرة لشديد، فهل لكَ من إبل؟

فقال الأعرابي: نعم.

فقال النبيُّ ﷺ: فهل يُؤدِّي زكاتها؟

قال: نعم.

فقال له: فهل تمنحُ منها شيئاً؟ يريدُ أن يقول له فهل تتصدَّق بالقليل بعد إخراج الزكاة.

فقال: نعم.

فقال له: فاعملْ من وراءِ البحار، فإنَّ اللّٰه لن يَتِرَكَ/ يُنقصك من عملكَ شيئاً!

علَّقَ الإمامُ النووي على هذا الحديث بقوله: المُراد بالهجرة التي سأل عنها الأعرابي هي مُلازمة المدينة مع النبيِّ ﷺ وتركِ أهله ووطنه، ولأنه يعلمُ حنين الأعراب إلى أوطانهم، خافَ عليه أن لا يقوى عليها، ولا يقوم بحقوقها!

الفكرة أنَّ الإنسان يستطيعُ أن يكونَ مُهاجراً مع النبيِّ ﷺ وهو في بيته، فليس المهمُ أين يسكنُ المرء، ولا مع مَنْ، المهمُ ماذا يفعلُ، وكيف يتعبَّدُ، وكيف هو قلبُه، ما نَفَعَت ابنَ سلولٍ إقامتُه في المدينةِ وصلاتُه الفجر في المسجدِ خلف النبي ﷺ، وما ضرَّ عجائز الجزيرة اللواتي سمعنَ به، وآمنَّ برسالته، ولم يَرَيْنَهُ، اللهم إلا أنَّ رؤيته كنزٌ من كنوز الدنيا!

لا تُعلِّق صلاحكَ وفسادكَ على المكانِ الذي تعيشُ فيه، صحيحٌ أن البيئة مهمة، وأنها إما تُشجِّعُ على الطاعة أو تحثُّ على المعصية، ولكن الأجر على قدرِ المُجاهدة!

جاءَ زمانٌ على هذا الكوكب لم يكن أحدٌ يعبدُ اللّه فيه إلا إبراهيم عليه السلام! ومن حاشية فرعون وقصره جاء رجل يكتم إيمانه ويُدافع عن موسى عليه السلام!

ولا تُعلِّق فسادكَ وصلاحكَ على الأشخاص الذين تعيشُ معهم، كان فرعونُ يقول: «أنا ربكم الأعلى»! وفي الغرفةِ المُجاورةِ كانتْ زوجته آسيا بنت مزاحم تسجدُ وتقولُ: «سبحان ربي الأعلى»! فمهما بلغَ زوجكِ من المعصية ما هو إلا نقطة في بحر فرعون فلا تتحجَّجي! صحيح أن الزوج الصالح يُعين على الطاعة ولكن من قال إن الزوج العاصي سبب لتعصي أنتِ!

في بيتِ شيخِ المُرسلين نوح عليه السَّلام كان هناك زوجة كافرة! وفي بيتِ لوطٍ عليه السَّلام كان هناك زوجة كافرة أيضاً، وما شغلهما هذا عن العبادة الذاتية، بل عن عبادة النبوة والتبليغ وهي أعظم وأشقُّ وظيفة في التاريخ!

ومهما بلغَتْ زوجتك من سوء الخُلُق والمعصية فلن تبلُغ مقدار زوجتي نوح ولوطٍ عليهما السَّلام، فليسَ بعد الكُفر ذنب، فلا تتذرَّع! صحيح أن الزوجة الصالحة تُعين على الطاعة ولكن من قال إن تقصيرها يُبيحُ تقصيركَ!

نقطة أخيرة:

في كلِّ عائلةٍ هناك الصالح والطالح:

كان لآسيا زوج طاغية، وكان لنوحٍ ولوطٍ عليهما السلام زوجات كافرات، وكان لإبراهيم عليه السلام أب مشرك، وكان للنبيِّ ﷺ عمٌّ اسمه أبو لهبٍ ذمَّه الله سُبحانه في القرآن الكريم، فلا تُعيِّر أحداً بقرابتِه!

أنا النبيُّ لا كَذِب!

كانت غزوة حُنين علامةً فارقةً بين غزوات النبيِّ ﷺ، فالمسيرُ قصير، والعدوُّ قليل عدداً وعَتاداً، فبدتْ يومذاك النتيجة مضمونة، والخصم لُقمة سائغة، والنصر مجرَّد وقت!

كلُّ الأسباب مُهيَّأة إذن، حتى أن الصحابة يومها اغترُّوا فقالوا: لن نُهزم اليوم من قِلة! غير أن ربَّ الأسباب أرادَ أن يُربِّي هذه الأمة ويُعلِّمَها أن تأخذ بالأسباب لا أن تركن إليها! وأن النصر بيده سُبحانه لا بأيديهم التي تحمل السيوف وترمي الرِّماح!

والتقى الجيشان، وهُزم المسلمون أول المعركة، وفرَّ كثيرٌ منهم، عندها اقتحمَ النبيُّ ﷺ جيش المُشركين وهو على بغلته يقول: أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب!

ثم استفاقَ المُسلمون مما حلَّ بهم، أحاطوا بنبيِّهم، وأصلحوا النية مع ربهم، فكان النصر!

مُقارنةٌ طفيفةٌ بين حُنين وبدر تُخبرك بسرِّ النَّصر!

في بدر كانتْ موازين القوى تميل إلى قريش بشكل واضح، ولكن المسلمين علَّقوا الأمل بالله، والتجأوا إليه سبحانه، وموقفهم يومذاك يُلخِّصه حمزة بن عبد المطلب حين نظر إلى جيش قريش فقال: إن كل ما أمامي لا يُخيفني، هم أكثر منا عدداً ولكننا بالإيمان أكثر قوة!

هـذا الافتقـار إلـى اللّه، هـذا التجـرُّد مـن الأسـباب والتعلُّق بـربِّ الأسـباب هـو الـذي جلبَ النصـر، فربطَ اللّه علـى قلوبِهـم، وأمدَّهـم بالملائكـة، جبريـل شـخصياً يمتطـي صهـوة فرسـه حيـزوم ويقـود فرقـة المـدد الإلهـي!

أمـا فـي حُنيـن فاختلفتْ النظـرة إلـى المعركـة، واسـتصغروا العـدو واسـتكبروا أنفسـهم، فخلَّـى اللّه بينهـم وبيـن عدوهـم حتـى كادت أن تحـلَّ الكارثـة، ولكنـه لمـا حصـل التأديـب الربانـي، وفهـم المسـلمون الـدرس سـريعاً، وتبـرَّأوا مـن الأسـباب وتعلَّقـوا بربهـا، عـاد المُسـلمون سـيرتهم الأولـى أمـام أعدائهـم!

ما يُقال في حق هذه الأمة يُقال في حق الأفراد أيضاً!

مـا اعتمـدَ أحـد علـى اللّه إلا هيَّـأ لـه مـن الأسـباب مـا يُريـه فيـه ثمـرة الاعتمـاد والتـوكُّل عليـه سـبحانه، ومـا اعتمـدَ أحـد علـى الأسـباب إلا أركنَـه اللّه إليهـا!

يُـؤدِّب اللّه الإنسـان مرتيـن: مـرةً إذا أخـذ بالأسـباب ونسـيَ أنهـا بيـد اللّه، ومـرةً إذا أهملَهـا نهائيـاً!

ادرسـوا، واجتهـدوا، ولكـن اعلمـوا أن النجـاح بيـدِ اللّه، لا تدخلـوا إلـى الامتحانـات مُتَّكِليـن علـى عقولكـم وإنمـا علـى ربكـم!

تعالجـوا، وابحثـوا عـن الـدواء ولكـن اعلمـوا أن الشـفاء بيـد اللّه، لا بيـد الطبيـب، وعلبـة الـدواء!

اعملـوا، وتاجـروا، ولكـن اعلمـوا أن الـرزق بيـد اللّه، وأن العمـل إنمـا هـو بـاب ولكـن الـرازق فـي السـماء!

مـا قـالَ إنسـان أنـا، ومنـي، وعنـدي، ولـي إلا أحيـاه اللّه حتـى يـرى ضعـف أنـاه، وقِلـة مـا عنـده، وعجـز قدرتـه! ومـا قـال إنسـان أنـا بـاللّه، ومـع اللّه، وإلـى اللّه إلا أحيـاه اللّه حتـى يـرى أن مـن كان مـع اللّه كان معـه، فعلِّقـوا قلوبكـم بـاللّه.

لو رأيتني وأنا أستمعُ لقراءتك!

كانتْ ليلة ظلماء، لا قمر في كبد السماء يُبدِّد شيئاً من عتمتها، ولم تكُن المُدن قد عرفتْ الإنارة بعد، ولكن قمراً من لحم ودم كان يَسيرُ في طُرقات المدينة، فسمعَ أبا موسى الأشعري يقرأ القرآن في داره، فأُعجبَ بصوته، فوقف يسمع تلاوته. فلما انتهى أبو موسى من التلاوة أكملَ طريقَه...

وفي الصباح لَقِيَه، فقال له: يا أبا موسى لو رأيتني وأنا أستمعُ لقراءتك البارحة، لقد أُوتيتَ مزماراً من مزامير آل داود!

فقال له أبو موسى: يا رسول الله، لو علمتُ بمكانك لحبَّرته لك تحبيراً!

وقفَ يسمعُ القرآن وهو الذي تلقَّاه من جبريل مباشرة، فَحُفِرَ في قلبه كنقشٍ لا يُمحى ولا يزول، ثم في الصباح يُثني على أبي موسى، يُخبره عن عذوبة صوته، وعن أنه أوتيَ مزماراً من مزامير آل داود، داود عليه السلام تحديداً، ذاكَ الذي كان إذا سبَّح سبَّحتْ معه الجبال والطيور بأمر خالقها ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾.

الثناء على قدرات الآخرين من أدب الأنبياء، أما رأيتَ موسى عليه السلام من قبل قد قال: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾.

ونكران مزايا الآخرين، واعتبار الإنسان نفسه فلتة عصره، ووحيد زمانه هو خُلق إبليس، أما رأيتَ أنه قد قال من قبل ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

إذا استمعتَ إلى مُحاضرةٍ وأعجبتكَ وأثَّرتْ فيك فمن النُبل لو أثنيتَ على المُحاضر، فالناس مهما بلغوا من التفوق والنجاح يُسعدهم أن يسمعوا كلام الثناء!

إذا رأيتَ موظفاً عندك قد عملَ عملاً ناجحاً فأثنِ عليه، من العيبِ أن لا نرى إلا الأخطاء، فنكون كالذباب الذي لا يقعُ إلا على قذارة، وما أجمل أن نكون كالنحل لا يقفُ إلا على الزَّهر!

إذا دُعيتَ إلى مأدُبة، ورأيتَ كل شيءٍ مُرتباً، ووجدتَ الطعام شهياً، فاشكُرْ صاحب البيت على حُسن ضيافته، وأخبره أن يشكر زوجته نيابةً عنكَ، فهي الجندي المجهول الذي لم تره ولكنك رأيتَ حُسن صنيعه!

وأنبل من هذا كله أن تُثني على الذين يملكون مهارة من جنس مهارتك ونبوغك، فلو كنتَ كاتباً وقرأتَ كتاباً لغيرك أثنِ عليه!

وإذا كنتَ موظفاً ناجحاً، ورأيتَ زميلاً لك قد أبدع في فكرةٍ أثنِ عليه، وشجِّعه، إن الأمم إنما تنهضُ بالتلاحم لا بالتناحر، ودع عنكَ أخلاق الضرائر التي تُريد كل واحدة منهنَّ أن تحظى بقلب زوجها، كُن شريكاً وداعماً ولا تكن ضُرَّة!

إذا زرتِ جارةً لكِ وأعجبكِ ترتيبُ بيتها فامدحي في ترتيبها، وإذا أهدتْ إليكِ جارةٌ طبقاً من طعام ووجدتِه لذيذاً فأخبريها أنها طاهية ماهرة، جميعنا نحتاج أن نسمع كلام الثناء على الأشياء الجيدة التي نفعلها!

وقمة النُبل أن نُثني على مزايا الأخرين في غيابهم، لماذا علينا دوماً أن ننتف ريش الغائبين، ونتحدث عن سلبياتهم، للناس مزايا أيضاً فلنتحدَّثْ عنها، وعندما تحدَّثَ موسى عليه السلام عن

مزايا أخيه إنما تحدَّثَ بها مع اللّٰه وهو أعلم بهارون عليه السلام من موسى، فكيف بكَ إذ تتحدَّث عن صفات جميلة لشخص عند شخص لا يعرفه!

إنكَ امرؤٌ فيكَ جاهلية!

اختلفَ بلال بن رباح وأبو ذرٍّ حول أمرٍ من أمور الدنيا، فغضب أبو ذرٍّ من بلال، وقال له: يا ابنَ السوداء! فجاء بلال إلى النبيِّ ﷺ وأخبره بما حدث بينه وبين صاحبه، فاستدعى النبيُّ ﷺ أبا ذرٍّ على جناح السُّرعة، وقال له: يا أبا ذر أعيَّرْتَه بأمه؟! إنكَ امرؤٌ فيكَ جاهلية!

والمعنى أن تعيير الناس بأحسابهم وأنسابهم من أخلاق الجاهلية التي كانتْ مُتفشِّية في العرب، وبهذا المعنى تُقسم الجاهلية إلى قسمين:

قسم زماني انتهى بمجيء الإسلام.

قسم سلوكي باقٍ في الناس حتى يرِث الله الأرض ومن عليها! والإنسان يكون على قرب من الجاهليين بمقدار ما فيه من أخلاقهم!

السبب في أنَّ الناس أبيض وأسود وأحمر وأسمر وأصفر هو أصل الخلقة في أبينا آدم عليه السلام، فالله تعالى قد خلقه من قبضة تراب قبضها من شتى أنحاء الأرض، فجاء أبناؤه كَلَوْنِ تراب الأرض، مختلفٌ ألوانها، والذي يعتقد أنه أرقى من الآخرين لمجرد أن لون بشرته مختلف هو إنسان متخلِّفٌ من ناحية علمية، وفيه جاهلية من ناحية دينية!

الذي يعملُ في مهنةٍ شريفة ليس بالضرورة شريفاً، والذي يعملُ في مهنة وضيعة ليس بالضرورة وضيعاً، بعض الأطباء لا

يستحقون أن يكونوا بشراً أساساً، وبعضهم كأنهم ملائكة في صورة بشرية! وبعض أصحاب المهن كذابون غشاشون، وبعضهم عنده من الأخلاق والأمانة والصدق والوفاء أكثر مما عند أهل الطبقات المُخملية، وتصنيف الناس بحسب مِهنهم ورواتبهم عقلية جاهلية!

حُبُّ الوطن شيء، والدفاع عن الأخطاء التي ترتكبها حكومة الوطن شيء آخر، الأول فطرة وإيمان، وقد كانتْ مكة أحب بقاع الأرض إلى النبي ﷺ، وقال يوم غادرها والحزن يعتصره: واللّهِ إنكِ لأحب البلاد إليَّ ولولا أنَّ قومكِ أخرجوني ما خرجتُ! أما الثانية فجاهلية عمياء، ودفاع عن الباطل، وقد قال الشاعر قُريط بن أُنيف يصفُ حالة التحزُّب الأعمى للقبيلة:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم

في النائبات على ما قال برهاناً!

نعم نحبُّ أهالينا، ونُساعدهم وننصرهم، ولكن عندما يكونون على حق، ولكن التحزُّب للقريب والصديق وهو ظالم، فهذا من أخلاق الجاهلية، وإن الإسلام جاء ليُعلِّمنا أن الحقَّ هو الذي يُنصر بغض النظر عن صاحبه، والباطل هو الذي يُعادى بغض النظر عن صاحبه، وقد أبدَلَنا اللّه خيراً من الجاهلية، هذا الدين الحنيف السمح، والعيب أن نُسلم ونتخلَّق بأخلاق الجاهلية!

حتّى تلقوني على الحوض!

ولَّى النبيُّ ﷺ رجلاً على بعض أمور المُسلمين، فقامَ رجلٌ من الأنصار فقال: يا رسول الله، ألا تستعملني كما استعملتَ فُلاناً.

فقال له النبيُّ ﷺ: إنكم ستلقون بعدي أثرةً، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض!

ومن لطيف ما قرأتُ، سارَ بشرُ الحافي في طريقٍ ومعه رجلٌ، فعطِشَ هذا الرجل، فقال لبشرٍ: دعنا نشربُ من هذا البئر!

فقال له بشر: اِصبرْ حتى نصل إلى البئر الأخرى، فلما وصلا إليها، قال له مجدداً: اِصبرْ إلى البئر الأخرى، فما زال يُعلِّله ويُصبِّره حتى وصلا إلى حيث يُريدان، فقال له بشر: هكذا تنقطع الدنيا، بالصبر!

أما بيت القصيد فهو: اصبروا حتى تلقوني على الحوض!

ولعلَّ هذا أبلغ ما قيل في التَّثبيت في تاريخ البشرية، وما أحلاه من تصبير، وما أغلاه من تثبيت، فضعْها دوماً نُصب عينيك، تأمَّلْها كلما لاحتْ لك معصية، وتذكَّرْ أن الدنيا إنما تنقطع بالصبر، والأيام كلها ستنجلي بحلوها ومرها، ولا يبقى فيها إلا أجر الطاعة أو إثم المعصية!

إذا ضاقتِ الحال الاقتصادية بك، وارتشى الناس من حولك، فاقبضْ أنتَ على جمرِ دينك، وتخيَّل النبيَّ ﷺ يقول لكَ: اصبرْ حتى تلقاني على الحوض!

إذا نـزلَ بـكَ مـرضٌ عُضـالٌ، تذكَّـرْ أن أنَّـاتِ المريـض مـع الرضـا بقـدرِ اللّٰه تعـدل تسـبيح الذاكريـن، وأنهـا مُجـرد أيـام سـتمضـي، وتخيَّـل النبـيَّ ﷺ يقـول لـك: اصبـرْ حتـى تلقانـي علـى الحـوض!

إذا خُلِـعَ الحجـابُ مـن حولـكِ، وكثُـرَ التبـرجُ طمعـاً فـي العريـس تـارةً، وإظهـار الجمـال تـارةً أخـرى، فـلا تفقـدي إيمانك، العريسُ رزقٌ، وكل إنسـان سـيأخذُ رزقـه رغمـاً عـن هـذا العالـم، فتمسَّـكي بحجابـك، وتزيَّنـي بعفتـكِ، وتخيَّلـي النبـيَّ ﷺ يقـول لـكِ: اصبـري حتـى تلقينـي علـى الحـوض!

إذا ظلمكـم الأقربـون، وهجركـم المُحبـون، وقيـل فيكـم مـا ليـس فيكـم، فتذكَّـروا أن النـاس قـد قالـوا عـن النبـيِّ ﷺ: كـذاب، وسـاحر، ومجنـون!

فـأيـن نحـن منـه كـي نسـلمَ مـن النـاس، عـزوا أنفسـكم أنكـم المظلومـون لا الظالمـون، والمُفتـرَى عليهـم لا المُفتـرون، وكلَّمـا ضاقـتْ، تخيَّلـوا النبـيَّ ﷺ يقـول لكـم: اصبـروا حتـى تلقونـي علـى الحـوض!

جمرة من نار!

رأى النبيُّ ﷺ خاتماً من ذهبٍ في يدِ رجُلٍ من الأنصار، فنزعَه من يده، ثم طرحه أرضاً وقال: «يعمدُ أحدكم إلى جمرةٍ من نارٍ فيجعلها في يده»!

فقِيل للرجلِ بعد أن مضى النبيُّ ﷺ: خُذْ خاتمكَ انتَفِعْ به!

فقال: لا واللّهِ لا آخذه أبداً وقد طرحه النبيُّ ﷺ!

درسٌ عظيمٌ من دروسِ الدعوةِ إلى اللّه تعالى، يُقابله درسٌ عظيمٌ في الاتِّباع!

قارِنوا بين موقف النبيّ ﷺ مع الأعرابي الذي جاء من الباديةِ وبَالَ في المسجد، فنهرَه الصحابة، فأمرَهم النبيُّ ﷺ أن يترفَّقوا به، ولا يرفعوا أصواتهم في وجهه، وبين موقفه من الأنصاري الذي اتَّخذ خاتماً من ذهب!

إنَّ الفارق بين التصرُّفين ليس بسبب التفاوتِ بين الفعلين، ولا يُستنتج من الموقفين أنَّ التبوُّلَ في المسجد أمرٌ يسير، وأنَّ خاتمَ الذهب للرجال كبيرةٌ من الكبائر، وإن كان مُحرَّماً بلا خلاف! وإنما الفارق بسبب الشخص الذي ارتكبَ المُخالفة، فالأول أعرابيٌّ جاهلٌ، جاء من البادية لا يعلم من هذا الدين شيئاً، وتصرَّفَ بسبب عادته ومألوفه، أما الثاني فمن أهلِ المدينة، ومن

الصحابة، وقد عَلِمَ النبيُّ ﷺ أن الرِّفق بالأعرابي لحداثةِ إسلامِهِ أصلحُ لحالِه، وأن الحزمَ مع الأنصاري لنيله شرف الصحبة، ومُعايشةِ أهل الإيمان أصلحُ لحالِه!

صحيح أن الرفقَ مطلوب مع الجميع، وقد كان عليه السَّلام رفيقاً بأصحابه، ولكنها حادثة مُفردة، أراد فيها أن يُعلِّمنا أن العتب على قدر المحبة، واللوم على قدر الإيمان والسَّابقة، وأن الناس لا يُعالجون بدواء واحد!

هذا درس الدعوة، أما درس الاتِّباع فهو امتناع الأنصاري عن أخذِ الخاتم وبيعه بعد أن طرحه النبيُّ ﷺ من يده، مع أن الحُرمة في لبس الخاتم وليس في بيعه، ولكنه كره لعظيم إيمانه أن يلتقطَ خاتمه وقد رماه النبيُّ ﷺ.

يا لحُلو الاتباع، وجمال الانصياع والتسليم لأمر النُّبُوَّة!

لقد كرهَ أن يأخذَ خاتماً ألقاه النبيُّ ﷺ مع أن أخذه حلال كما تقدَّم، فهل كرهنا نحن ما ألقاه النبيُّ ﷺ من أخلاق وتصرفات وهي حرام!

لقد طرحَ الرِّبا أرضاً وهو حرام فهل تركناه، وقلنا سمعاً وطاعة فإن الحلال يُشبع وإن قلَّ، وإن الحرام لا يكفي وإن كثُر!

لقد طرحَ قطعَ الرَّحم، فهل وصلْنَا أرحامنا، وتغاضينا مرةً وتجاهلنا مرةً كي يستمر الود، لأن هذا خُلق الأنبياء وقد «أسرَّها يوسف في نفسه ولم يُبدها لهم»!

لقد طرحَ عقوق الآباء والأمهات، فهل بَرَرْناهم، وتذكَّرنا أن الوالد أوسط أبواب الجنة، وأن أحق الناس بحُسن الصحبة الأم، وقد قِيل للحسن البصري: أيختصم المرءُ مع أبويه؟ فقال: ولا مع أحذيتهما!

لقد طرحَ الإساءة إلى الجار، فهل كُنَّا خير جيرانٍ لجيراننا وتذكَّرنا أنَّ جبريل عليه السلام ما زال يُوصي النبيَّ ﷺ بالجار حتى ظنَّ أنه سيُورِّثه!

ما سُمِيَ الإسلام إسلاماً إلا لأنه مشتقٌّ من الاستسلام لأمر الله وأمر رسوله، فهل قُلنا سمعنا وأطعنا؟!

وأنتَ صحيحٌ شحيحٌ!

جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، أيُّ الصَّدقة أعظمُ أجراً؟

فقال له: أن تتصدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شحيحٌ، تخشى الفقرَ وتأملُ الغنى، ولا تُمْهِلْ حتى إذا بلغت الحُلقوم، قُلتَ: لفُلانٍ كذا، ولفُلانٍ كذا، وقد كان لفُلان!

اِشبعوا من العباداتِ وأنتم في كاملِ الصحةِ والعافيةِ قبل أن يُحالَ بينكم وبينها!

تلذَّذوا بالسجود وأنتم أقوياء، ضعوا جِباهكم الشابة على الأرضِ له، قبل أن يجلسَ أحدُكم على كرسيٍّ ولا يستطيع من السجود أكثر من أن يحني رأسه إلى الأمام قليلاً! صحيح أن السُّجودين يقبلهما الله، ولعلَّ ساجداً على كُرسيه، قد سجدَ قلبه وكل عضو فيه، ولكنَّ العبادة في حال القوة أحب إلى الله، فالمرض يكسرُ الإنسان، ويُقرِّبه إلى الله بالفطرة، أما القوي الذي يختار أن يسجد فكأنه جاء يقول لربه: سجدَ لكَ هذا الرأسُ على ما فيه من مشاغل، وخشعَ لك هذا القلبُ على ما فيه من أهواء!

تلذَّذوا بالحج وأنتم أقوياء، طُوفوا على أقدامكم، واسعوا بين الصفا والمروة، وأسرِعوا الخُطى حيث أسرعتْ أُمُّنا هاجر خُطاها، وارجموا بأيديكم، قبل أن يجلسَ أحدكم على كرسي مُدولب يُطاف به حول الكعبة، ويُسعى به بين الصفا والمروة، ويُوكِّل فلاناً وفلاناً ليرجُم مكانه!

صحيـحٌ أن اللّهَ يقبـلُ العبـادةَ مـن العبـد علـى حسـب قُدرتـه، وربمـا طائـفٌ علـى كرسـي وكل أعضائـه تطـوف حُبـاً وخشـيةً، ولكـن لـذة العبـادة عـن قـوة، وأن يُؤَدِّيهـا المـرءُ بنفسـه لا يعدِلُهـا شـيء!

اِشـبعوا مـن الصِّيـام وأنتـم أقويـاء، قبـل أن يُباغتَكُـم العُمَـر والضغـط والسـكري وقرحـة المعـدة فتدفعـون الكفَّـارات وتتمنَّـون أن يرجـعَ بكـم العُمـر لتصومـوا حتـى النوافـل! صحيـحٌ أن اللّه يقبـل مـن المُسـلم الكفـارة رحمـة منـه، ولكـن أن يُحـال بيـن العبـد والطاعـة دون أن يشـبعَ منهـا فـي شـبابه وقوتـه شـعورٌ مُوجـعٌ جـداً، مُخطـئٌ مـن يعتقـد أن المُسـنَّ الثـريَّ ارتـاح واسـتراح والكفـارة لا تُكلِّفـه شـيئاً، واللّهِ إن فـي قلـوب المُسـلمين المرضـى الذيـن حُرمـوا الصـوم حرقـة!

تلذَّذوا بالصَّدقـة وأنتـم أقويـاء، ألـف راتـب لـو شـئت أن تُنفقـه لمـا كفـاك، مُتطلبـات الحيـاة كثيـرة، وكمالياتهـا أكثـر، وكل شـيء يذهـب وتبقـى الصَّدقـة، عـوِّد نفسـك أن تقتطـعَ مـن راتبـك ولـو شـيئاً يسـيراً، وسـمِّه مـال الصدقـة كمـا تقتطـع مـن راتبـك وتُسـميه مـال الكهربـاء، ومـال فاتـورة الهاتـف، ومـال البقالـة!

لا تكـن جامـع مـالٍ، يأخُـذه الورثـة بعـدكَ وتُحاسـب عليـه وحـدكَ! لا تنتظـر لحظـة العجـز والنـوم علـى فـراش آخـر العمـر، حيـث لـم يعـد المـال يلزمـك كثيـراً ثـم تقـول أعطـوا فُلانـاً وفُلانـاً، صحيـحٌ أن اللّه يقبـل الصَّدقـة علـى أيِّ حـال ولكـن شـتَّان بيـن مـن يتصـدَّق رغـم أنـه يحتـاج هـذا المـال لشـيءٍ مـن الكماليـات وبيـن مـن وصـل إلـى آخـر العمـر ثـم اسـتفاقَ علـى نفسـه!

فقالوا: مُراءٍ!

لمَّـا نزلـتْ آيـة الصَّدقـة، اجتهـدَ الصحابـةُ فـي الإنفـاق، فجـاءَ رجـلٌ فتصـدَّقَ بشـيءٍ كثيـر.

فقال بعض الناس: هذا مُراءٍ!

وجاءَ رجلٌ آخر فتصدَّقَ بصاع.

فقال بعض الناس: إنَّ الله غنيٌّ عن صاعِ هذا!

فنـزلَ قـولُ اللهِ تعالـى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾!

يبـدو أنَّ بعض الأشـياء لا تتغيَّـر على ظهـرِ هـذا الكوكب، فـي كلِّ مجتمـع سـنجدُ فئـةً لا عمـل لهـا إلا التَّنظيـر الفـارغ، والدُّخـول فـي نوايا النَّـاس، عيَّنـوا أنفسَـهم قُضـاةً علـى خلـق الله، وجلسـوا يُصـدرون الأحـكام، ويُوزِّعـون النـاس علـى الجَنـة والنـار، وهـؤلاء لـو أردتَ أن تنتقدَهـم فإنـك تحتـار مـن أيـن تبـدأ!

الشـابُّ الـذي يرتـادُ المسـاجد عندهـم مُعقَّـد، والـذي لا يذهـب إلـى المسـاجد مُنحـلّ!

الفتـاةُ التـي تلتـزمُ الحجـاب الشـرعي عندهـم جاهلـة بالموضـة و«دافنـة نفسـها»، والفتـاة التـي لا تتحجَّـب عندهـم لا تعـرف الله!

الـذي يُقيـم موائـد الإفطـار عندهـم شـخصٌ يُحـبُّ الظهـور، والـذي لا يُقيمهـا بخيـل!

الـذي يقضـي وقتـاً طويـلاً فـي بيتِـه مـع عائلتِـه عندهـم مُنطـوٍ وغيـر اجتماعـي، والـذي يخـرجُ كثيـراً مُهمـلٌ لبيتـه!

التـي تصنـعُ الحلويات في منزلها عندهم بخيلة، والتي تشتري الحلويات من المحلات عندهم مُبذرة!

هكذا هم يبحثون في كل فضيلةٍ عن رذيلة هي في أنفسهم!

إذا استمعَ الشابُ لكلامِ أبويه قالوا ضعيف الشخصية!

إذا التزمتْ الفتاةُ بيتها قالوا «دقة قديمة»!

إذا عملَ أحدٌ بوظيفتين ليكفي نفسه ويستغني عن أمثالهم قالوا: أكلتْهُ الدنيا!

إذا بكى إمام في الصلاة قالوا: مُمثلٌ بارع!

أمثال هؤلاء على الإنسان أن يهربَ منهم ومن مجالسِهم كما يهربُ من الطاعونِ والجرَبِ والجُذامِ، لأن حالهم كحالِ جحا وابنه مع الناس، والقصة كما يلي:

ركبَ جحا وابنه حماراً لهما، فقالوا: يا للحمار المسكين يركبه اثنان!

أنزلَ جحا ابنه وبقيَ هو راكباً، فقالوا: يا للأب القاسي، يركبُ ويتركُ ابنه يمشي!

نزل جحا وأركبَ ابنه، فقالوا: يا للولد العاق يركبُ ويتركُ أباه يمشي!

فقررا أخيراً أن يمشيا ويجرا الحمار، فقالوا: مجنونان، معهما حمار ويمشيان!

فإنَّ لهم ذِمَّةً ورَحِماً!

لو رأيْتَهُ يوم حاصرَ الأحزابُ المدينةَ، وضاقتْ على المُسلمين هذه الأرض بما رحُبتْ، وصاروا بين فكَّيّ كماشة: أعداءُ الخارجِ الذين توحَّدوا ضدهم، وعدوٌّ الداخلِ الذي ينقُضُ عهدَه في كل مرةٍ! كيف كان يُبشِّر أصحابه بفتحِ بلاد فارس والروم، لقُلْتَ أية ثقةٍ باللهِ يملكُها هذا النبي صلوات ربي عليه، ثم انهزمَ الأحزاب، ودارَ الزمان، وفُتِحَتْ بلاد فارس والروم، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾.

وعن الفتوحِ التي لن يشهدَها، قال لأصحابه: «إنكم ستفتحون مصرَ، وهي أرضٌ يُسمَّى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسِنوا إلى أهلها، فإنَّ لهم ذِمَّةً ورَحِماً، وفي روايةٍ أخرى ذِمَّةً وصِهراً!

وأما الذِمَّةُ فهي الحُرمةُ والحقُ، وأما الرَّحِمُ الذي قصدَه فَلِكَوْنِ هاجر أُم إسماعيل عليه السَّلام من مِصر، وأما الصِّهر فَلِكَوْنِ زوجته مارية من هناك!

وانْظُرْ لهذه العقيدة التي يُرسيها، إنه يجعل المؤمنين من عهدِ آدم عليه السلام حتى قيام السَّاعة عائلة واحدة! لأجل هاجر يُسمِّي بلداً كاملاً رحماً ويأمرُ بِصِلَتِهِ، ولأجل مارية يجعلُ ملايين الناس أَصهارًا ويأمرُ بإكرامِهم! ولأجلِ عينٍ ألفُ عينٍ تكرمُ!

ثم يأتيك من يقول: الإسلامُ امتهنَ المرأةَ وسلبَها حقوقها! وهل على الأرض دين يُكرّمُ بلداً كاملاً لأجل امرأة واحدة! ولكن

صحَّ قولُ القائل: من لا يرى من الغِربال فهو أعمى!

فإن كان قد أوصى أن يُكرَمَ أهل بلدٍ لأجلِ أنَّ زوجته منه، فهل أكرمْنا نحن أهالي زوجاتنا فقط اقتداءً بسُنته، وعملاً بوفائه وحُسن أخلاقه!

الحماةُ أمٌّ ثانيةٌ، والحما أبٌ ثانٍ، وإكرامُهما وبِرُّهما خُلُقٌ رفيع، والإحسانُ إليهما من حُسن العهدِ، وحُسنُ العهد من الإيمانِ كما قالَ سيدُنا!

أما عن الزوجة، فانظُرْ لقيمتِها من خلال هذه الحادثة:

حجَّ النبيُّ ﷺ فقصرَ الصلاةَ في مِنى، ثم حجَّ أبو بكرٍ فقصرَ الصلاةَ أيضاً، ثم حجَّ عُمر فقصرَ الصلاةَ كذلك، ولما حجَّ عُثمان بالناسِ أتمَّ الصلاة، فلمَّا سُئِل عن ذلك قال: يا أيُّها الناس لما قدمتُ تأهلتُ بها، وإني سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إذا تأهَّلَ الرجل ببلدةٍ فإنه يُصلي بها صلاة المقيم»!

وعلَّق الشنقيطي في أضواءِ البيان على هذا الحديث قائلاً: إذا تزوَّج المُسافرُ ببلدٍ، أو مرَّ على بلدٍ فيه زوجته أتمَّ صلاتَه، لأن الزوجة في حُكم الوطن! وهذا مذهب مالكٍ، وأبي حنيفة، وأحمد، وبه قال ابن عباس!

هل يوجد دين على الأرض غير الإسلام تُعدُّ الزوجةُ فيه وطن!

وإنما لكل امرئٍ ما نوى!

خطبَ رجلٌ من قريشٍ امرأةً من مكة يُقال لها أم قيس كانت قد أسلمتْ وهاجرتْ، فوافقتْ على الخطبة واشترطتْ عليه أن يُهاجرَ إلى المدينة، فهاجرَ إليها لا يُريدُ إلا أم قيس، فكان أهل المدينة يُلقبونه بمُهاجر أم قيس!

وهذه القصة هي سبب حديث النبيِّ ﷺ الشهير: «إنَّما الأعمالُ بالنياتِ وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى، فمن كانتْ هجرتُهُ إلى اللّهِ ورسولِهِ فهجرتُهُ إلى اللّهِ ورسولِهِ، ومن كانتْ هجرتُهُ لدُنيا يُصيبُها أو امرأةٍ ينكِحُها فهجرتُهُ إلى ما هاجَرَ إليه»!

لتكون العبادة مقبولة عند اللّه فلا بُدَّ أن يتحققَ فيها شرطان، فإن غابَ أحدهما صارتْ عبادةً باطلة، وهما: إخلاصُ النيةِ للّه تعالى ومُوافقةُ العبادةِ للشَّرع. بمعنى من صلَّى الظُهر خمس ركعات وهو في نيته ينوي أن يتقرَّبَ إلى اللّه لم تُقبلْ صلاته فرغم صلاح النية إلا أن الصلاةَ هذه بركعاتها الخمس مُخالِفةٌ للشريعة! ومن تصدَّقَ على إنسان يُريدُ أن يُرِيَ الناس أنه مُتصدق لم تُقبل صدقته، فهذا وإن وافق عمله ضوابط الشريعة إلا أن نيته ليستْ خالصة، وعليه قِسْ كل العبادات والأعمال!

وهنا بيت القصيد: لكل امرئٍ ما نوى!

حتى الملائكة لا تعلم النوايا، وحده اللّه سبحانه يرانا من الداخل، وحده يعلمُ الغايةَ من وراء الفعل، ونحن لم نُؤْمرْ بأكثر

مـن أن نحكمَ علـى النـاسِ بالظاهـرِ ونتـركَ السـرائرَ لـربِّ السـرائرِ!

يذهـبُ اثنـان إلـى المسـجد للصـلاة، أحدهمـا يُريـدُ وجـه اللّٰه، والآخـر يُريدُ أن يـراه الرَّجل الـذي ينـوي بعد أيام أن يخطـبَ ابنتـه، ولـكلِّ امـرئٍ مـا نـوى!

يذهـبُ اثنـان إلـى زيـارة مريـض، أحدهمـا يُريـدُ وجـه اللّٰه، لا مصلحـة لـه ولا غايـة، والآخـر يُريـدُ ثمـن هـذه الزيـارة، واسـطة إن كان مُتنفِّـذاً، وصدقـة إن كان غنيـاً، ولـكلِّ امـرئٍ مـا نـوى!

يدعـو اثنـان أقاربهمـا علـى مائـدةِ طعـام، أحدهمـا يُريـدُ صلـةَ الرَّحـم، وتأليـفَ القلـوب، وجمـعَ العائلـة، والآخـر يُريـدُ أن يتفاخـرَ ببيتـه ومالـه، اشـتركا فـي الفعل واختلفـا فـي النيـة، ولـكل امـرئٍ مـا نـوى!

ومـن قبـل هـذا بـآلاف السـنوات، أرادتْ زُليخـة يُوسـف عليـه السـلام لنفسـها، فاسـتعصمَ، ثـم فـرَّ يجـري نحـو البـاب ليهـربَ بعفتـه ودينـه، وقامتْ هـي تجـري وراءه تُريدُ أن تُرجعَـه إليهـا، لقـد «اسـتبقا البـاب» كلٌّ يجـري إليـه، ولكـن لـكل واحـد منهـم نيتـه، أحدهمـا يهـربُ مـن المعصيـة، والآخـر يركضُ إليهـا.

فتذكر دوماً، النوايا مناطُ الأعمالِ، ولكل امرئٍ ما نوى!

اِرمِ فداكَ أبي وأمي!

كان سعد بن أبي وقاص من أرمى الصحابةِ بالقوسِ، ولمّا كان يوم غزوة أُحُد، رأى النبيُّ ﷺ رجلاً من المُشركين قد أثخنَ بالمُسلمين، وقتلَ منهم، فتناولَ النبيُّ ﷺ سهماً من كِنانته، وأعطاه لسعدٍ وقال له: اِرم فداكَ أبي وأمي!

فأخذ سعدٌ السَّهم، ووضعه في قوسه، ورمى به الرَّجُلَ المشركَ، فأصابه قُربَ قلبه فسقطَ ميتاً، فجعلَ النبيُّ ﷺ يضحكُ حتى بدتْ نواجذه!

يُعلمنا النبيُّ ﷺ أن نأخذَ بالأسباب، فيوم أُحُدٍ لبسَ درعين لا درعاً واحداً، رغم أنه أكثر أهل الأرض يقيناً أن هذه الدروع لن تحميه من الموت لو أنَّ اللّه سُبحانه قدَّر له أن يموتَ يومها، ولكنه كان يأخذ بالأسباب كأنها كل شيء، ويعتمدُ على اللّه كأن الأسباب لا شيء!

وٱنظُرْ إليه كيف يأخذُ سهماً من كنانته ويُعطيه سعداً، لم يجلسْ يومها في خيمته، بل كان في قلبِ المعركة، وهذه رسالةٌ عظيمةٌ لكل قائدٍ في مجاله:

للمُديرِ في شركته أن اِنزلْ إلى الأرض، وتابعْ أمورك بنفسك عن قُرب!

للوزير أن لا تعرف عن الناس ما يصلك من تقاريرِ معاونيكَ فقط، شاهِدْ كيف تجري الأُمور بنفسك، التقِ مع الناس واسمعْ منهم!

للآباء أن ينزلوا من أبراجهم العاجية قليلاً، ساعِدْ زوجتك في المطبخ، حُلَّ لولدٍ فرضاً، اروِ لبنتٍ قصةً، علِّمْ طفلاً سورةً من القرآن، الأبُ ليس جامعَ مالٍ فقط، وما يحتاجه الأولاد أكثر من مسكنٍ ورغيفٍ، ثمة فرق شاسع بين التربيةِ والإعالةِ!

درسٌ نبويٌّ آخر، لقد أعطى السَّهم لسعدٍ لِمَا يعرفه عنه من مهارةٍ في الرَّمي، حتى في خِضَمِّ المعركةِ كان النبيُّ ﷺ يضعُ الرجل المناسب في المكان المناسب، السَّهمُ لأفضل رام، وقيادةُ الجُند لحمزة أفضل من يعرفُ شؤون الحرب من الصَّحابة، هذه الأُمَّة لن تستعيدَ مجدَها حتى تضع الرجل المناسب في المكان المناسب!

التشجيعُ والتحفيزُ يُخرجُ أفضل ما في الناس، تماماً كما أن الانتقاد الفارغ واللوم الدائم يُصيبهم بالإحباط، ويقتلُ فيهم مهاراتِهم ومبادراتِهم للإبداع!

اِرم فداك أبي وأمي! كلمةٌ تقولها العربُ للتحبُّبِ والتشجيعِ والتقرُّبِ، ورغم أن الوقت وقت حرب، والمعركة على أشُدِّها، لم ينسَ النبيُّ ﷺ أن يشجِّعَ أصحابه، فلِينُوا، وشجِّعوا، وحفِّزوا، يُعطيكم الآخرون أقصى قدراتهم!

فأين دِرْعُكَ؟

غالى النَّاسُ في المُهور في خلافة عُمر بن الخطاب، فأرادَ أن يضعَ حداً للأمر، فصَعِدَ المنبر، ثم خطبَ الناس، وأخبرهم أنه يُريدُ تحديد المُهور، فقامتْ الشفاء بنت عبد اللّه وقالتْ له: لا يحِلُّ لكَ يا أمير المؤمنين، فإن اللّه قال: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾

فكيف تُريدُ أن تُحدِّدَه أنتَ؟!

فقال عُمر: أصابتْ امرأةٌ وأخطأ عُمر!

الشَّاهدُ في الحديث أنَّ المهر مهما كان مُرتفعاً فهو ليس حراماً، ولكن المُغالاة في المُهور بخلاف السُّنة النبوية الشريفة، وهذا الذي دفعَ عُمر إلى مُحاولة تحديده، لأنه يعلمُ بفطنتِهِ السياسيةِ، وحِنكتِهِ الاجتماعية، أثر المُغالاة في المُهور على زواجِ الشباب، وبالتالي العواقب الوخيمة على الأفراد والأُمَّة بسبب تأخُّر الشباب والبنات في الزواج!

عندما خطبَ عليٌّ بن أبي طالب فاطمة من النبيِّ ﷺ، ووافقَ عليه الصلاة والسَّلام على هذه الخطبة، قال لعلي: أعطِها شيئاً!

فقال علي: ما عندي من شيء!

فقال له النبيُّ ﷺ: فأينَ درعكَ؟

قال: هي عندي!

فقال له: فأعطِها إياه!

هذا هو مهر بنتِ النبيِّ ﷺ، وسيدةِ نساء أهل الجنة، دِرع!

وما يفعله الناسُ اليوم من المُغالاة في المُهور، وتكليفِ الخاطب فوق ما يُطيقُ ليس من سُنّة النبيِّ ﷺ في شيء، ويعتقِدُ الأهلُ خطأً أن رفع المهر هو رفعٌ من قيمة البنت، وهو في الحقيقة فوقَ أنه بخلاف هدي النُّبُوَّة، فهو تسليع للبنات ونوع من التجارة بهنَّ!

وعندما زفَّ النبيُّ ﷺ فاطمة إلى علي، بعثَ معها ثوباً، ووسادةً من جلد محشوة باللّيف، ورحى لتطحن حبوبها، وقربةً لتستقي بها الماء، وجرَّتين واحدة للماء وواحدة للخل!

وٱنظُرْ لفعلِ النبيِّ ﷺ في زواجِ ابنته، فهو لم يُيَسِّرْ المهر على عليٍّ فحسب حين الخطبة، وإنما شاركَ في جِهازها لما يعلمُ من فقر صِهره!

لهذا فإنَّ مساهمة الأهل في جهاز ابنتهم اتِّباعٌ للسُّنة المُطهرة، وإرساءٌ لمبدأ التكافل والتراحم بين الناس، وهو من المعروف الذي يُثمر عند الصهر إذا كان أصيلاً، وكم من الأزواج صبروا على زوجاتهم كَرمى لعين أهاليهنَّ لما رأوا فيهم من حُسن الخُلق وتيسير أمر الزواج، فالخاطب هو في أغلب الأحوال شابٌّ في مُقتبل العمر، حديثُ عهدٍ بوظيفة، همّه مساعدة أهلهِ، وهمّه تأمين أمور زواجه، فإن كان الأهلُ في حالةٍ ميسورةٍ فالسُّنة المُساهمة، وإن لم يُساهموا فعلى الأقل أن لا يتطلَّبوا!

فإني أتكشَّفُ!

قال عبد الله بن عباسٍ لتلميذه عطاء بن أبي رباح: ألا أُريكَ امرأةً من أهل الجَنَّة؟!

فقال: بلى!

قال: هذه المرأة أتَتِ النبيَّ ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني أُصرَعُ، وإني أتكشَّفُ، فادعُ الله لي!

فقال النبيُّ ﷺ: إن شئتِ صبرتِ ولكِ الجَنَّة، وإن شئتِ دعوتُ الله أن يُعافيك!

فقالتْ: بل أصبر، ولكني أتكشَّفُ! فادعُ اللهَ ليَ أن لا أتكشَّف!

فدعا لها.

كانتْ المرأةُ تُعاني من نوبات الصَّرع، فإذا أصابتْهَا النوبة سقطتْ أرضاً، ربما وهي في لحظةِ غيابِ وَعَيّ سقطَ حجابها عن رأسها أو انكشف شيء من عورتها، فجاءتْ إلى طبيبِ القلوبِ والأبدانِ تسأله الدُّعاء، فخيَّرَها بين الشفاء فوراً، وبين أن تصبرَ والعوض الجنة، فاختارتْ الجنَّة على الفور!

وهذه حادثةٌ مخصوصةٌ بهذه المرأة، فليس للمريض أن يقعدَ في بيته ولا يطلب الشفاء عند الأطباء احتساباً للأجر، فالنبيُّ ﷺ تداوى وأمرَ بالتدواي، ولكنه عرضٌ لا يُفوَّتْ، وكانتْ المرأة حاذقة فعلاً، فاختارتْ الحياة الباقية، على الحياةِ الفانيةِ التي سيزول نعيمها أو شقاؤها بالموت!

«ولكني أتكشَّف» هنا مربط الفرس!

لقد هانَ على المرأة نوبات الصَّرع ولكنه لم يَهُنّ عليها أن يسقطَ حجابها عن رأسها أو أن تتكشفَ عورتها، فما بال نساء المسلمين قد زهدنَ بالحجاب فسرَّحنَ شعورهن للناظرين من غير صرع!

وكشفنَ الرقابَ والسواعدَ من غير مسٍّ، ولبسنَ ما تعرفون جميعاً اتباعاً للموضة، لماذا هانتْ المرأة على نفسِها عند هذا الحد؟!

هذا بالنسبة إلى غيرِ المُحجبات، أما عن حجاب التبرُّج فحدِّث ولا حرج!

الحجابُ ليس تغطية للشعر فقط، فأنتِ لستِ طباخة تخافُ أن يسقطَ شيء من شعرها في الطعام، ولستِ طبيبة وضعتْ قبعةً على رأسها في غرفة العمليات كضرورةٍ من ضروراتِ التعقيم، حتى صرنا لا نجد فرقاً بين المُحجبة وغير المُحجبة في اللباس إلا قطعة القماش التي تُغطي بها شعرها!

الحجابُ لباسٌ ساترٌ للجسد لا يَصِف ولا يَشِف وأي شرط يسقطُ فهذا ليس حجاباً، إنها عبادة هوى، تُشبه أن يُصلي المرءُ الظهرَ ثلاث ركعات!

العباداتُ تكون وفق ما جاء به الشرع، أما تغطيةُ الشعرِ برقبةٍ مكشوفةٍ، أو بِنطالٍ ضيقٍ، أو كنزةٍ تُظهر المفاتن أكثر مما تسترها فهذا حجاب موضة وليس حجاب التزام!

أمـا عـن عُطـور بعـض المُحجبـات ومسـاحيق التجميـل فحـدِّث ولا حـرج!

اتقيـنَ اللّه فـي أنفسِـكُنّ، وفـي الشـباب، وفـي هـذا الديـن الـذي تحمِلْنَـه فإنكـنَّ قُـدوات، وتخيّلـنَ لـو أنّ النبـيَّ ﷺ رأى إحداكُـنَّ فـي حجـاب الموضـة هـذا، فمـاذا سـيقول لهـا؟!

ما لكِ يا أم السَّائب؟!

دخلَ النبيُّ ﷺ على أمِّ السَّائب في مرضِها فقال: ما لكِ يا أُمَّ السَّائب تُزفزفين/تتحركين حركةً شديدة؟!

فقالت: الحُمى، لا بارك اللّٰه فيها!

فقال: لا تسُبِّي الحُمى فإنها تُذهِبُ خطايا بني آدم كما يُذهِبُ الكيرُ خبث الحديد!

ودخل النبيُّ ﷺ على أعرابيٍّ يعوده، فقال له: لا بأس، طهور إن شاء اللّٰه.

فقال متعجباً: طهور! كلا بل هيَ حُمَّى تفور، على شيخ كبير، تُزيره القبور.

فقال له: فنِعمَ إذاً!

إنَّ اللّٰه سُبحانه وتعالى من رحمته يبتلي المسلمَ بالمرضِ لأحدِ أسبابٍ ثلاثة:

الأول: أنه يُريدُ أن يُكفِّرَ عنه خطاياه التي عملها حتى يلقاه نقياً مستحقاً برحمته دخول الجنة بلا سابقة حساب ولا عذاب!

الثاني: أنه يراه قد ابتعدَ عنه، فيَبتليه بالمرضِ ليُرقّقَ قلبه ويُعيده إليه، فإن الإنسان إذا مرضَ انكسرَ وآبَ حينها يرفعُ عنه ما هو فيه، وللّٰهِ المثل الأعلى ألا ترى أنَّ الراعي إذا شردتْ إحدى أغنامه عن القطيع رشقها بالحجارة فإذا عادتْ إليه أمسكَ الرَّجم عنها؟!

الثالث: أنَّ الله سُبحانه قد يكون خلقَ لعبدِه المُسلم مرتبةً عاليةً في الجنةِ لا يبلُغها بعمله في الدنيا فيبتليه بالمرض ليرفع درجته ويستحقَّ ما خُلق له!

أحسِنوا الظنَّ باللهِ، وآمنوا إيماناً لا يُخامره شكٌّ أن اللهَ سُبحانه غنيٌّ عن عذابنا، وأنه أرحم بنا من أمهاتنا، فتأدَّبوا في بلائكم، توجَّعوا بالحمد، وزيِّنوا الأنين بالاستغفار وابحثوا في أنفسكم عن أحد الأسباب الثلاثة!

إن كان لكَ ذنوبٌ ولا أحد منا إلا وله فقُلْ يا ربِّ لكَ الحمد إذ تُطهِّرني مما اقترفتُه، فإن بعض الدواء مُرّ!
وإن كنتَ ابتعدتَ بعد قُربٍ، فقل يا رب لكَ الحمدُ، ابتعدتُ عنك فلم تزهدْ بي وتُريدني أن أرجع، ها قد عدتُ!

وإن لم يكُن لك لا هذا ولا ذاك، ورأيتَ المرض أكبر من خطاياك وابتعادك، فقل له لك الحمد ربي، ظنّي بكَ أنكَ قد خلقتني لمرتبةٍ في الجنة لم يبلُغها عملي فأردتَ أن تجبرَ تقصيري لأنالَها!

نافقَ حنظلة!

خرجَ حنظلة بن الربيع من بيته ضَجِراً، فلَقِيَهُ أبو بكر الصديق في الطريق وسأله: كيف أنتَ يا حنظلة؟

فقال: نافقَ حنظلة!

فقال له أبو بكر: سُبحان اللّه، ما تقول؟

قال: نكونُ عند رسول اللّه ﷺ يُذكرنا بالجنة والنار كأننا نراها رأي العين، فإذا خرجنا من عنده عافسْنَا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً!

فقال أبو بكر: فواللّهِ إنَّا لنلقى مثل هذا!

فانطلقا حتى إذا أتيا النبيَّ ﷺ، فقال له حنظلة: نافقَ حنظلة يا رسول اللّه!

فقال له: وما ذاك؟

قال: نكون عندكَ تُذكرنا بالجنة والنار كأننا نراها رأي العين، فإذا خرجْنا من عندك عافسْنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً!

فقال له النبيُّ ﷺ: والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي لصافحتْكُم الملائكة في الطرقات، لكن يا حنظلة ساعة وساعة!

تفقَّدْ قلبكَ، راقبْ دوماً مِقدارَ الإيمان والخشية فيه، تعظيمَه لحُرُماتِ اللّه، رأفتَه ورقتَه على خلق اللّه، انصياعَه للحق، حبه

للدين وأهله، وكراهيتَه للكُفر وأهله، ما خرجَ حنظلة من بيته ضَجِراً إلا لأنه تفقَّدَ قلبَه فلم يجدْهُ ذاك القلب الذي يجدُهُ عند النبيِّ ﷺ! يعزُّ على المُؤمن أن يتراجعَ في الطريق إلى الله، يُؤلمه النوم كل الليل بعد أن كان يقوم منه شيئاً، ويحزُّ في قلبه أن تفوتَه صلاة الفجر في المسجد وقد كان من أهلها، يُزعجه أنه لم يعد سابقاً في الخيراتِ كما كان!

تفقَّدْ قلبَكَ ولا تركنْ إلى ماضيك المشرق في الطاعة، فكم من قدمٍ زلَّتْ بعد رسوخِها، وكم من جبهةٍ فترتْ بعد طول سجود، فإن العبرة بالخواتيم!

ساعةٌ وساعة أي أنّ المُسلم يستحيلُ أن يبقى على وتيرةٍ واحدةٍ من العبادة، ثمّة حياة عليها أن تمضي قدماً، هناك وظيفة وأكل عيش، وهناك زوجة وأولاد، وهناك أقارب وأصدقاء وجيران، وزيارات ومناسبات وهذا شيء طبيعي ومفهوم، هذا هو معنى ساعة وساعة.

وإنها لا تعني أن تكون ساعة لربك وساعة لشيطانك!
ساعةٌ في المسجد وساعةٌ في الملهى الليلي،
وساعةٌ بثوبِ الصلاة وساعةٌ متبرجة متعطرة،
ساعةٌ تتصدَّقُ وساعةٌ تأكل الربا،
ساعةٌ مع صُحبةٍ صالحةٍ وساعةٌ مع صُحبةٍ فاسدةٍ!

ساعةٌ وساعة تعني أن لا تكون في عبادة ولكنك في المُباح لا في الحرام! وحتى المُباح الذي تحتسبه عند الله هو عبادة،

فزيـارةُ القريـبِ بنيـة صلـة الرحـم عبـادة، وتحصيـلُ الـرزقِ بنيـة أكلِ الحـلال، والكفِّ عـن سـؤال النـاس عبـادة، هـذا الديـن العظيـم جعـل اللقمـة التـي يرفعُهـا الرجـلُ إلـى فـمِ امرأتـه صدقـة!

ما شأن ثابت؟

كان ثابتُ بن قيس جهوري الصوت، فلمَّا نزلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ حَسِبَ أنَّه المعنيُّ بالآية شخصياً، فاعتزلَ الناس وجلسَ في بيته، وقال: أنا من أهل النار!

ثم إن النبيَّ ﷺ افتقدَه، فسألَ سعدَ بن معاذٍ عنه، فقال له: يا أبا عمرو، ما شأنُ ثابت؟ أشْتَكى/ هل هو مريض؟

فقال له سعد: إنَّه لجاري، وما علمتُ له بشكوى!

فذهبَ سعدٌ إلى بيتِ ثابتٍ يُخبره بسؤالِ النبيِّ ﷺ عنه، فقال له ثابت: أُنزلتْ هذه الآية، وقد عَلِمْتُم أنِّي أعلاكم صوتاً على رسول اللّه ﷺ فأنا من أهل النار!

فذكرَ سعدٌ ذلك للنبيِّ ﷺ، فقال رسولُ اللّه ﷺ: بل هو من أهل الجنة!

السؤال: كم مرةً قرأنا القرآن وشعرنا أن الآيات تُخاطبنا شخصياً؟!

هل مررْنا بآيةٍ تحثُّ على التوبة فشعرنا أنَّ اللّه سبحانه كأنما يقول: يا فلان تُبّ!

هل مررْنا بآيةٍ تحثُّ على الصدقة والإنفاق فشعرنا أن اللّه سبحانه كأنما يقول: يا فلان تصدَّق!

هل مررْنا بآيةٍ تحثُّ على صِلة الرحم فشعرنا أن اللّه سبحانه كأنما يقول: يا فلان صلْ رحمك!

هل مررْنا بآيةٍ تحثُّ على برِّ الوالدين فشعرنا أن اللّه سبحانه كأنما يقول: يا فلان برَّ والديك!

هذا هو الفرق بيننا وبين الصحابة، كانوا يتعاملون مع الآيات كأنما هي خطابٌ شخصيٌ من اللّه إلى أحدِهم!

وٱنظُرْ إلى خُلُقِ النبيِّ ﷺ،

كيف افتقدَ صاحبه فسأل عنه: ما شأن ثابت؟ لقد ظنَّ أنه انقطع عن مجلسه لمرضٍ نزلَ به!

فهل تفقَّدْنا بعضنا كما كان يفعل مع أصحابه؟!

عندما تغيَّبَ قريبٌ لنا عن مُناسبةٍ اجتماعيةٍ لم يكن من عادتِه أن يتغيَّبَ عنها، هل سألنا عنه، أو طرقنا بابه لنعرف سبب غيابه!

هل غابَ زميل عملٍ فاتصلنا به نسأله ونطمئن عليه!

هناك تصرفات بسيطة تُشعر الناس بالدفء!

وٱنظُرْ لخُلُقِ سعد بن معاذ، عندما سأل النبي ﷺ عن ثابت، ذهبَ مُباشرة إلى بيتِ ثابت يُخبره أنَّ النبي ﷺ يفتقده ويسأل عنه!

مشكلتنا هذه الأيام أنه لو ذكرَ أحدٌ أحداً في غيابه بسوءٍ لوَجَدَ أشخاصاً كُثُراً يحملون هذه الإساءة ويُبلِّغونها إلى المعني بها، ولكن إذا ذكرَ أحدٌ أحداً بخيرٍ ربما لم تجد ذلك الذي يُبلِّغ الخير إلى صاحبه!

إن لم تستطع أن تكون حامل المسك فلا تكُن نافخ الكِير!

فلا جهادَ عليك!

كان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج شديد العرج، وكان له أربعة أولادٍ كالأُسُود شجاعةً وإقداماً شهدوا مع النبيِّ ﷺ بدراً.

فلما كانتْ غزوة أُحُدٍ وأرادوا الخُروج في جيش المسلمين أرادوا حبسه، وقالوا له: إنَّ اللّه عزَّ وجلَّ قد عذركَ.

فأتى النبيَّ ﷺ وقال له: إنَّ بَنِيَّ يُريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، واللّهِ إني لأرجو أن أطأَ بعرجتي هذه في الجَنَّة!

فقال له النبيُّ ﷺ: أما أنتَ فقد عذركَ اللّه، فلا جِهاد عليكَ.

وقال لأولاده: ما عليكم أن لا تمنعوه، لعلَّ اللّه أن يرزقَه الشَّهادة!

فأذِنوا له بالخروج فخرجَ، وفي الطريقِ قال للنبيِّ ﷺ: أرأيتَ إن قاتلتُ في سبيل اللّهِ حتى أُقتل، أمشي برجلي هذه صحيحةً في الجنة؟!

فقال له: نعم!

فقُتِلَ يوم أُحُد، فمرَّ عليه النبيُّ ﷺ وهو بين القتلى وقال له: كأني أنظُرُ إليكَ تمشي برجلكَ هذه صحيحةً في الجَنَّة!

يا لها من بطولةٍ يا عمرو بن الجموح، تخرجُ للجهاد وقد تخلَّفَ كثيرٌ من الأصِحَّاء، يا له من درسٍ بليغٍ مفاده: سِرْ إلى اللّه على أيَّةِ حالٍ كنت! لا تدعْ شيئاً يُكبلك، تحاملْ على نفسك فإنها أيام تمضي والموعد الجنة إن شاء اللّه!

من أكثر ما يُدني الناس من الجَنَّة فعل الخير طلباً لرضا الله ولو لم يفعلوا عُذروا ولم يلُمْهُم أحد!

البطنُ الجائعُ الذي تُطعمه وليس بينك وبينه قُربى ولا رَحِم تبتغي بذلك وجه الله خطوة إلى الجنة!

والخلافُ الزوجيُّ الذي تُنهيه وليس بينك وبين الزوجين قُربى ولا رَحِم تريدُ بهذا الصلح أن تجمعَ الأُسرة، وتحفظَ الأولاد من الضياع تبتغي بذلك وجه الله خطوة إلى الجنة!

الحقُّ الذي تُحاول أن تعيدَه لأصحابه لا ناقة لكَ ولا جملٌ فيه تبتغي بذلك وجه الله هو خطوة إلى الجنة!

الولدُ العاقُّ الذي تُعيدُه إلى بِرِّ أبيه ولا يربطك بالاثنين رَحِم ولا قُربى خطوة إلى الجنة!

المريضُ الذي تسعى في علاجه، والمسكينُ الذي تساعده في الحصولِ على عملٍ، والأرملةُ التي تُغنيها عن سؤالِ الناس، كل هؤلاء خطوات إلى الجنة، وما تُعُبِّدَ الله بشيءٍ أحسن من الإحسان إلى خلقه!

يا أم سلمة: ما شأن الناس؟

رأى النبيُّ ﷺ في منامه أنه يدخل هو وأصحابه مكة ويطوفون بالبيت، فلما أصبحَ أخبرَ الصحابةَ برؤياه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، فرُؤيا الأنبياء حقٌّ، والحنينُ إلى مكة قِبلتهم وموطنهم كان كالحسرةِ في قلوبِهم!

ومضى النبيُّ ﷺ إلى مكة في أربعةِ آلافٍ من أصحابه، وزوجته أم سلمة، ولما كانوا بالحُديبية، جرتْ المُفاوضات الشهيرة بين المُسلمين ووُفود قُريش، إلى أن جاءَ أخيراً سهيل بن عَمرو، وتم عقد صُلح الحُديبية وكان من شروطه أن تكون هناك هُدنة بين الطرفين مُدتها عشر سنوات، وأن يرجعَ المُسلمون عامهم هذا عن مكة ويرجعوا إليها في العام القادم، وأن يردَّ المُسلمون من جاءهم مُسلماً من قُريش وأن لا تردُّ قُريش من جاءها مُرتداً من المسلمين، وأن للعرب الخيار أن تدخلَ في حِلفِ المُسلمين أو في حِلفِ قُريش!

رأى الصحابةُ أن في هذا الصلح إجحافاً كبيراً، وتملَّكتهم غضبة المؤمن الحق حين يغضب لله ورسوله، حتى أن عُمر بن الخطاب قال للنبيِّ ﷺ: ألسنا على حق وعدونا على باطل، فقال له: بلى. فقال عمر: فَلِمَ نُعطي الدنية في ديننا إذاً؟!

ولكن النبي ﷺ المُؤيَّد بالوحي، والمُمتلئ ثقة بالله أن الحُديبية هي أول خطوة في طريق فتح مكة، نادى في الناس قائلاً: يا أيُّها الناس انحروا، واحلقوا!

أي أنَّ اللّه قبل منهم عمرتهم، ولكن الصحابة لِحُبِّهِم للّه، وعزةِ أنفسهم، ما قام منهم أحد، فأعاد النبيُّ ﷺ قوله، فما قامَ منهم أحد، فأعادَ قوله مرةً ثالثةً فما قامَ أحد!

فدخلَ النبيُّ ﷺ على أُم سلمة وقال لها: يا أُم سلمة ما شأن الناس؟!

فقالت له: يا رسول اللّه قد دخلهم ما رأيتَ، فلا تُكلِّمَنَّ منهم إنساناً، واعمدْ إلى هديك فانحرْه، واحلِقْ، فلو فعلتَ ذلك، فعلوا مثلك!

فقامَ النبيُّ ﷺ فلم يُكلمْ أحداً، فنحرَ هديه، وحلقَ رأسه، فلما رأوه، قاموا فنحروا وحلقوا!

الشاهدُ في الأمرِ أن النبيَّ ﷺ وهو المُؤيد بالوحي، المحفوف بالتوفيق والعصمة، يستشيرُ زوجتَه في قضيةٍ سياسيةٍ ودينيةٍ شائكةٍ تخصُّ الأُمة بأسرها، وعندما سمع نصيحتها عملَ بها!

ليس في الأمرِ انتقاصٌ للرجولة أن يستشيرَ الرجلُ زوجتَه في مشاكِله ومشاغله، على العكس تماماً هذا من الرجولة لأنه فعل سيد الرجال أولاً، كما أنه امتثالٌ للهَدْيِ النبوي.

وما نسمعه من هادمي الأُسر، ومُقَلِّلي شأن النساء، حين يقولون: شاوروهنَّ وخالفوهنَّ، ما هو إلا ذُكورية مقيتة، لا تمُتُّ إلى الدينِ، والسُّنَّةِ، والمنطقِ بصلة!

العَيلةَ تخافين عليهم؟!

كان عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب يتصدَّقُ على الفقراء بصدقاتٍ مهولة لدرجة أن سيِّديَ شباب أهل الجنة الحسن والحُسين نصحاه أن يتصدَّق بقدر معقول، فقال لهما: لقد عوَّدني ربي عادةً وعوَّدتُ عِباده عادةً، فأخشى إن غيَّرتُ عادتي أن يُغيِّر اللّه عادته! ومعنى الكلام أنه كان كُلَّما تصدَّق زاد ماله فهو يخاف أن يُقلِّل من الصدقة فيقل مِقداره من الرِّزق، وما ٱستُعطيَ اللّه سبحانه بشيءٍ أحسن من الصَّدقة!

يوم استشهد جعفر في مُؤْتة، جاءتْ أسماء بنت عميس زوجة جعفر بِولديه محمد وعبد اللّه إلى النبيِّ ﷺ وهما طفلان صغيران، فأخذَهما منها، وعانقَهما وقال لها: «العَيلة/الفقر تخافين عليهم وأنا وليّهم في الدنيا والآخرة؟!» ثم دعا لهما فقال: «اللهم ٱخلُفْ جعفراً في أهله، وباركْ لعبد اللّه في صفقةِ يمينه»! وقد ٱستُجيبت الدعوة المباركة، وكان عبد اللّه فاحشَ الثراء كثير الصَّدقة!

إنَّ صلاح الآباء هو تأمين على حياة الأبناء! هذا قانون اللّه في الكون، لا يتغيَّرُ ولا يتبدَّل، قانون سنَّه اللّه يوم خلقَ السماوات والأرض، وأثبتَه في كتابه العزيز حين قال ﴿ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ﴾!

كيف يُضيِّعُ اللّه سبحانه أولاد جعفر الذي ترك الأهل والأحبة والوطن وخرج مهاجراً بدِينه إلى الحبشة، كيف يُضيِّع اللّه أول مُنافح عن شرعه ودينه في بلاد الغربة عند النجاشي، كيف يُضيِّع اللّه شهيد مُؤْتة الذي قُطعت ذراعاه وما أفلتَ لواء التوحيد، لا أحد أوفى بعهدِه من اللّه، وإن عبد اللّه بن جعفر ثمرة وفاء اللّه تعالى لجعفر!

عودوا بالتاريخ معي حين أرسلَ اللّه تعالى الخضرَ وموسى عليه السلام ليُقيما جدار ولدين يتيمين كي لا يضيع كنزهما لأنَّ أباهما كان صالحاً! أبَعْدَ هذا الوفاء وفاء؟!

رجلٌ مجهولٌ لا نعرفه يُرسلُ اللّه إلى أولاده ولياً صالحاً وكليمه موسى ليُقيما لهما جداراً فقط لأنه كان صالحاً!

إذا أردتَ أن تحفظ أولادك، وتتركهم في رعاية اللّه وحفظِه، فكُنْ صالحاً، ثم لا تقلق فإن اللّه لا يُخلف الميعاد!

كان عبد اللّه بن مسعود يقوم الليل وابنه الصغير نائم، ينظرُ إليه ويقول: هذا من أجلكَ يا بُني ثم يقرأ: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

هذه سُنَّتي!

جاءَ ثلاثة رجالٍ إلى بيوت أزواجِ النبيِّ ﷺ يسألون عن عبادتِه، فلما أُخبروا بها فكأنهم رأوها قليلة، فقالوا: أين نحن من النبيِّ ﷺ فقد غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبه وما تأخَّر؟!

فقال أحدهم: أما أنا فإني أُصلي الليلَ كله ولا أرقدُ!

وقال الثاني: أما أنا فإني أصومُ الدَّهرَ ولا أُفطِر!

وقال الثالث: أما أنا فإني أعتزِلُ النساءَ ولا أتزوج!

فلما جاء النبيُّ ﷺ وأُخبِرَ بالذي كان من الرِّجال الثلاثة، ذهبَ إليهم، وقال لهم: أنتم الذين قُلتم كذا وكذا؟

فقالوا: نعم يا رسول الله.

فقال: أما واللهِ إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أُصلي وأرقدُ، وأصومُ وأفطِرُ، وأتزوجُ النساءَ، هذه سُنَّتي فمن أعرضَ عن سُنَّتي فليسَ مني!

ما حَكَمَ الصحابةُ العالمَ، ولا هَزموا الإمبراطوريات إلا بحُسنِ اتباعهم للنبيِّ ﷺ، حتى أن أحدَهم مرَّ يوماً بمكانٍ فحنى رأسه، فلما سُئِلَ عن السبب قال: قد كان هنا شجرة لها غصن وارف فلما مرَّ النبيُّ ﷺ أحنى رأسه، فإني أفعلُ كما فعل وإن قُطِعَتْ الشَّجرة!

لا شيءَ أحبُّ إلى الله سُبحانه من عبادته على طريقةِ النبيِّ ﷺ وسنته دون إفراطٍ ولا تفريط، وهما مقتلُ الأُمَّة، فالإفراطُ هو

الـذي جـاء إلينـا بالتشـدُّدِ، والفِـرقِ الضالَّـةِ، والاسـتهانةِ بالدمـاءِ، والتكفيـر! والتفريـطُ هـو الـذي جـاء إلينـا بالتفلُّـتِ، والانهـزامِ، والأمـراضِ الفكريـةِ، والتبعيـةِ للغـرب!

والإسـلامُ هـو وسـطٌ بيـن رذيلتيـن، التشـدُّد والتفريـط، ولـو نظرّنـا إلـى تعاليـم الإسـلام لوجدّنـا أن كل فضائلـه، وأخلاقـه، وسـط بيـن رذيلتيـن، فمـن حـاد عنـه وقـعَ فـي إحـدى الرَّذيلتيـن!

الشجاعةُ التي دعا إليها الإسلام هي وسطٌ بين الجُبن والتهور!

والكرمَ الذي دعا إليه الإسلام هو وسطٌ بين البُخل والتبذير!

والحيـاءُ الـذي دعـا إليـه الإسـلام هـو وسـطٌ بيـن الخجـلِ المَرَضِـيِّ والوقاحة!

العفةُ التي دعا إليها الإسلام هي وسطٌ بين الرهبنةِ والإباحية!

دومـاً اُنظُـرْ إلـى الخُلُـق السـيىء فـي أسـفل القائمـة وفـي أعـلاه تجـد الإسـلام قـد أرسـى خُلُقـاً وسـطاً بعيـداً عـن الخُلُقيـن السـيئين!

ليـس فـي ديننـا مـا نخجـلُ بـه، الـذي ينتقِـدُ لـكَ السِّـواك فـي عصـرٍ وصـلَ فيـه النـاس إلـى القمـر، ينتقِـدُ وكأنَّ السِّـواك هـو الـذي منعـه مـن الصعـود إلـى القمـر، مـا منعـكَ يـا عزيـزي ليـسَ السـواك وإنمـا العقـل المريـض الـذي تحملـه فـي رأسـك!

ومـا أجمـل الإمـام مالـك يـوم قـال: السُّـنة سـفينة نـوح، مـن ركبهـا نجـا، ومـن تخلَّـفَ عنهـا غَـرِقَ!

مِمّ تضحكون؟

روى الذَّهبيُّ في سِير أعلام النبلاء أنَّ عبد اللّه بن مسعود جاء إلى مجلس عُمر بن الخطاب وهو يومذاك أمير المؤمنين، فكان ابنُ مسعودٍ لا يكاد يُرى بين الناس من قصر قامته، ونحول جسمه، فجعلَ عُمر يُلاطفه، ويتهلَّل وجهه، فلما مضى ابن مسعود، قال عُمر لجُلسائه: نحيلٌ مُلِئَ عِلماً!

درسٌ بليغٌ تعلَّمه عُمر بن الخطاب من مشهدٍ كان قد شهده زمن النّبي ﷺ، ذلكَ أنَّ ابن مسعودٍ صَعِدَ يوماً شجرةً ليجني منها، وكان نحيلاً جداً، دقيق الساقين، فجعلتْ الريحُ تكشف دِقَّة ساقيه، فجعلَ الصحابة يضحكون، فقال لهم النبيُّ ﷺ: مِمّ تضحكون؟

قالوا: يا رسول اللّه، من دِقَّةِ ساقيه!

فقال: والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من جبل أُحُد!

إنَّما المرءُ بقلبه لا بوزنه، وبعقله لا بماله، وبلسانه لا بثيابه!

إنكَ ترى الرجل القصير النحيل فلا تحسبه شيئاً وقد يكون بينه وبين اللّه عبادة ما كنتَ لِتُدرِكَها ولو عشتَ عُمراً آخر، وترى الرجل الوسيم الأنيق فتُكبره وهو يمشي على الأرض وهي تلعنه ممَّا فيه من فجور وغلظة! على أن ليس كل نحيل قصير صوَّاماً

قوَّاماً، وليس كل وسيم غني فاجراً كفَّاراً، إنما القصد أن لا نحكم على الناس بالمظاهر، إنَّ الله خلقَ القبيح ليس عن عجز منه، وخلقَ الفقير ليس عن قلة ذات يد، ولكنه سبحانه جعل الدنيا دار امتحان، فإن لم تحترم الخلقَ فاحترم الخالق!

قال زهير بن أبي سُلمى:

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده

فلم يبقَ إلا صورة اللحمِ والدمِ

ها هو شاعرٌ جاهليٌّ يُخبرنا أن المرء بقلبه ولسانه، بمشاعره وأخلاقه، بلِينه ولطفه، بكرمه ومنحه، بالإحساس بالآخرين، وبمدِّ يد المساعدة إليهم، بنُصرة الضعيف، ومُساعدة المسكين، والتودُّد إلى الفقير! بهذا يُقاس الناس عنده، لا بالمظاهر الفارغة!

شأن الناس دوماً، عامتهم وخاصتهم، أن تخدعهم المظاهر، ويعتقدون أن الإنسان بشكله ووزنه، وطوله وعرضه، وينسون أنَّ هذه أحكاماً طفولية بعيدة عن النُّضج، فضلاً عن بُعدها عن الدِّين!

كان عبد الملكِ بن مروان يسمعُ شِعر كُثيِّر عزَّة قبل أن يراه فيُعجبه كثيراً وقد رسم له في ذهنه صورة، فلما قَدِمَ كُثيِّرٌ عليه استقبحَ عبد الملك شكله، وقال المثل الشهير: أنْ تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه!

ويا لتعس من أغضبَ شاعراً، ولو كان الخليفة!

استجمع كُثيِّر كبرياءه، وقال لعبد الملك:

تری الرجلَ النحيف فتزدريه
وفــي أثوابــه أســدٌ هصــورُ
ويُعجبــك الطريــرُ إذا تــراه
فيخلف ظنك الرجلُ الطريرُ
بُغـاث الطيـر أطولها رِقابـاً
ولـم تطُل البُـزاة ولا الصقـور
ضعافُ الأُسـد أكثرها زئيراً
وأصرمهـا اللواتــي لا تزيـرُ

فقال عبد الملك: للّه درك، ما أفصحَ لسانك، وأضبطَ جنانك، وأطولَ عنانك، ثم قام إليه واسترضاه وطيَّب خاطره!

إنّما هو شيء أصنعه لكم!

اجتمعتْ العربُ على المُسلمين يوم الخندق، وزادَ الطين بِلةً أن بَني قريظة غَدَروا من الداخل، وعلى خُطى بني قُريظة جاء عُيينة بن حصن في غطفان ليكمل مُسلسل الغدر، وصارَ المُسلمون بين فكَّي كماشة، عدوٌّ بعيدٌ جاءَ من أرجاءِ جزيرة العرب، وعدوٌّ قريبٌ أخلَّ بالعهدِ وهمَّ بالخيانة!

فأراد النبيُّ ﷺ أن يُعطيَ عُيينة بن حصن ومن معه ثُلث ثمار المدينة ليرجع ومن معه من غطفان ويُخذِّل الأحزاب، فأرسلَ إلى سعد بن مُعاذ سيِّد الأوس، وسعد بن عُبادة سيد الخزرج ليُشاورهما بما عزمَ عليه، وهذا من أدبه ﷺ لأن ثمار المدينة ثمارهم ولم يشأْ أن يقطعَ فيها دون إذنهما، فلما كلَّمَهُما في ذلك قالا: يا رسول الله إن كان الله أمركَ بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيئاً تصنعُه لنا، فلا حاجة لنا فيه! لقد كنا وهؤلاء القوم على الشِّركِ بالله، وعِبادةِ الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا تمرةً من تمرِ المدينة إلا بيعاً أو ضيافة، فحينَ أكرمَنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزَّنا بكَ تُعطيهم أموالنا؟!

واللهِ لا نُعطيهم إلا السَّيف!

فأثنى عليهما، وصوَّبَ رأيهما، وقال: «إنما هو شيء أصنعُه لكم، لمّا رأيتُ العربَ قد رمتكم عن قوسٍ واحدة»!

الأمـرُ كمـا تـرون، مسـألةٌ سياسـيةٌ بحتـة، وحـربٌ قائمـة، والجميـعُ يبحـثُ عـن حـل، ولـكل فيهـا رأي، وقـد ارتـأى النبـيُّ ﷺ أن يُفـاوضَ غطفـان ويُعطيهـم ثُلـث ثمـار المدينـة ليكفـوا شـرّهم وينسـحبوا مـن حِلـف الأحـزاب، وقـد ارتـأى السَّـعدان ابـن عُبـادة وابـن مُعـاذ أنَّ فـي هـذا ذِلـة، فـإن كان أمـرُ الله فالسـمعُ والطاعـة، وإن كان اجتهـاداً مـن النبـيِّ ﷺ حقنـاً للدمـاء، وإبقـاءً علـى المدينـةِ عـن طريـقِ اسـتمالةِ العدو ببعـض المـال فهـم لا يُوافقـون، وليـس للغُـزاة إلا السَّـيف، فنـزلَ النبـيُّ ﷺ عنـد رأيِهمـا!

مـن مآسـينا اليـوم أن النـاسَ لهـا آراء سياسـية، هـي فـي الحقيقـةِ اجتهـادات شـخصية وقـراءة للواقـع، وتحليـل المعطيـات، وتقديـر للمصالـح والمفاسـد، فيحملونـك علـى رأيهـم السياسـي كأنـه وحـي ليـس لـكَ أن تُخالفَـه مـع أن صاحـبَ الوحـيِ قـد رضـيَ بمُخالفـةِ أصحابـه لرأيـه لأن رأيـه لـم يكُـن وحيـاً وإنمـا هـو سياسـة وتقديـر واجتهـاد!

علـى المقلـبِ الآخـر تجـدُ مـن يُخـوِّنُ كل اجتهـادٍ سياسـيٍّ وتقديـرٍ للموقـف، فتجـد مـن هـو مُمـدّد علـى فراشـه يُريـدُ أن يفتـيَ لأهـلِ الثغـور، أن الهدنـة لا تجـوز هنـا، وأن الحـرب لا تجـوز هنـاك!

علـى الـذي يتعاطـى شـأناً سياسـياً أن يعـرفَ أنـه إنسـان يُصيـبُ ويُخطـئ، وليـس عليـه حمـل النـاس علـى رأيـه، وعلـى الـذي يُتابـعُ الشـأنَ العـام أن يعـذُرَ المجتهـد ويُحسـنَ الظـن بـه إذا غلـبَ عليـه الخيـر، وأن ينصـحَ بمعـروفٍ يسـتحق أن يُسـمع!

من لا يَرحم لا يُرحم!

كان مجلسه دوماً مدرسةً للدين والدنيا معاً، يكفي أن تقرأ سيرته بعقلك لتفهم، وأن تقرأ بقلبك لتتهذَّبَ وتلين!

وإلى مجلسه جاء الأقرع بن حابس، وفي المجلس الحسن بن علي، طفلٌ صغيرٌ يلعب، فأخذه النبيُّ ﷺ وقبَّله...

فقال له الأقرع: إن لي عشرةً من الولد ما قبَّلتُ أحداً منهم قط!

فقال له النبي ﷺ: من لا يَرحم لا يُرحم!

وجاءه أعرابي، والحسن بين يديه طفلٌ صغير يلعب، فأخذه وقبَّله، فقال الأعرابي: تُقبِّلون الصبيان؟ أما نحن فما نُقبِّلهم!

فقال له النبي ﷺ: أَوَ أملكُ لكَ أنْ نزعَ اللّه من قلبك الرَّحمة! من لا يَرحَمُ لا يُرحم!

إنَّ من عدل اللّه سبحانه أنه جعل الجزاء من جنس العمل! جزاء الخير خيرٌ مثله، وجزاء الشر شر مثله!

ما غرقَ فرعونُ إلا لأنه كان يقول ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾! فأجرى اللّه تعالى ماء البحر من فوقه!

وإخوة يوسف عليه السلام الذين قبضوا بأيديهم ثمنه لمّا باعوه، مدُّوا أيديهم بعد ذلك يستعطونه لمّا صار عزيز مصر!

وإن الشهيد لا يُفتن في قبره لأنه تكفيه بارقة السيوف فتنة!

وإنَّ أول المخلوقات يُكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ذلك لما أكلتْ النار التي ألقاه فيها قومه من ثيابه!

هذه الدنيا تدور، وكل ساقٍ سيُسقى من الكأس التي سقى منها غيره، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ!

كل صدقة تضعها في يد فقير هي حفظ لك أن تقف ذات يوم تمدُّ يدك وتطلب الصدقة من أحد!

كل مريضٍ أنفقتَ في علاجه هو حصانة أن يُصيبك ذلك المرض!

كل دمعةٍ مسحتها بيدك هي يد تخبئها للزمن إن جرتْ يوماً دمعتك!

كل يدٍ مساعدة أقمتَ فيها متعثراً هي يد تخبئها للغد، إن تعثّرتَ وجدتَ من يُقيمك!

كل مظلوم أعنته هو جندي تُخبّئه للغد يُعينك إن ظُلمتَ يوماً!

كل كلمة طيبة قلتها في غياب أحد هي كلمة طيبة سيقولها أحد عنك في غيابك!

كل عرضٍ دافعتَ عنه كأنه عرضك هو عرضك الذي تحميه في المستقبل إن أراد أحد أن ينال منه!

حتى الدعاء للميت هو دعاء لكَ تخبئه حين تموت، فكلما رفعتَ يدك تدعو لميت سيجعل اللّٰه من يرفع يديه ليدعو لك وأنتَ ميت!

لا أحد أحفظُ للمعروف من اللّٰه،

أما رأيتَ كيف أرسلَ نبياً ووليّاً صالحاً ليُقيما جدار غلامين يتيمين لأن أباهما كان صالحاً؟!

يـرحمُ اللّه موسى!

لمـا كان يـوم غـزوة حُنيـن، خـصَّ النبـيُّ ﷺ أُناسـاً فـي العطايـا أكثر مـن غيرِهِـم، فـأعطـى الأقـرع بـن حابـس، وعُيينـة بـن حصـن كل واحـد منهمـا مئـةً مـن الإبـل، وأعطـى بعـض أشـراف العـرب مثـل ذلـك يُريـدُ أن يتـألَّـفَ قلوبهـم لِمـا لهـم مـن التـأثيـر والمكانـة الاجتماعيَّـة خدمـةً للدعوة.

فقـال رجلٌ: واللّهِ هـذه قِسـمة ما عُدِلَ فيهـا، ومـا أُرِيـدَ بهـا وجـه اللّه!

فسـمعَه عبـد اللّه بـن مسـعود، فقـال: واللّهِ لأُخبـرنَّ النبـيَّ ﷺ بهـذا!

فأتـى النبـيَّ ﷺ وأخبـره بمقولـة الرَّجـل. فتغيَّـرَ وجهـه من الغضب، ثـم قـال: فمـن يعـدل إذا لـم يعـدل اللّه ورسـوله؟! ثـم هـدأ علـى الفـور وقـال: يرحـمُ اللّه موسـى، قـد أُوذي بأكثـر مـن هـذا فصبـر!

فقـال عبـد اللّه بـن مسـعود فـي سِـرِّه: واللّهِ لا أرفـعُ إليـه حديثـاً بعـد هـذا!

قالت العربُ قديماً: إرضاءُ الناسِ غايةٌ لا تُدرك!

ولـو تأملْـتَ حـالَ النـاسِ لوجـدتَ فيهـم سَـخطٌ علـى اللّه سـبحانه، هـذا الـذي لا يقنـع برزقـه، وذاك الـذي يحسـدُ غيـره علـى وظيفـة، وتلـك التـي تنظـرُ إلـى بيـتِ فُلانـة، وهـؤلاء الذيـن ينظـرون إلـى مـا يملـك أولئـك، فـلا تتوقَّـعْ وأنـتَ الإنسـان الـذي يُخطـئ ويُصيـب أن

يرضى كل الناس عنك! الناس الذين لم يرضوا بقسمةِ ربِّهم لن يرضوا عن قِسمتك، وإذا كانت قسمة النبيِّ ﷺ لاقتْ انتقاداً فأين أنتَ منه حتى يُعجب كل الناس بكل صوابٍ تقوم به؟!

يرحمُ اللّٰه موسى، قد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصبرَ!

كان النبيُّ ﷺ يتعزَّى بسيرة إخوته الأنبياء الذين أتوا قبله، ويا له من عزاء، فتعزَّ أنتَ أيضاً!

إذا كان لكَ ولدٌ عاق فتعزَّ بنوحٍ عليه السلام، فله ابنٌ ورفضَ أن يركبَ معه في السفينة!

وإن كان لكَ أبٌ على المعصية فتعزَّ بإبراهيم عليه السَّلام، فقد كان أبوه آزر مُشرِكاً!

وإن كان لكَ زوجة تعصيكَ ولا تسمعُ كلمتك فتعزَّ بنوحٍ ولوطٍ عليهما السلام، فقد كان لكلٍّ منهما زوجة كافرة!

وإن كان لكِ زوجٌ عاصٍ فتعزِّي بآسيا بنت مزاحم، بنى اللّٰه سُبحانه لها بيتاً في الجنة وهي زوجة فرعون الذي كان يقول «أنا ربكم الأعلى»!

إن كان لكَ قريبٌ فاجرٌ فتعزَّ بالنبيِّ ﷺ، فطالما نَعَتَهُ عمه أبو لهب بالكذاب والساحر، ناهيك عن الأذى الذي صبَّه عليه هو وزوجته الفاجرة أم جميل!

إن فقدْتَ عزيزاً فتعزَّ بيعقوب عليه السلام،

وإن مرضتَ مرضاً شديداً فتعزَّ بأيوب عليه السلام،

وإن قيل فيكَ ما ليسَ فيكَ فتعزَّ بيوسف عليه السلام،

سيرةُ الأنبياء ليستْ مادةً قَصصيةً للتسلية، وإنما دروس للعِظة والاعتبار!

إنَّ لصاحب الحقِّ مقالاً!

اشترى النبيُّ ﷺ من أعرابيٍّ جَملاً بوَسْقٍ من تمر -والوَسْق تقريباً مقدار ما تحمله الدابة- فلما رجعَ إلى بيته يُريدُ أن يُرسل التمر للأعرابي ثمناً للجمل وجد أن أهله قد أنفقوه كله بين أكل وصدقةٍ وهدية، فخرجَ من بيته، وقال للأعرابي: يا عبد الله، إنَّا قد ابتعنا منك جَزوراً بوَسْقٍ من تمرٍ فالتمسناه فلم نجده!

فقال الأعرابي: وا غدراه!

فنهرَه الناس، وقالوا: قاتلكَ الله، أيغدُرُ النبيُّ ﷺ؟!

فقال لهم النبيُّ ﷺ: دعوه، فإنَّ لصاحب الحقِّ مقالاً!

ثم أمرَ أحد أصحابه أن يذهبَ إلى خويلة بنت حكيم يسألها وَسْقاً من تمرٍ دَيْناً، فأرسلتْ خويلة إليه بالتمر، فدفعه إلى الأعرابي ومضى!

قصة على اقتضابها إلا أن فيها دروساً كثيرةً وعِبراً:

١. لم يُعنِّف النبيُّ ﷺ أهل بيته لأنهم أفنوا التمر كله دون أن يُخبروه، ولم يسأل حتى من أكلَ، ولِمن أهديتم منه، وعلى من تصدَّقتُم! وهكذا يجب أن يكون الرجل في بيته، صحيح أنه لا بأس بتنظيم أُمور البيت المالية، ولكن من العيب أن يُعاملَ الرجل أهل بيته كأنه خازن بيت المال، يكتب التمرة التي تدخل عنده، ويُسجِّل التمرة التي تُغادر بيته، يُريدُ أن يُحصي على أُسرتِه اللُّقمة التي يأكلونها، وإنَّ عدو النساء الأول هو البُخل، بُخل المال، وبُخل العاطفة، وبُخل الاهتمام!

٢. عندما علِمَ النبيُّ ﷺ أنه لم يعُد يملك التمر، ذهبَ إلى الأعرابي مباشرة وأخبره بالأمر، وهذا من أدب النُبوة، وقد ٱبتُلينا هذه الأيام بالتطنيش!

يقصدكَ أحدهم في دَيْن، فتعملُ بأصلك، فإذا جاءَ وقتُ السَّداد ما عُدتَ تراه، والواجب على من من حان وقت سداد دينه أن يُخبر صاحب الدين أن أموره تعسَّرتْ ويطلبْ تأجيلاً، أما أن يتجاهل الموضوع كأنه ما كان فَفِيه خُلقان ذميمان، الأول الحنث بالوعد، والثاني مُقابلة المعروف بالإساءة!

٣. اُنظُرْ لفقه النبوة، لم يرضَ أن يُعنِّفَ أصحابُه الرجلَ رغم جفائه في الرَّد بل التمسَ له العذر قائلاً: دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً! فأحياناً حين يشعرُ الإنسان بالظُلم يتخلَّى عن شيء من لباقتِه، تجدُ الزوجة المجروحة من سوء المعاملة تتفوَّه بكلامٍ ما يجب أن تقوله، ولكن لماذا علينا أن نُحاكم ردة الفعل وننسى الفعل الأصلي؟!

وتجدُ من وقعَ عليه نصبٌ واحتيالٌ لا يتركُ مجلساً إلا وذمَّ فيه من نصبَ واحتال عليه، فحاولوا أن تتفهَّموا شعور المرارة عند هؤلاء قبل أن تُحاولوا أن تُعطوهم درساً في التربية واللياقة الاجتماعية!

٤. أفهامُ الناسِ تختلفُ تبعاً لاختلافِ عقولهم وثقافاتهم، فلا تتوقَّع أن يكون الجميع بذات النُّضج واللَّباقة والكياسة، الفهم أرزاق أيضاً! ولو أن صحابياً كان مكان هذا الأعرابي لقال للنبيﷺ: فِداكَ كل تمر المدينة وجِمالها، ولكن الأعرابي قال له:

وا غـدراه! فتفهَّمـوا اختـلاف العقـول والطبـاع، نحـن مُتشـابهون مـن الخـارج فقـط، أمـا مـن الداخـل فنحـن عوالـم مختلفـة، مـن النـاس مـن يُخاصمـكَ عامـاً لمزحـةٍ عابـرة، ومنهـم لـو جرحتـه بكلمـة مـا هانـت عليـه العِشـرة التـي هانـتٌ عليـكَ، ولتغافـل ومرَّرهـا لـكَ لِلحفـاظ علـى الـودِّ القديـم!

٥. الإسـاءةُ فـي طلـب الحـق لا تُلغيـه، مـن النـاس مـن إذا طُلـب منـه أداء حـق بأسـلوب فـظ لجعلَ الأسـلوب الفـظ مقابـل الحـق الـذي عليـه، لا يـا عزيـزي، أنـت مُطالـب أن تُـؤدِّي الـذي عليـك، ولسـتَ مطالبـاً بتربيـة النـاس!

أَتُحبُّه؟!

كان النبيُّ ﷺ إذا جلسَ يجلسُ إليه نفرٌ من أصحابه، وفيهم رجلٌ له ابنٌ صغيرٌ يأتيه من خلف ظهره، فيأخذه، ويُقبِّله، ويمسحُ على رأسه، ويُجلسه في حِجره...

فقال له النبيُّ ﷺ: أَتُحِبُّه؟

فقال: يا رسول الله أحبَّكَ اللهُ كما أُحبُّه!

ثم ما لبثَ الغُلامُ أن ماتَ، وانقطعَ الأب عن حلقةِ النبيِّ ﷺ حزناً على ابنه، ففقده النبيُّ ﷺ، فقال: ما ليَ لا أرى فلاناً؟

فقيل له: يا رسول الله، ابنه الذي رأيتَه قد ماتَ.

فلَقِيَهُ النبيُّ ﷺ، وعزَّاه به، ثم قال له: أيما كان أحبُّ إليكَ أن تُمتَّعَ به في عمرك، أو لا تأتي غداً إلى بابٍ من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقكَ إليه يفتحه لكَ؟

فقال: يا نبيَّ الله، بل يسبقني إلى باب الجنة فيفتحها لي هو أحبُّ إليَّ!

فقال له: فذاكَ لكَ!

فقال رجلٌ: يا رسول الله له خاصة أم لنا جميعاً؟

فقال: بل لكم جميعاً!

من لطائف ما قيلَ في تفسير توعُّد سُليمان عليه السلام للهُدهد ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، قالوا العذاب الشديد هو التفريقُ بينه وبين أحبابه، فإنَّ فقد الأحبة غُربة!

ومن لطيف ما قال ابن حزم: من ٱبتُليَ بقُربِ من يكره، كمن ٱبتُليَ ببعدِ من يُحب، ولا فرق!

فقدُ الأحبةِ غُربة، تعتادُ على ابنٍ يملأ عليكَ الدار حياةً وبهجةً ثم تفقده فيا للوجع! وتعتادُ على ابنةٍ تُؤنس قلبكَ، ثم تفقدها فيا للألم! وتعتادُ على حنان أُم تمسحُ بيدها على رأسكَ فتُزيل منكَ هموم الدُّنيا وتُعيدكَ في لحظاتٍ طفلاً صغيراً، ثم تفقدها فيا للوحشة! وتعتادُ على أبٍ يسندك ويكون من بعد الله ملاذك، ثم تفقده فيا للخسارة! وتعتاد على حبيب إذا حضرَ لم تفقدْ في حضوره أحداً، وإذا غابَ لم تحفل بمن حضر، ثم يموت فيا للوحشة!

فإذا كان هذا، سأل الله ملائكته وهو أدرى: قبضتم ثمرة فؤاد عبدي؟ فقالوا: نعم! فقال: ما قال؟ قالوا: حمدَكَ واسترجعَ! فقال: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنةِ سمُّوه بيتَ الحمد!

بالرضا والصبرِ تُبنى بيوت الحمد، فلا تشغلك المصيبة عن بناء بيتك!

إن السخط على قَدَرِ الله لن يُغيِّره؛ اللطمُ لا يُعيدُ الأموات، والنواح لن يمنحهم عمراً آخر، كل ما في الأمر أنه خسارتين في آن، خسارة الحبيب وخسارة بيت الحمد، وليس غير الله يبقى!

فاجعل من الرضا سفينتك يسهل عليكَ العبور!

فَلْيُرَ عليك!

جاء مالك بن نضلة إلى النبيِّ ﷺ يلبسُ ثياباً باليةً، فقال له النبيُّ ﷺ: هل لكَ مالٌ؟

قال: نعم.

فقال له: من أيِّ المال؟

قال: من كل المال قد آتاني الله عزَّ وجل، من الإبل، والرقيق، والخيل، والغنم.

فقال له النبيُّ ﷺ: إذا آتاكَ اللهُ مالاً فليُرَ عليك!

وعن عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جده قال: قالَ رسولُ اللهﷺ: إنَّ الله يُحِبُّ أن يرى أثر نعمته على عبده!

إظهارُ النعمةِ جزءٌ من شُكرها، فالإنسانُ إذا أعطاه الله مالاً عليه أن يلبسَ ثياباً حَسَنَةً، والحَسَنُ شيء والغالي شيء آخر، لأن الماركات واللهث وراء الموضة، ودفع الكثير -وفي السوق مُقابل له أنيق وجميل- من الحُمق والتبذير، وللأسف فإن الماركات اخترعَها الناسُ لسرقةِ الأغنياء فاغترَّ فيها الفُقراء! حتى ترى الشاب يشتري ما لا طاقة له به ليتباهى، والفتاة لا تحمل الحقيبة إلا إذا كانتْ من شانيل أو ديور! صحيحٌ أن الأناقة مطلوبة من الجميع، ولكن التكلُّف خُلُقٌ مذموم!

ومـن إظهـارِ النعمـةِ مسـاعدة المحتاجيـن، صحيـح أن صدقـة السـر أحب إلـى اللّه وأقرب ولكن قد يبلـغ الإنسـان من الثراء مبلغاً يجعلـه مضطـراً لأن يتصـدق علـى المـلأ خصوصـاً فـي المشـاريعِ العامـة، كالـذي يبنـي مسـتوصفاً، أو يحفـرُ بئـراً فـي قريـةٍ نائيـةِ، أو يتبـرعُ بقاعـةٍ للمُناسـبات، أو يبنـي مسـجداً أو دارَ تحفيـظ للقـرآن، فمثـل هـؤلاء يدخلـون فـي قـول اللّه تعالـى﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ﴾، وكلُّ عطايـا اللّه نِعـم، وشُـكر النِّعـم مـن جنسـها!

بإمـكان الطبيـب أن يجعلَ لـه يومـاً يُعالـج فيـه المرضـى بالمجـان، وبإمـكانِ الأسـتاذ الجامعـي أن يشـرحَ خـارج القاعـة لمـن تغيَّـبَ عـن المحاضـرة أو لـم يفهمّهـا، وبإمـكانِ صاحـب العلاقـات والنفـوذ أن يشـفعَ لحـلِّ مشـكلة مسـكين، أو تأميـن عـلاج لمُتعثِّـر، بإمـكان التاجـر الثـري أن يُخصِّـصَ مـواداً غذائيـة شـهرية لعائلـةٍ مُتعففـةٍ، وبإمـكان رب العمـل أن يُخفـفَ عـن النـاس بعض سـاعات الـدوام فـي رمضـان، وبإمـكان المسـؤول عـن العمـال أن يجلسَ معهـم ويُحادثَهـم ويتلطَّـفَ إليهـم، إن الطريـق إلـى الخالـق بعـددِ أنفـاس الخلائـق، وكلُّ نعمـةٍ تُشـكر تُحفـظ فحافظـوا علـى النِّعَـم!

ويُعجبني الفأل!

قال مرةً لأصحابه يُصحح عقائدهم: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صَفَر، ولا نوء، ولا غول، ويُعجبني الفأل»!

قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟

قال: «كلمة طيبة»!

وعن العدوى قال له رجل من الحاضرين: يا رسول الله، الإبل تكون في الصحراء كأنها الغزلان، فيدخل فيها البعير الأجرب فيُجربها.

فقال له النبيُّ ﷺ: «فمن أعدى الأول»!

أما انتقال الأمراض بالعدوى فثابت عن النبيِّ ﷺ بلا خلاف، ومنها قوله: «لا يُورد ممرض على مصح»! وقوله: «فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد»!

أما قوله هنا: «لا عدوى» فهو صرف قلوب الناس من الأسباب إلى ربِّ الأسباب، وهذا المعنى يُؤَكِّدُه سؤاله للأعرابي إن كانت الأمراض لا تنتقل إلا بالعدوى فمن أين جاءتْ العدوى الأولى؟!

والطيرةُ هي التشاؤمُ فكانوا في الجاهلية يُكثِرون منها فإذا خرج الرجل إلى تجارة ولقيَ في طريقه رجلاً أعورَ اعتبر هذا مؤشر سوء فتشاءم ورجع، وتشاؤمُ الجاهليةِ يحتاج كتاباً وحده!

والهامةُ هي طائرٌ كان أهل الجاهلية يعتقدون أنه يخرج من

جسدِ القتيل ويبقى عند قبره يصيح: اسقوني، اسقوني، فلا يسكت حتى يُؤخَذُ بثأره!

وصَفَرُ هو الشهر الهجري المعروف وكانوا يتشاءمون من قُدومِه في الجاهلية!

والنوءُ هي نجومٌ في السماء كانتْ إذا ظهرتْ لزموا بيوتهم وكفوا عن التجارةِ والزواج والتنقُّلِ حتى تختفي!

والغولُ هو نوعٌ من الجِنِّ كانوا في الجاهلية يعتقدون أنه يقف للمسافر في الطريق ليُخيفه ويُضله عن مقصده!

ويعجبني الفأل، وهنا مربط الفرس، قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟ فقال: كلمة طيبة!

إذا دخلتَ على المريض، فأخبره أنها أيام ستمضي، وأنه ما شاء الله اليوم أفضل من البارحة، فالحالةُ النفسيةُ للمريض لها تأثير الدواء في الشفاء!

وإذا دخلتَ على فاقدِ حبيبٍ، فأخبِره أن ما للمؤمن عند الله خير من الدنيا وما فيها، وأن الجميع قد مات له حبيب، والعزاء أن يجمعَنا الله في الجنة.

إذا دخلتَ على المديونِ أَخْبِرْهُ أن فرج الله قريب، وكم من إنسان فرَّج اللهُ حالَه بعد عُسر، وأن الأيام دُول، وأن النبيَّ ﷺ ماتَ ودرعه مرهونة عند يهودي!

إذا دخلتِ على عقيمٍ فأخبريها أن الأولاد رزق، وأن أرفع أخلاق المُؤمن هو الرضا، وأنَّ عائشة ماتتْ ولم تُنجِب، وأن الأمل بالله،

فسارة زوجة إبراهيم عليه السلام رزقها اللّهُ ولداً بعد أن بلغتْ من العمر عتياً!

يحتاجُ الناس إلى من يُربِّتُ على قلوبِهم، ويحقنُهم بالأمل، ويُخبرُهم أن القادم أفضل بإذن اللّه!

أَتَرُدِّينَ عليه حديقته؟!

جاءتْ امرأةُ ثابت بن قيس إلى النبيِّ ﷺ فقالتْ: يا رسول اللّه، ثابت بن قيس ما أعتبُ عليه في خُلُقٍ ولا دِين، ولكني أكرهُ الكُفر في الإسلام!

فقال لها: أَتَرُدِّين عليه حديقته؟

قالت: نعم.

فقال النبيُّ ﷺ لثابت: اِقْبَلِ الحديقة، وطلِّقها تطليقة!

وكواليس القصة كالتالي:

جاءتْ زوجةُ ثابتْ بن قيس إلى النبيِّ ﷺ لا تعيبُ في زوجِها خُلقه ولا دينه، ولكنها تكرهه لدمامته، وقُبح صورته، وتخشى أن يؤديَ هذا النُّفور الطبيعي منه إلى كُفران العشير، وعدم القيام بحقه، والإساءة إليه، ومنعه حقه الطبيعي من العِشرة والفِراش، وما إلى هنالك من الخِصام والنشوز الذي يكون من الزوجة الكارهة لزوجها.

فكان جوابه ﷺ: أتَرُدِّين عليه حائطه؟ بمعنى إذا كنتِ تكرهينه كل هذه الكراهية، وتخشين أن يؤدي بقاؤك في عصمتِه إلى أمرٍ مُخالفٍ لأوامرِ الإسلام في الحياة الزوجية، فهل تقبلين أن تُعيدي له المهر الذي دفعه لكِ، لقاء أن يُطلِّقَكِ، فلما وافقتْ، أمرَ زوجها أن يأخذَ المهر الذي دفعه، ويُطلِّقها، وهذا ما يُسمى الخُلع!

لهذا السبب أباحَ الإسلامُ العظيمُ نظرَ الخاطبِ إلى المخطوبةِ

والعكس، كي لا يقع الفأس في الرأس، ويُعقدُ الزواج، ثم لا يجد أحدهما ما يُريده من شريك عمره، فيتحوَّل الزواج من عِبادةٍ لتحصينِ الفرج وإنشاءِ أُسرةٍ مُسلمة، إلى ساحةِ حربٍ قائمةٍ على البُغضِ والهِجران! وأنا أميلُ إلى الرأي القائل بعدم جواز تزويج الفتاة لشابٍ لا ترضى صفاته ولو كان صالحاً!

لأن في هذا ظُلم للاثنين، وما أفقه عُمر بن الخطاب حين قال: لا تُكرِهوا فتياتكم على الرجل القبيح فإنهنَّ يُحببنَ ما تُحبون!

على أنه إذا وقعَ الزواج، فالأصل أن يبحثَ الناسُ عن السَّترِ، ولَمِّ شملِ الأُسرة، وتربيةِ الأولاد، لأن كُلفة الطلاق قد يترتَّبُ عليها من المفاسد أكثر مما يترتَّبُ عليها من المصالح، مع التأكيد أن الطلاق حلال، وأنه ليس أبغض الحلال إلى الله كما هو شائع، فإن الله سبحانه لا يكرهُ حلالاً شرَّعه لعباده!

ولعلَّ الشاب الوسيم يجعل حياة الفتاة جحيماً فلا تعود تُطيق النظر في وجهه، ولعلَّ الفتاة الحسناء تجعل الرجل بسوءِ أخلاقِها يكرهُ جنس النساء، صحيحٌ أنه من حقِّ كل شخص أن يبحثَ عن شيء من الجمال ولكنه ليس كل شيء!

وعن الستر، ورغبة العيش، جاء رجلٌ إلى عُمر بن الخطاب، وقال له: إني أُريدُ أن أُطلق امرأتي!

فقال له عُمر: ولِمَ؟

فقال: لأني لا أحبها!

فقال له: أَوَكُلُّ البيوت قامت على الحُب، فأين المروءة والذِّمة!

فهو في سبيل الله!

مـرَّ رجلٌ قـويٌّ البِنيـة، فـارع الطـول، بالنبـيِّ ﷺ وهـو جالـسٌ بيـن أصحابـه، فلمـا رأوه أعجبهـم نشـاطه وقوتـه، فقالـوا: يـا رسـول اللّه، لـو كان هـذا فـي سـبيل اللّه!

فقـال: إن كان خـرجَ يسـعى علـى أولادٍ صغـارٍ فهـو فـي سـبيل اللّه، وإن كان خـرجَ يسـعى علـى أبويـن شـيخين كبيريـن فهـو فـي سـبيل اللّهِ، وإن كان خـرجَ يسـعى ريـاءً ومُفاخـرةً فهـو فـي سـبيل الشـيطان!

يعتقـدُ النـاس أن الجهـاد بالسـيفِ هـو فقـط الجهـاد فـي سـبيل اللّه، ومـا عـدا ذلـك هـو مـن طقـوس الحيـاة الرتيبـة! صحيـحٌ أن الجهـاد فـي أول قائمـةِ الأشـياء التـي فـي سـبيل اللّه، وأنـه أول مـا يتبـادر إلـى الذهـن إذا مـا قيـل فـي سـبيل اللّه، ولكـن الحيـاة بالحـلال هـي فـي سـبيل اللّه!

ظـنَّ الصحابـة أن قـوة الرجـل وبأسـه لا بُـدَّ أن تكـون فـي المعركـة لتكـون فـي سـبيل اللّه، فـإذا بالنبـيِّ ﷺ يُصحـحُ مفاهيمهـم! ويُخبرُهـم أنَّ هـذا الرجـل لـو كان خروجـه لتحصيـل قـوتِ أولاده وزوجتـه فهـو فـي سـبيل اللّه، ولـو كان خروجـه لأجـل أبويـن يُنفِـقُ عليهمـا فهـو فـي سـبيل اللّه، ولـو كان خروجـه لأجـل تحصيـل مهـر ليتـزوج ويعـفَّ نفسـه فهـو فـي سـبيل اللّه!

تحسَّسوا الأجر في كل سعي إلى الحلال فهو في سبيل اللّه!

نهوضُك صباحاً إلى عملكً لأجل لقمةِ أولادِك ليست مُجرَّد وظيفة، هذا جهاد يومي في سبيل اللّه!

عملُكِ في بيتكِ لأجل أن يجدَ الأولاد والزوج لقمة شهية، وثياباً نظيفة، وبيتاً مرتباً ليس مُجرد عمل حياتي مرهق، هذا جهاد يومي في سبيل اللّه!

اصطحابُ أحد أبويكَ إلى الطبيب هذا ليس مُجرد طلب استشفاء، هذا بِرٌّ وهو في سبيل اللّه!

ذهابُك لزيارة مريضٍ ليس طقساً اجتماعياً، هذا جبران خاطر في سبيل اللّه!

حضورُك لتعزيةِ أولادٍ بفقدِ أبيهم أو أمهم، ليس مظهراً اجتماعياً، هذا تراحم في سبيل اللّه!

إن الحياة في الطاعة والخير والمعروف كلها في سبيل اللّه، فتحسَّسوا الأجر يسهُل عليكم الجهاد!

فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟!

جـرتْ بيـن أبـي بكـرٍ وعُمـر محـاورة، قـامَ منهـا عُمـر غاضبـاً، فلحقـه أبـو بكـر يسـأله أن يسـتغفر لـه، فلـم يفعـلْ، حتـى أنـه أغلـقَ بابـه فـي وجهـه!

فأقبـل أبـو بكـر إلـى النبـيِّ ﷺ يُـرى عليـه أثـر مـا كان بينـه وبيـن عُمـر، فلمـا رآه النبـيُّ ﷺ قـال: أمـا صاحبكـم فقـد غامرَ/خاصـمَ!

ثـم سـلَّمَ أبـو بكـر، وأخبـرَ النبـيَّ ﷺ بالـذي كان بينـه وبيـن عُمـر، وكيـف طلـب منـه أن يسـامحَه فرفـضَ.

فقـال لـه النبـيُّ ﷺ: يغفِـرُ اللّٰهُ لـكَ يـا أبـا بكـر، يُرددهـا ثـلاث مـرات!

ثـم إن عمـر نـدمَ علـى مـا كان منـه، فقصـدَ بيـت أبـي بكـر فلـم يجـدْهُ، فأتـى النبـيَّ ﷺ، فسـلَّمَ وجلسَ، ووجـه النبـيِّ ﷺ تبـدو عليـه أمـارات الغضـب، حتـى أشـفقَ أبـو بكـر أن يقـول النبـيُّ ﷺ لعُمـرَ شـيئاً يُحزنـه، فجثـا علـى رُكبتيـه، وقـال: يـا رسـول اللّٰه واللّٰهِ أنـا كنـتُ أظلـمَ/أي الحـق كان مـع عُمـر!

فقـال النبـيُّ ﷺ: إنَّ اللّٰه بعثنـي إليكم فقُلْتُم كذبْتَ وقـال أبـو بكـر صـدقَ، وواسـاني بنفسِـه ومالِـه، فهـل أنتـم تاركـو لـي صاحبـي، فهـل أنتـم تاركـو لـي صاحبـي؟!

حتـى النُبـلاءُ يقـعُ بينهـم الخـلاف فـي وجهـات النظـر، ولـو نجـا مـن الخـلافِ أحـد أن يقـعَ فيـه لنجـا منـه سـيدا النُبـلاء أبـو بكـر

وعُمر، ولكن شتَّان بين الذين يَقلبون الصفحة سريعاً، وبين الذين يَجعلون كل خلاف شرارة لحربٍ مستعرةٍ!

لكل إنسان طبع، ولو فهمنا طباعَ الناسِ الذين نتعامل معهم لتجنبنا الكثير من المشاكل، هذا هو أبو بكر، السَّمح الرَّقيق، سريع الاعتذار! وهذا هو عُمر الصَّلب، الحاد في طبعه، فسُبحان من ليَّنَ طباع الناس بالإسلام، حتى غدا عُمر في حِدته وصلابتِه أحنى على الرَّعية من الأم بأولادها!

النُبلاء عندما تذهبُ عنهم فورة الغضب يُسرعون على الفور لإصلاحِ المواقف، وٱنظُرْ لنُبل عُمر حين هدأ، ذهبَ قاصداً بيت أبي بكر ليُصلح ما كان بينه وبين صاحبه، لم ينتظرْ أن تجمعَهما الصُّدفة، ولا أن يتدخلَ بينهما الناس، حتى الخُصومة لها أدب، ومن لا يملك أدب الخصومة فلا يُؤمن جانبه، فكونوا نُبلاء إذا تخاصمتم!

ما أشبه موقف عُمر بموقف موسى عليه السلام الذي حين غضبَ ألقى الألواح، فلما ذهبَ عنه الغضب أخذها!

وٱنظُرْ لأدبِ أبي بكرٍ ونُبلِه، فحين رأى النبيَّ ﷺ في صفِّه لم يهُنْ عنده عُمر، وسارعَ للاعتراف أنه هو الذي أخطأ!

كُنْ نبيلاً واعترفْ بخطئك، إبليسُ وآدم عليه السلام عصيا الله، الأول رَفض السجود، والثاني أكل من الشجرة المُحرمة، وما زال إبليسُ يُكابر حتى طُرِدَ من رحمة الله، وما زال آدم يستغفر حتى صار نبياً!

ثـم ٱنظُـرۡ لوفـاءِ النبـيِّ ﷺ كيـف يذكـر فضـل أبـي بكـر عليـه! مـع أنَّ فضـلَ النبـيِّ علـى أبـي بكـر أكبـر، يكفـي أنـه قـد هـداه إلـى اللّٰه، ولكـن النبـي الوفـي يُخبـر النـاس دون حـرج كيـف أن أبـا بكـر أفنـى نفسَـه ومالَـه فـي خدمتـه، فكُـنۡ نبيـلاً ولا تنـسَ يـداً مُـدَّتۡ إليـكَ عندمـا ضاقـتۡ الدنيـا بـك!

أَفَتَّانٌ أنتَ يا مُعاذ؟

كان مُعاذ بن جبل يُصلي العِشاء مع النبيِّ ﷺ، ثم يرجعُ إلى قومه ويصلي بهم...

فرجعَ ذات يوم فصلَّى بهم، وصلَّى خلفه فتىً من قومه، فأطالَ مُعاذٌ الصلاة، فتركَ الفتى الصلاةَ، وصلَّى وحده!

فلمّا انقضت الصلاة أخبر الفتى مُعاذاً بإطالته، وأنه تركه وصلَّى وحده، فقال له معاذ: إنَّ هذا نفاق، لأُخبِرنَّ النبيَّ ﷺ!

فلَقِيَ مُعاذ النبيَّ ﷺ فأخبره، فأرسلَ إلى الفتى وسأله، فقال: يا رسول الله، يُطيلُ المكث عندكَ، ثم يرجع، فيُطوِّل علينا في الصلاة.

فقال له النبيُّ ﷺ: أَفَتَّانٌ أنتَ يا مُعاذ؟!

ثم قال للفتى: كيف تصنعُ يا ابن أخي إذا صليت؟

قال: أقرأ بفاتحة الكتاب، وأسأل الله الجنة وأعوذ به من النار، وإني لا أدري ما دندنتك ودندنة مُعاذ! أي لا أنتبه كثيراً للقراءة.

فقال له النبيُّ ﷺ: إني ومُعاذ حول هاتين نُدندن! أي نقرأ حول الجنة والنار!

وكان قد أُشيع أن العدو قد اقتربَ، ولم يرُقْ للفتى أن نعته مُعاذ بالمُنافق، فقال: سيعلمُ مُعاذٌ إذا قَدِمَ القوم.

فخرجَ الفتى في جيش المسلمين، ورزقه الله الشهادة، فقال النبيُّ ﷺ لمُعاذ: ما فعلَ خصمي وخصمك؟!

فقال: يا رسول اللّه، صدَقَ اللّه وكذبتُ، لقد استشهد!

كان النبيُّ ﷺ إذا صلَّى بالناس ينوي أن يُطيلَ القراءة بما يحتملُ المصلون خلفه، فيسمع بكاء صبيٍّ في الخلف كانتْ أمه قد أحضرته معها لتُصلِّي معه، فيُخفف الصلاة كي لا يشغل قلب الأم على ولدها!

وكان يأمر الأئمة أن لا يُطيلوا في الصلاة، فيقول: إذا صلَّى أحدكم بالناس فليُخفف فإن فيهم الضعيف والسقيم وذا الحاجة، وإذا صلَّى أحدكم لنفسه فليُطوِّل ما شاء!

وجاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: إني أتأخرُ عن صلاة الصبح لأجل فُلانٍ مما يُطيلُ بنا، فغضِبَ النبيُّ ﷺ وقال: يا أيها الناس إنَّ منكم منفرين، فأيكم أمَّ الناس فليُوجزْ، فإن من ورائه الكبير والضعيف وذا الحاجة!

التطويلُ في الصلاةِ مجلبةٌ للمشقة على الناس، وهو خلاف السُّنَّة، فترفَّقوا بالناس ولا تصدُّوهم عن صلاةِ الجماعة!

درسٌ آخر، لا تدخلوا في نوايا الناس، ولا توزعوهم على الجنة والنار، لا أحد يعلمُ ما في القلوب إلا خالقها، ورُبَّ مُتذمِّرٍ من أمرٍ إنما يتذمّر على الشيخ أو العالِم ولا يتذمّر على الشرع والشريعة، فلا تجعلوا من أنفسكم بمقام النُبُوة، والفتى الذي نعتَهُ مُعاذ بالنفاق نالَ الشهادة تحت لواء النبيِّ ﷺ، فتأدَّبوا مع اللّه!

فإنّكَ من أهلها!

وأخيراً أَذِنَ اللّه تعالى للمُسلمين الذين أُوذوا في دينهم، وأُخْرِجوا من ديارهم بغيرِ حقٍّ بالقتال! ومن حكمة اللّه تعالى في تأخيرِ القتال هو تربيةُ الأُمَّة على العقيدة أولاً، لأن اللّه سبحانه أرادَ أن يكون الجهاد وسيلةً لغايةٍ نبيلةٍ هي إعلاء كلمته في الأرض، لا غاية بحد ذاتها، ولو أُذِنَ بالقتال قبل أن تتربَّى الأُمَّة حقَّ التربية لربما فهمتْ أن القتال مطلوب لذاته، أو هو وسيلة للثأر، وقد أراد سُبحانه أن يجعلَ الجهاد عبادة، ويُؤدِّبَ السَّيف بالقرآن، وإذا أراد اللّه سبحانه شيئاً كان، وأجملُ الشهادة ما شهد بها الأعداء، وقد قال بعض المُستشرقين: ما عرفَ التاريخ فاتحاً أرحم من المُسلمين!

وخرجَ النبيُّ ﷺ بأصحابه يُريدُ قافلة قُريش، فغيَّرَ أبو سُفيان خطَّ مسيرها وأرسلَ إلى قُريش لتُنجده، أرادَ المُسلمون شيئاً، وأرادَ المُشركون شيئاً آخر، ولكن اللّه أرادَ الحرب، فكانتْ غزوة بدر حيث سلَّ الإسلام سيفه للمرة الأولى دفاعاً عن عقيدته، وسيبقى هذا السَّيفُ مسلولاً، والجهادُ قائماً، لا يُبطله عدل عادل، ولا جور جائر، حتى يُقاتلُ آخر هذه الأُمة الدجَّال كما قال سيدنا، وإنه إذا قال صدق!

ووقفَ النبيُّ ﷺ بين الصَّفين يُحرِّضُ أصحابه على القتال، فقال لهم: قوموا إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض!

وكان عُمير بن الحمام الذي أخرجَ تمراتٍ من جُعبته ليأكلها على مقرُبةٍ منه، فقال له: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟

فقال له النبيُّ ﷺ: نعم!

فقال: بَخٍ بَخٍ!

فقال له: ما حملكَ على قول بخٍ بخٍ؟

فقال: لا واللّهِ يا رسول الله إلا رجاءً أن أكون من أهلها!

فقال له: فإنك من أهلها!

فألقى التمرات التي في يده، وقال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة!

ثم اقتحمَ جيشَ المُشركين، فقاتلَ حتى استشهد، وهنيئاً له شهادة تحت لواء النبيِّ ﷺ!

هنيئاً لكلِّ من فتحَ اللّهُ له باباً للجهاد، فأحسنَ دخوله، فقاتلَ عدواً واضحاً، إعلاءً لكلمةِ اللّهِ في الأرض، ودفاعاً عن شرعه، ولم يُصِبْ دماً حراماً، ولم يُؤذِ مُسلماً في دمه وماله وعرضه، هنيئاً لهؤلاء الذين تُغفرُ لهم ذنوبهم عند أول قطرةٍ تنزلُ من دمائهم، ويأمنون فتنة القبر، لأن الجزاء من جنس العمل وكفى ببارقةِ السيوف فوق رؤوسهم فتنة، فاللهم شهادةً!

قد حلتُ بينكِ وبين الرَّجل!

جاء أبو بكر لزيارة النبيِّ ﷺ، وقبل أن يستأذنَ ويدخل، سمعَ عائشة ترفعُ صوتها على النبيِّ ﷺ! ثم أُذِنَ له فدخلَ غاضباً وقال لابنته: أترفعينَ صوتكِ على رسولِ الله؟! ثم كأنه أراد أن يجذبها إليه ليُعنِّفها فحال النبيُّ ﷺ بينه وبينها، فلما خرجَ أبو بكر، جعلَ النبيُّ ﷺ يقول لعائشة: «ألا ترين أني قد حلتُ بينك وبين الرَّجل»! ثم جاء أبو بكر بعدها، فوجد النبيَّ ﷺ وعائشة يضحكان، فقال لهما: أشرِكاني في سِلمِكُما كما أشركتماني في حربكما!

قلتُ أكثر من مرةٍ أنَّ أحبَّ الأحاديث النبوية إلى قلبي هي تلك التي تُظهرُ بشريَّة النبي ﷺ، وأحبُّ حوادث السيرة إليَّ تلك التي تُرينا بيوت النبيِّ ﷺ، وبيوت الصحابة في هيئتِها الاجتماعية والحياتية الطبيعية التي تُشبه حياتنا تماماً، والسبب في هذا أن الناس اعتادوا أن ينظروا لحياته ﷺ وحياة أصحابه بعين الحُبِّ والإجلال حتى كادوا يعتقدون أن حياتهم لا مشاكل فيها ولا هموم، فتأتي هذه القصص والحوادث التي أُحبها لتضع النقاط على الحروف، وتُخبرنا أن النَّاس هم النَّاس مهما بلغوا من الإيمان عتياً!

الخلافات الزوجية تقعُ في كل البيوت، تفرضُها المعاملة اليومية، وهموم الحياة، وتقلُّب النفس البشرية من طور إلى طور، وعندما ترفعُ عائشة صوتها على النبيِّ ﷺ فالأمر لا علاقة له

بمنسوب الإيمان، ولا مقدار التقوى، إنها الحياة يا سادة، فمهما بلغتْ زوجتك من الإيمان لن تُدرك عائشة، ومهما بلغْتَ من الإيمان لن تبلغ إيمان النبيِّ ﷺ، وها هي مُشكلة زوجية قد حدثَتْ، والحمد للّهِ أن الأوائل نقلوها إلينا حتى نتعلَّم منها الدروس والعِبر!

الدرس الأول:

من كان يُمنِّي نفسه بحياةٍ زوجيةٍ بلا مُشكلات فهو واهم أو حالم، ولكن المشكلات إنما يجب أن تكون سحاب صيف يمرُّ سريعاً، والبيوت إنما يجب أن تُدار بالتغاضي والتراحم، أنتَ تتنازل مرةً، وهي تتنازل مرةً حتى لا تكون البيوت ساحات حرب!

الدرس الثاني:

تتسعُ رقعة المشاكل الزوجية حين يتحزَّب الأهل لأولادهم، فالزوجة عند أهلها على حق مهما فعلتْ، والزوج عند أهله على حق مهما فعل، وهذا ليس من العدل والمنطق في شيء، الأصل أن يتدخَّلوا للإِصلاح فقط، فالبُيوت ليستْ محاكم لِرَدِّ الحقوق، بمقدار ما هي مكان للتراحم والتعايش والتغاضي والتجاهل، والأنبل من الإصلاح أن يأخذ الأهل على يد ابنهم أو ابنتهم عندما تُخطئ ولا ينسون فضل الصِّهر أو الكنة، وما أنبل أبا بكر يوم ما هانَ عليه أن ترفع ابنته صوتها على زوجِها!

الدرس الثالث:

الخِلاف شيء، وأن تهونَ عندكَ زوجتكَ، أو يهونَ عندكِ زوجكِ شيء آخر!

النُبلاء يظهرون في الخصومات، وٱنظُرْ لنُبل النبي ﷺ لم تَهُنْ عليه عائشة حتى حين رفعتْ صوتها عليه، لقد منعَ أباها أن يتعرَّضَ لها، الخِلافات طقس لا مناخ، وعلى الطقس أن لا يستمر طويلاً!

الدرس الرابع:

على الفور أعادَ النبيُّ ﷺ المياه إلى مجاريها، لقد مازحَ عائشة قائلاً: ألا ترين أني قد حلتُ بينكِ وبين الرجل؟! يا لنُبل النبوة إنه يسترضيها أيضاً!

اقلبوا الصفحة بسرعة،

بعض المواقف لا تحتاج إلى كثير من العناد،

وعزة النفس أيضاً ليس موضعها بين الزوج وزوجته!

إنَّ فيكَ خصلتين يُحبهما اللّه!

كان الأحنف بن قيس لا يغضبُ أبداً، حتى سُمِّيَ «حليم العرب»، وعنه كانوا يقولون: هذا الذي لا يغضبُ أبداً، ولكنه إذا غُضِبَ، غضَبَ له مئة ألفٍ لا يدرون فيمَ غضب!

وقِيل للأحنف بن قيس يوماً: ممن تعلّمتَ الحِلم؟

فقال: من قيس بن عاصم، رأيتُه قاعداً بفناء داره، محتبياً بحمائل سيفه، يُحدِّثُ قومه، حتى أُتِيَ له برجلٍ مربوطٍ ورجلٍ مقتول، وقالوا: هذا ابن أخيكَ قتلَ ابنكَ! فما قطعَ كلامه ولا اهتزَّ، ولما انتهى قال لابن أخيه: يا ابن أخي أسأتَ إلى رحمكَ ورميتَ نفسكَ بسهمك! وقال لابنٍ له: قُمْ إلى ابن عمكَ فحُلَّ وثاقه، وادفن أخاكَ، وسُقْ إلى أمك مئة ناقة دية ابنها، فإنها غريبة في قومنا!

عندما جاءتْ قبيلة عبد القيس إلى النبيِّ ﷺ لتُسلم، سارعَ أفرادُ القبيلةِ بالدخول عليه، إلا سيدهم أشجُّ عبد القيس، بقي عند رحالهم، فربطَ الجِمال، ولبسَ أحسن ثيابه، وأخذَ شيئاً من الطِّيب، وأتى النبيَّ ﷺ، فقرَّبَه منه، وأجلسَه إلى جانبه، وقال له: إنَّ فيك خصلتين يُحبهما اللّه: الحِلمُ والأناة!

فقال له الأشجُّ: أجُبِلْتُ عليهما أم تخلَّقْتُ بهما يا رسول اللّه؟

فقال له: بل جُبِلْتَ عليهما!

نـصٌّ صريـحٌ قاطـعٌ أن النـاس يُولـدون بطبـاعٍ مختلفـةٍ، جبلَهـم اللّٰه سـبحانه عليهـا فـي بطـون أمهاتهـم، وهـذا واقـع نعيشـه يوميـاً ونشـاهده عيانـاً، إننـا نـرى فـي البيـت الواحـد، الكريـم والبخيـل، الهـادئ والعصبـي، الشـهم والأنانـي، الحليـم والغضـوب!

ولكن هـذا ليس مُبـرِّراً لأن ينسـاق الإنسـان وراء طبـعٍ سيـئٍ جُبـل عليـه، لأن الدنيـا دار امتحـان ومُجاهـدة، والنجـاح والرسـوب إنمـا يكـون بمُخالفـةِ الهـوى أو الانسـياقِ لـه!

حتـى الأحنـف بـن قيـس كان يقـول: لسـتُ حليمـاً ولكنـي أتحلَّـم لأُجبـر نفسـي عليـه!

وخيـرٌ منـه مـا رواه الخطيـب فـي تاريـخ بغـداد مـن حديـث أبـي هريـرة أنَّ النبـيَّ ﷺ قـال: إنمـا العلـم بالتعلُّـم، وإنمـا الحِلـم بالتحلُّـم، ومـن يتحـرَّ الخيـرَ يُعطـه، ومـن يتـوقَّ الشَّـر يوقـه!

ولتبسـيطِ الفكـرة، الإنسـانُ مجبـولٌ علـى الشـهوة ولكـن هـذا لا يُبـرر الزنـى، ولكـن اللّٰه سُـبحانه جبلـه عليهـا امتحانـاً ليـرى كيـف يُشـبع شـهوته حـلالاً أم حرامـاً، يحكمهـا أو تحكمـه!

والإنسـانُ مجبـولٌ علـى حـب المـال، ولكـن هـذا لا يُبـرر السـرقة، ولكـن اللّٰه سُـبحانه جبلَـه عليـه امتحانـاً ليـرى مـن يكسـب بالحـلال ومـن يكسـب بالحـرام، مـن يُـؤدِّب شـهوته ومـن ينسـاق لهـا انسـياقَ البهائـم المحكومـة بغريزتهـا لأن لا عقـل لديهـا!

أتدري فيما يتناطحان؟

كان النبيُّ ﷺ يمشي ومعه أبو ذرٍّ الغفاري، فرأى شاتين يتناطحان، فقال له: يا أبا ذر، أتدري فيما يتناطحان؟

فقال أبو ذرٍّ: لا.

فقال له النبيُّ ﷺ: ولكنَّ اللّه يدري، وسيقضي بينهما يوم القيامة!

الدُّنيا ليستْ نهاية المطاف، فلا تبتئس لحقٍّ لكَ لم تأخذه فيها، ولا تفرح بحقٍّ غصبْتَه من غيرك، في الآخرة ستُقام المحكمةُ التي تشهدُ فيها الجوارح، يدُك التي أخذتْ ما ليس لها، وعينُك التي نظرتْ إلى ما لا يحِلُّ لها، وفمُكَ الذي أكلَ الحرام، ولسانُك الذي آذى الناس، شهودُكَ منكَ وعليكَ، فأَحسِنْ اختيار شهودك!

أيتها البنتُ التي حُرمتْ من الميراث لأنها بنتٌ، واللّهِ لتفرحينَ بحقّكِ الذي ستأخذينه بين يدي اللّهِ أكثر من فرحكِ بميراثكِ لو أنكِ أخذتِه في الدنيا!

أيتها الزوجة التي أُوذيتْ ضرباً مبرحاً وكلاماً جارحاً فصبرتْ واحتسبتْ وقالتْ: حسبي اللّه ونعم الوكيل، واللّهِ لتأخذين حقكِ بين يدي اللّه وستفرحين به أكثر من فرحكِ بدلالِ الدنيا لو أخذتِهِ!

أيها العاملُ المسكين الذي سمعَ عباراتِ الإهانة، وأُوذيَ في كرامتِه وجسدِه، فصبرَ واحتسبَ كي لا يجوع أولاده، واللّه لتأخذنَّ حقكَ بين يدي اللّه، ولتفرحنَّ به أكثر من فرح التوقير لو نلته في الدنيا!

أيها التقيُّ النَّقيُّ الذي اتُهِم في دينه، ورُميَ بالتشدُّد والتخلُّف، واللّهِ لتأخذنَّ حقك بين يدي اللّه، ولتفرحنَّ به أكثر من فرحك ولو نصبوا لك منبراً في الدنيا!

أيتُها التي أُوذيت في عرضها، وقيل فيها ما ليسَ فيها!

أيها الذي اتُهم بأمانته وسُجن ظلماً!

أيتها التي قيل عن حِجابها مُعقدة ودقة قديمة!

أيها الذي أُخذ منه بالواسطة وظيفة كان يستحقها!

استبشروا جميعاً، إنَّ الرَّب العادل الذي سيقضي بين شاتين يتناطحان، وقد سقطَ عنهما التكليف، فسيقضي بالعدلِ بينكم وبين خصومكم.

ويا لسعد من أتى اللّه مظلوماً ولم يأته ظالماً!

أتدرون من المُفلس؟!

كان النبيُّ ﷺ جالساً مع أصحابه، فسألهم: أتدرون من المُفلس؟
فقالوا: المُفلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع.
فقال: إنَّ المُفلس من أُمَّتي، الذي يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي وقد شتمَ هذا، وقذفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفكَ دمَ هذا وضرب هذا! فيُعطى هذا من حسناتِه وهذا من حسناتِه، فإن فنيَتْ حسناتُه قبل أن يقضيَ ما عليه، أخذَ من خطاياهم فطُرحتْ عليه ثم طُرح في النار!

يقولُ أحدُ التائبين: سببُ توبتي بائع مسكين مُتجوِّل، اشتريتُ منه شيئاً، ثم أدرتُ ظهري ومضيتُ، فقال لي: أين الحساب؟
فقلتُ له ساخراً: الحساب يوم الحساب!
فقال لي: صدِّقني أن تدفعَ لي اليوم أرخص لك من أن تدفع يوم الحساب!
فنزلتْ كلماته كالصاعقة عليَّ، ومن يومها وأنا أعملُ ليوم الحساب!

إن من الإفلاس أن تعملَ لغيرك!

أن تتعبَ في عباداتك، فتُصلِّي، وتصوم، وتُزكِّي، وتَحُجّ، فيكتبُ الملائكة في صحيفتك حسناتٍ كثيرة، ثم في المُقابل أنتَ مع

عباداتِك هـذه كالوحش الكاسـر مـع النـاس، تسـبُّ إنسـاناً، وتدخـلُ فـي عـرض إنسـان آخـر، تغصـبُ هـذا مـالاً، وتمنـعُ أُختـاً ميراثـاً، تضـربُ ضعيفـاً، وتظلـمُ مسكيناً، وتمشـي بالنميمـةِ بيـن النـاس، تشـي بزملائك فـي العمـل، وتفتـري علـى خلـقِ الله، فـإذا كان يـوم القيامـة وقـامَ النـاسُ للحسـاب، واجتمـع الخُصـوم بيـن يـدي الله، ونُشـرِتْ السـجلات التـي لا تُغـادر صغيـرة ولا كبيـرة، وبـدأ الحَكَمُ العـدل يُعيـدُ الحقـوقَ لأهلهـا، فيذهـب أجـر صلاتـك للـذي خُضـتَ فـي عرضـه، وأجـر صيامـك للـذي أكلـتَ مالـه، وأجـر زكاتـك للـذي آذيتـه، وأجـر صدقتك للـذي جرحتـه، ثـم لمـا تفنـى حسـناتك ويبقـى مظلومـون لـم يأخـذوا حقهـم أعطـوك مـن سـيئاتهم حتـى تُلقـى فـي النـار!

لا تكُنْ كالغنـي والسائق كما في هذه القصة:

عملَ سـائقٌ فقيـرٌ عنـد رجـلٍ غنـيٍّ عشـر سـنوات، ثـم مـاتَ الغنـيُّ وانقضـتْ عـدة الزوجـة، فقـررتْ أن تتـزوجَ السـائق لِمـا رأتـه مـن حُسـنِهِ وأخلاقـه، فصـارَ كل مـال الغنـي بيـن يديـه، فلمـا سُـئل عـن هـذا قـال: كنـتُ أظُـنُّ أنـي أعمـل عنـده فتبيَّـن لـي لاحقـاً أنـه هـو مـن كان يعمـلُ عنـدي ويجمـعُ لـي المـال!

فلا تجمع حسناتك لأحد!

ما تقولون في هذا؟!

ما كانوا يعرفون أنهم على موعد مع درس عظيم عمَّا قليل، النبيُّ ﷺ جالس وهم حوله، كلُّ شيءٍ كان عادياً، ليسَ هناك أمر مستجد من أمور الدنيا، ولا نزل الوحي بشيء من أمور الدين، ثُمَّ مرَّ رجلٌ فسلَّمَ ومضى...

فقال النبيُّ ﷺ لمن معه: ما تقولون في هذا؟

قالوا: رجل من أشراف الناس، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ

فسكتَ النبيُّ ﷺ ولم يقُل شيئاً، ثم بعد قليل مرَّ رجلٌ من فقراء المسلمين فسلَّمَ ومضى...

فقال لمن حوله: ما تقولون في هذا؟

قالوا: هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حَرِيٌّ إذا خطبَ أن لا يُزوَّج، وإنْ شفعَ أن لا يُشفَّع، وإنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ.

فقال: هذا خيرٌ من ملء الأرضِ من ذاك!

الناس هم الناس في كل عصر، تخدعهم المظاهر، ويسحر قلوبهم ما يروه ويسمعوه، ذلك أنهم اعتادوا أن ينظروا إلى الدنيا بعيون الدنيا، ولو نظروا إليها بعيون الآخرة لاختلفتْ أحكامهم حتماً!

الأناقة مطلوبة، ولكن ما أدراك أنه قد يكون خلف هذه البدلة الأنيقة قلباً عفناً، وخلف هذا الفستان «الماركة» نفسية مريضة!

الغنى شيء جميل، ولكن ما أدراك أنه قد يكون خلف هذا الثراء مالٌ حرام جُمع بالغش والظلم والربا وأكل أموال الناس بالباطل!

اللسان الحلو فاتن، ولكن ما أدراك أنه قد يكون خلف هذا الكلام المعسول ذئب مُتربِّص، وحيَّة رقطاء تنتظر لحظة اللسع!

صحيح أنه أُمرنا أن نحكم على الظواهر وأن لله السرائر، ولكن هذا لا يعني أن يكون المرءُ ساذجاً ولا يرى إلا ما تُريه إياه عيناه!

البطولة الحقيقية ليستْ في رفع الأوزان في النوادي الرياضية وإنما في رفع الغطاء الدافئ لصلاة الفجر!

والأناقة الحقيقية ليستْ في البدلة الرسمية ولا المجوهرات، وإنما في نقاء القلب، وطِيب النفس، وحُب الخير للناس!

احكُمْ على الناس بقُربهم من الله وبُعدهم عنه، بإحسانهم للخلق وإساءتهم إليهم!

البطلُ الحقيقي هو الذي يتوقَّف عند شرع الله، والجبان هو الذي ينتهك حدود الله ولو انتصرَ كل يوم في معركة!

خطبَ شابٌ فتاةً من أبيها، فلم يسأله ماذا تعمل، ولا أين ستُسكنها، ولا كم راتبك، وإنما سأله سؤالاً واحداً أذهله، قال له: في أية ساعة أذان الفجر؟

فلم يعرف!

فقال له: ليس عندنا بنات للزواج!

فإنهما كانا متحابين!

بينما النبيُّ ﷺ يُشرفُ على دفن شُهداء غزوة أُحدٍ قال: ادفنوا عمرو بن الجموح وعبد اللّٰه بن حرام في قبرٍ واحدٍ فإنهما كانا متحابين!

على أن الموت ليس فِراقاً، جميعنا سنموتُ نهاية المطاف، الفِراق الحقيقي أن يكون أحدنا في الجنة والآخر في النار! ومن أجمل ما قرأتُ قول أحدهم عن جدته، قال: كانتْ تُوقظنا لصلاة الفجر، وتقول انهضوا لا نُريد أن ينقُصَ في الجنة منا أحد!

من أحبَّكَ حقاً هو الذي خافَ عليكَ من النار، ويا لحُبِّ إبراهيم لآزر وهو يقول له: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾

وٱنظُرْ لجمال قول النبيّ ﷺ: فإنهما كانا مُتحابين!

ما أجمل أن يُعرف الإنسان بين الناس بصفاته العذبة، أن يُعرف بالمُحب، والشهم، والكريم، والنبيل، إذا ذُكر اسمه لمعتْ صورة وجهه في أذهان السامعين كأنها قلب أحمر، كذاك الذي نضعه وراء العبارات الجميلة التي نكتبها!

ترجمَ الذهبيُّ رحمه اللّٰه في سِيَرِ أعلام النُّبلاء لمحمد بن ميمون فقال: أبو حمزة السُّكري، محمد بن ميمون المَرْوَزِي، ولم يكن يبيعُ السُّكر، وإنما سُمِّيَ بالسُّكري لحلو كلامه!

فيا تُرى لو أراد الذين يعرفوننا أن يستبدلوا أسماءنا بصفاتنا التي نُعاملهم بها فماذا عساها تكون؟!

ماذا سيختار الأبوان لنا اسماً، الابن البار المرضيُّ المُبارك، أم الابن العاق الفظُّ السليط؟!

ماذا ستختار الزوجة اسماً لنا، الزوج الحنون الكريم المُتسامح، أم الزوج العنيف القاسي؟!

ماذا سيختار الزوج لكِ اسماً، الحنونة المُحبة الكريمة الصبورة، أم سليطة اللسان قاسية القلب جارحة الكلام؟!

ماذا سيختارُ الجار لكَ اسماً، الشهمُ المعطاء المُسالم، أم الغادر الجشِع سيىء الخُلق؟!

ماذا سيختار زملاء العمل لكَ اسماً، حافظ السر الأمين المُهذب المُؤدب، أم الواشي والفاضح؟!

أسماؤنا لنا أما صفاتنا فللناس، وهم الذين يضعون لنا صفةً بناءً على تعاملنا معهم، ويوماً ما سترحل الأسماء وتبقى الصفات، فاتركوا وراءكم من يترحم عليكم!

إنَّ لي فيهم نسباً!

كانتْ القبيلةُ في الجاهلية إذا بُشِّرتْ بميلادِ شاعرٍ فيها أضرمتْ النارَ في مضاربِها ثلاث ليالٍ احتفاءً، فالشاعرُ في ذلك الوقت هو وزارة إعلام القبيلة! وعن الشِّعر قالوا: كان العرب ولم يكُن لهم من علمٍ غيره! وهذا من بابِ بيانِ سطوةِ الشِّعرِ، وأهميتِه، وشغفِهم به، وإلا فقد عُرف فيهم الطب، والاستدلال بالنجوم للمسير، واتِّباع الأثر، وكثير من الذكاء والفراسة!

ولأنَّ النبَّي ﷺ يعرفُ منزِلَةَ الشِّعرِ في العرب، وأنَّ المعركة مع قُريش ليستْ معركة سيوف فقط، قال: اهجوا قريشاً، فإنه أشدُّ عليهم من رشقِ النّبلِ!

فأرسلَ إلى عبد اللّٰه بن رواحة، وقال له: اهجُهُم!

فهجاهم، ولكن هجاءه لم يُرضِ النبي ﷺ!

فأرسلَ إلى كعب بن مالك، فلم يجِد شِعره يفي بالغرض!

ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخلَ عليه قال حسان عن نفسه: قد آن لكم أن تُرسلوا إلى الأسدِ الضاربِ بِلِسانه! ثم قال للنبيِّ ﷺ: والذي بعثكَ بالحقِّ لأفرينَّهم بلساني فريَ الأديم!

فقال له النبيُّ ﷺ: لا تعجَلْ، فإنَّ أبا بكرٍ أعلمُ قُريشٍ بأنسابها، وإنَّ لي فيهم نسباً حتى يُلخِّصَ لكَ نسبي!

فذهبَ حسانُ إلى أبي بكر، ثم رجعَ إلى النبيِّ ﷺ وقال له: يا رسول اللّٰه، قد لخَّصَ لي أبو بكر نسَبَكَ، لأسُلَّنَّكَ منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين!

فهجاهـم حسَّـان، ورضـيَ النبـيُّ ﷺ هجـاءه، وقـال لـه مُشـجعاً: اهجُهُـم وروح القُـدس معـك!

الشَّـاهد فـي القصـة أن النبـيَّ ﷺ علـى عدائـه مـع قُريش، لـم يهُـن عنـده نسـبه وقرابتـه ورحمـه، ورغـم أنَّ القضيـةَ كفـرٌ وإيمـانٌ حيـث لا مُواربـة ولا مُجاملـة، إلا أن الأصيـلَ لا يَذُمُّ عرضَـه، ولا يهجـو رحمَـه، إنمـا يهجـو الفكـرةَ المشـركةّ، والنهـجَ الأعـوج!

وسـبب قـول النبـيِّ ﷺ إنَّ لـي فيهـم نسـباً، هـو أن الـذي هجـاه هـو ابـن عمـه أبـو سُـفيان بـن الحـارث بـن عبـد المُطلـب، فخشـيَ أن يطـال هجـاء حسـان عمّـه، وجـده، وأرحامـه، وكان حسَّـان علـى قـدر المسـؤولية والإبـداع!

فـي قضيـةِ الشـركِ والإيمـانِ لـم يهُـنَّ علـى النبـيِّ ﷺ نسـبه ورحمـه، ونحـن اليـوم نجـد أن العائلـة إذا اختلـف أفرادهـا علـى شـيءٍ مـن الدنيـا نشـروا أعـراض بعضهـم بعضًـا بيـن النـاس، وفـي مواقـعِ التواصـلِ، وفجـروا فـي الخصومـة، وتناولـوا الأحيـاء والأمـوات دون أدنـى وازعٍ مـن ضميـرٍ ولا أخـلاق!

أن يُطالِـبَ الإنسـان بحقـه شـيء، وأن يكـون بذيئـاً، قليـلَ أصـلٍ وأخـلاقٍ وديـنٍ شـيءٌ آخـر!

إن الغايـة لا تُبـرر الوسـيلة، نحـن أُمَّـةُ الأخـلاقِ، وفـي ديننـا طُهـر الغايـة يُحتـم البحـث عـن طهـر الوسـيلة!

أرسلَ النبيُّ ﷺ جيشاً إلى الحُرَقَة وهم من قبيلة جُهينة، سُمُّوا بذلك لمعركة كانتْ بينهم وبين بني مرة بن ذبيان في الجاهلية فأحرقوهم بالسِّهام لكثرةٍ ما قتلوا منهم!

وصلَ الجيشُ صباحاً، ودارتْ معركةٌ سُرعان ما انتصرَ فيها المُسلمون، وفرَّ منهم رجلٌ فلحِقَه أُسامة بن زيد ورجل من الأنصار، فلما حاصراه قال: لا إله إلا اللّه!

فتوقَّفَ الأنصاريُّ ولكنَّ أسامة بن زيد طعنه بالرمح فقتله!

فلما رجعوا إلى المدينة، وعلِمَ النبيُّ ﷺ بالأمرِ قال لأُسامة: أقتلْتَه بعد أن قال لا إله إلا اللّه، فكيف تصنعُ بلا إله إلا اللّه إذا أتتكَ يوم القيامة!

فقال أسامة: يا رسول اللّه، قالها متعوِّذاً/خوفاً من القتل!

فقال له النبيُّ ﷺ: أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟!

فتمنى أُسامة أنه لم يكن قد أسلم من قبل، وأن إسلامه كان اليوم حتى لا يكون في صحيفتِه أنه قد قتلَ رجلاً قال لا إله إلا اللّه رغم أنه كان مُحارباً لهم، ولو تمكَّن منهما لَقَتَلَهُما، وغلبَ على ظنِّه أنه قالَها خوفاً ليحمي نفسه وليس عن إيمان، لذلكَ اعتزلَ أُسامة كل الفتن والحروب التي دارتْ بعد ذلك بين المُسلمين فلم يُحاربْ مع أحدٍ ولا ضد أحد!

أول ما يُقضى به يوم القيامة في الدِّماء، فلا شيء أعظم ذنباً عند اللّه بعد الشِّرك إلا قتل الأنفس التي حرَّم اللّه قتلها، مُسلمة كانت أم كافرة! وإن أقبح ما ابتُلِيَ به المسلمون اليوم الاستهانة بالدماء!

وممـا ابتُلـيَ بـه النـاس أيضـاً هـو الدخـول فـي نوايـا النـاس! مـع أنَّ القـاعـدة الفقهيـة للحُكـم علـى الأفعـال أنَّ لنـا الظـواهـر واللّه سـبحانه يتولَّى السـرائر،

ولكننـا مـا زلنـا نسـمعُ مـن يقـول إن فلانـاً يتصـدَّق ليُرينـا أنـه غنـيٌّ وكريـم ويملـك مـالاً كثيـراً يُريـدُ بذلـك أن «يتفشـخر»!

ومـا زلنـا نسـمعُ مـن يقـول إن فلانـاً يذهـبُ إلـى المسـجدِ ليـراه فـلان فيقبـل أن يُزوِّجَـه ابنتـه!

غـابَ حُسْنُ الظـنِّ وحـلَّ مكانـه سـوء الظـنِّ حتـى صـارَ النـاس إذا رأوا فلانـاً فـي بيـتِ فـلان قالـوا : اللّه أعلـم مـا السـيرة! لا أحـد يقـول لعلَّهمـا اجتمعـا علـى خيـر، ولعـلَّ هنـاك فقيـراً يُريـدان أن يَقضيـا حاجتـه، ولعـلَّ هنـاك مُشـكلة أُسـرية يعمـلان علـى حلِّهـا!

واللّهِ إن الإنسـان بالـكاد أن يفهـمَ نيتـه، وأحيانـاً تختلـطُ عليـه الأمـور بيـن حـظِّ النفس والهـوى وإرضـاء اللّه، فكيـف يجـزمُ النـاس فـي نوايـا النـاس؟!

وما أردتِ أن تعطيه؟!

كان عبد اللّٰه بن عامر طفلاً صغيراً، ودَعَتْهُ أُمه ليأتي إليها فقالت: ها تعالَ أُعطيك!

والنبيُّ ﷺ جالسٌ عندهم فقال لها: «وما أردتِ أن تُعطيه»؟

قالت: أُعطيه تمراً.

فقال لها: «أما إنكِ لو لم تُعطِه شيئاً كُتِبتْ عليكِ كذبة»!

كان الإسلام حريصاً على تربيةِ الأطفالِ تربية سوية، لينشأوا بعد ذلك جيلاً يحملُ أعباءَ الدعوةِ باقتدار، ففاقدُ الشيءِ لا يُعطيه، ولمَّا كان الأطفال هم المستقبل، حَرصَ الإسلامُ على التربيةِ الإيجابيةِ لضمان الغد، وكما يقول خُبراء التربية: تربيةُ شخصية طفل أسهل من علاج شخصية مُراهق!

لهذا كانت التربية مُنذ نُعومة الأظفار

ما يتفوَّهُ به الأهل للأطفال عند البكاء هزلاً كالوعد بإعطاءِ شيءٍ إن سكتَ، دون أن يُعطوه، أو التخويف بأشياء غريبة كأبي كيسٍ الذي يأخذُ الأطفال، أو أبي قدم مسلوخةٍ الذي يُعاقب الأطفال الذين يبكون هو من الكذبِ أوّلاً، ومن هدمِ نفسياتِ الأطفالِ ثانياً!

الأولادُ زرعٌ وغِراسٌ، ونحن نهاية المطاف لا نحصد إلا ما نزرع!

عندما يتربَّى الطفل على الخوف فإنه يتعلَّم الكذب لينجو من العقاب!

وعندما يتربَّى على العُنف فإنه يتعلَّم القسوة وتنشأ فيه حاسة الانتقام!

وعندما يتربَّى على الكذب فإنه يفقدُ الثقةَ!
وعندما يتربَّى على الفوضى فإنه يتعلَّم الاستهتار!
وعندما يتربَّى على قِلةِ الاحترامِ والتقديرِ فإنه يعتاد الذل ويفقد الإحساس بالكرامة!
وعندما يتربَّى على الأنانية يتعلَّم الجشع!

الأطفالُ نباتٌ صغير، فانظروا كيف تزرعون نباتكم، وقد قال الشاعر:

إن الغصون إذا قوَّمتها اعتدلتْ
ولا يلينُ إذا قوَّمته الخشبُ

فلا تُضيِّعه صغيراً بسوء تربيتك، وبأجواء بيتِك المشحون بالعُنف الأُسري، والكذب، وقلة الاحترام ثم تأتيه كبيراً تُريدُ أن يَبِرَّكَ كما يَبِرُّ الأولادُ آباءهم وأمهاتهم!

جاءَ رجلٍ إلى عمر بن الخطاب يشكو إليه عقوق ابنه، فاستدعى عمر الابن وقال له: أما علمتَ أن لأبيك عليكَ حقاً؟
فقال: قد علمتُ يا أمير المؤمنين ولكن أليس لي حقاً عليه؟
قال: بلى، حقك أن لا يختار لك أماً تُعيَّرُ بها، وأن يُسمِّيَك اسماً حسناً، وأن يُؤدِّبَك ويُربِّيَك!
فقال الابن: أما أبي فاختار أُمي من الإماء وأُمهات إخوتي من الحرائر، فهم يقولون لي يا ابن الأَمَة، وأسماني جُعلاً/اسم حشرة، وتركني للرعي فلا أحفظُ حديثاً ولا قرآناً!
فقال عمر للأب: لقد عَقَقْتَهُ قبل أن يعقَّك!

لا تلعنوه!

كان على عهدِ النبيِّ ﷺ رجلٌ اسمه عبد اللّه وكان يُلقَّبُ حِماراً، وكان خفيف الدَّم حُلو الدُّعابة، يُضحِكُ النبيَّ ﷺ بين الفينةِ والأُخرى إذا التقيا.

وكان عبد اللّهِ مُبتلى بشربِ الخمر، فجلدَه النبيُّ ﷺ، ثم إنه شرِبَ مرةً أخرى، فجِيء به إلى النبيِّ ﷺ، فأمر بجلده، فقال رجلٌ من الحضور: اللهم العنه، ما أكثر ما يُؤتى به!

فقال النبيُّ ﷺ: لا تلعنوه، فواللّهِ ما علمتُ إلا أنه يُحبُّ اللّه ورسوله!

إنَّ المعاصيَ أمراضُ الأرواح تماماً كما أنَّ الآفاتِ أمراضُ الأجسام، وكما ننظرُ إلى مريضِ الجسدِ بعين الشفقة والتعاطف ثم نُردد: الحمد للّه الذي عافانا مما ابتلى به كثيراً من خلقه، علينا أن ننظرَ إلى ذنوب الناس كأننا عباد لا كأننا أرباب، وعلينا أن نُشفقَ عليهم، ونحمدَ اللّه على العافية، وأنه عصمَنا مما وقعوا هم به، فواللّه ما استقامَ أحدٌ بقوته ولكن العاصِمَ اللّه!

ثُمَّ إن لكلٍّ منا معاصٍ لم تظهر للناسِ لأنَّ اللّه سترها علينا، فمن أدب المستور أن لا يَفضح كي لا يرفع اللّه ستره عنه، لأن الجزاء من جنس العمل!

هذا الكلام ليس تبريراً للمعاصي، ولا حثّاً على ارتكابِها والاستهانةِ بها، وإنَّما لتغييرِ النظرة إلى أهل الذنوب من المُسلمين!

في كل إنسان بذرة خير، فلا تحملوا مفاتيح الجنة والنار!

نعم الحجاب فريضة، ولكن من قال لكَ أن التي لا تتحجَّب لا تصوم ولا تُصلي، ولا تقرأ القرآن، كلنا نعرف فتيات لسنَ مُحجَّبات ولا ينقصهُنَّ من الإسلام إلا الحِجاب، هؤلاء علينا أن نأخذَ بأيديهن إلى الله، باللُّطفِ واللينِ والكلمةِ الطيبة.

نعم الصلاةُ عمود الدين، ورأسُ الأمر، وهي أول ما يُسأل عنه المرء يوم القيامة، ولكننا جميعاً نعرف شخصاً لا يُصلي، ولكنه إذا أساء أحدٌ إلى النبيِّ ﷺ في حضرتِه لأقامَ الدنيا ولم يُقعدها دفاعاً عنه وحباً له، مثل هذا لا يُقال له أنَّ محبتك كاذبة، لو كنتَ تُحبه لأطعْتَه وصليت، هذا يُقال له ما أجمل حبك للنبيِّ ﷺ فلو توَّجْتَ هذا الحُب بالصلاة!

الذي تغلبُه شهوته ليس كافراً، هو إنسانٌ مُبتلى، زيَّن له الشيطان عمله، فخُذوا بيده إلى الله، بدل أن تُعينوا الشيطان عليه، ما يجلب الناس إلى الله أكثر من اللِّينِ، وحُسنِ الدعوة، ولطيفِ الكلام.

والتي تتزيَّنُ وتتعطَّرُ وتخرجُ ليستْ كافرة، كل ما في الأمر أنَّها مُبتلاة، للمرأة غريزة أن تبدو جميلة، وظنٌّ ضعيفٌ أنَّ هذا يجلبُ الزَّوج! تخيَّل أن تُهديها أنتَ مُصحفاً أو سُبحة، أو تُحدثها زميلة دراسة أن هذا الجمال لو زيَّنه الحجاب، وأن الزوج رزق من عند الله، ورزق الله لا يُطلب إلا بطاعته، كلمة طيبة مرة، ومُحاضرة رقيقة مرة أخرى، بحُسنِ البيان، ولُطفِ الأخلاق، يفتح الله قلوب الناس!

لا يُوجد ذنب أعظم من الشِّرك، ومع هذا قال الله تعالى لنبيِّه ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ لقد أثنى على

لينِـه ورقـةِ قلبِـه تجـاه المُشـركين، أليـسَ المُسـلمون أوْلـى منـا بهـذا اللِّيـنِ وهـذه الرِّقـة!

فرعـون لـم يكُـن مُشـركاً فحسـب، لقـد قـال ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ ومـع هـذا بعـثَ الله سـبحانه إليـه موسـى عليـه السـلام ليقـول لـه قـولاً ليناً، فـإذا كان هـذا حـال الدُّعـاة مـع مـن قـال ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، فكيـف يجـب أن تكـون حالهـم مـع الذيـن يقولـون: سُـبحان ربـيَ الأعلـى!

اِطْرَحْ متاعكَ في الطَّريق!

جاءَ في ضِعاف الأحاديث: تعوَّذوا باللّهِ من ثلاث فواقر: جار سُوءٍ إن رأى خيراً كتمه وإن رأى شراً أذاعه، وزوجة سُوءٍ إن دخلْتَ عليها لسَنَتْكَ وإن غبتَ عنها خانتك، وإمام سُوءٍ إذا أحسنتَ لم يقبلْ وإن أسأتَ لم يَغْفِرْ!

أما عن الصِّحاح فقد روى الطبرانيُّ أنَّ رجلاً جاء إلى النبيِّ ﷺ يشكو أذيَّةَ جاره له، فقال له النبيُّ ﷺ: اِذهبْ فاصْبِرْ!

ثم عاد بعد فترةٍ يشكو جاره مرةً أخرى، فقال له النبيُّ ﷺ: اِذهبْ فاصْبِرْ!

ثم في الثالثة قال له: اِذهبْ فاطرحْ متاعكَ في الطريق!

فذهبَ الرَّجلُ وأخرجَ أثاث بيته إلى الطريق، فجعلَ الناسُ يسألونه عن فِعلته، فيُخبرهم أنه فعلَ هذا للأذى الذي أصابه من جاره! فجعلَ الناسُ يلعنونه، ويدعون عليه!

فجاء جار السوء إلى النبيِّ ﷺ وقال له: يا رسول اللّه لقيتُ سوءاً من الناس

فقال له: وما لقيتَ؟

فقال: يلعنونني!

فقال له: لقد لعنكَ اللّهُ قبل الناس!

فقال: عاهدتك اللّه أني لا أعود!

فأرسلَ النبيُّ ﷺ إلى الجار المظلوم يقول له: اِرفَعْ متاعكَ فقد كُفيتَ!

وعن حُسْنِ الجوار، ذُبِحتْ شاةٌ في بيتِ النبيِّ ﷺ، فلما جاءَ قال: هل أهديتم منها لجارنا اليهودي! ثم قال: ما زال جبريلُ يُوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيُورِّثه!

وجاءه رجل فقال: يا رسول الله، إن فلانة، وذكرَ من كثرة صيامها وصلاتها وصدقتها، ثم قال غير أنها تُؤذي جيرانها
فقال: هي في النار!
وذكر له امرأة أخرى، وحدَّثه عن قلة صيامها وصلاتها وصدقتها، يعني النوافل، غير أنها تُحسن إلى جيرانها
فقال: هي في الجنة!

والآن إلى مربط الفَرس: اِطْرَحْ متاعكَ في الطريق!
الأصل في التعامل مع الناس السِّتر، واحتمال الأذى، فلا نشيعُ ذنبَ أحد ومعصيته، ونصبر على ما نلقى منهم، ولكن أحياناً يبلغ السيل الزُّبى! وتفوقُ الإساءة القدرة على الاحتمال خصوصاً عندما تكون عبارة عن إساءات متكررة، فإنَّ وقتها الساكت عن الحق شيطان أخرس، والراضي بالظُّلم ليس حليماً بقدر ما هو جبان!
إن بعض الناس يفهمون الصَّبر والتغاضي ضعفاً، ويفهمون التَّرفع عن رد الإساءة عجزاً، فيتمادون في الإساءة، عندها يجب أن تُخرجَ متاعكَ إلى الطريق، ليس بالحرف وإنما بالمعنى! فإخراج المتاع إلى الطريق له وسائل شتى!
الشكوى إلى القضاء هي إخراج متاع إلى الطريق، والحديث مع وُجهاء الحارة والحي هو إخراج متاع إلى الطريق، ووسائل التواصل الاجتماعي هي أيضاً طريق!

إنَّ اللّه أمرني أن أقرأ عليك!

تخيَّلْ أن يُقال لكَ: قد قال مديرُكَ أنك موظف رائع، لا شكَّ أنك ستفرح، أما إذا قيل لكَ أن الوزير قالَ عنك أنك بارع في مجالك ومن أهل الاختصاص، فلا شكَّ أنك ستمتلئ رضى وتفخر بنفسك! أما لو قيل لكَ أن الملكَ أو الرئيس ذكرَ اسمكَ في مجلسه لرُبما نبتتْ لكَ أجنحة وشعرتَ أنَّ هذه الدنيا كلها لا تتسع لفرحك! والآن تخيَّلْ، تخيَّلْ فقط أن يُقال لكَ إنَّ اللّه تعالى قد ذكرَ اسمكَ!

ما أردتُ منك أن تتخيله قد حدث لأحدهم فعلاً! استدعى النبيُّ ﷺ أُبيَّ بن كعبٍ وقال له: إنَّ اللّه أمرني أن أقرأ عليكَ «لم يكن الذين كفروا»

فقال أُبيٌّ: وسمَّاني لكَ؟

فقال له النبيُّ ﷺ: نعم، سمَّاكَ لي!

فجعلَ أُبيٌّ يبكي، وكان حتى آخر لحظات عمره يقول: أنا الذي سمَّاني ربي!

لماذا أُبيٌّ بن كعبٍ تحديداً وأبو بكر وعثمان وعلي أفضلُ منه؟

هذا لأن أُبيَّ بن كعبٍ كان أقرأ الصَّحابة لكتاب اللّه، لهذا كان من الطبيعي أن أبا بكرٍ لما أراد جمع المصحف بعد حروب الرِّدة أن يجعل أُبَيًّا من ضمن اللجنة التي أُوكِل إليها جمعه. وعندما أراد

عثمان أن يجمع القرآن الجَمعة النهائية التي هي عليها اليوم أن يجعل أُبَيًّا في لجنة جمعه!

إنَّ هذه الدنيا اختصاص بالدرجة الأولى، أبو بكر أفضل من أُبي بن كعب بالجُملة ولكن أُبَيًّا أُعطيَ حظاً من القرآن لم يُعطه أبو بكر!

وعُمر أفضل من خالد بالجُملة ولكن خالداً أعلم من عُمر بالحرب!

وعُثمان بن عفان أفضل من معاذ بن جبلٍ بالجُملة ولكنَّ مُعاذاً أعلم بالحلال والحرام من عثمان!

وعليٌّ بن أبي طالب أفضل من أبي هُريرة بالجُملة ولكن أبا هريرة أكثر حفظاً للحديث من علي!

وهذا الإسلام العظيم بلغَ ذروة مجده وقوته لأنه كان يضع الرجل المناسب في مكانه المناسب، أي بحسب المجال الذي هو بارع فيه، لم يكن عند النبي شكٌّ أن أبا بكر أفضل من خالد، ولكنه وضع خالداً على رأس الجيش لأنَّ خالداً أعرفُ من أبي بكر بأُمور الحرب! وعندما قال النبيُّ ﷺ لأبي ذر: يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحبُّ لكَ ما أُحبُّ لنفسي، لا تأمَّرَنَّ على اثنين، ولا تولَّينَ مالَ يتم!

لم يَذُمَّ أبا ذرٍّ أو يتهمه في دينه، الأمر له علاقة بشخصية أبي ذر، وتركيبته النفسية وطبعه ليس إلا! فقد كان أبو ذر صاحب منطق، ورأساً في الزهد والصدق والعلم والعمل، قوّالاً الحق،

لا تأخذه في اللّه لومة لائم، وقد قال النبيُّ ﷺ عنه: «ما أظلَّتِ الخضراءُ ولا أقلَّتِ الغبراءُ من رجل أصدق لهجةً من أبي ذر»!

إنَّ الذي يُصلي الصلوات الخمس في المسجد رجل مبارك ومحترم، ولكن هذا لا يعني أنه يصلح أن يكون وزيراً ويتولَّى شؤون العامة!

والذي يحفظُ القرآن عن ظهر قلب، رجل نقي تقي، ولكن هذا لا يعني أنه يصلحُ أن يكون قائداً للجيش!

التقوى والأخلاق والصلاح صفات مطلوبة في الناس بغض النظر عن أي منصب يتولونه، ولكن ابحثْ أولاً عن براعة الأشخاص وخبرتهم بالعمل الذي تريدُ أن تُحملهم مسؤوليته، ثم بعدها فاَضِلْ بينهم بالتقوى والصلاح والسعي إلى المساجد، أما أن يُعطى التقيُّ عملاً لا دراية له به فهو ظلم له وللناس!

يطلعُ عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنَّة!

كان النبيُّ ﷺ جالساً مع أصحابه في المسجد فقال لهم: يطلعُ عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة!

فدخلَ رجلٌ من الأنصارِ تقطرُ لحيته ماءً من أثر الوضوء.

فلما كان الغد، قال النبيُّ ﷺ: يطلعُ عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة!

فدخلَ الأنصاريُّ ذاته الذي دخل في اليوم الأول.

ولما كان اليوم الثالث، قال النبيُّ ﷺ: يطلعُ عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة!

فإذا بالأنصاري نفسه يدخلُ المسجد!

فلما انفضَّ المجلس، قامَ عبدُ الله بن عمرو بن العاص إلى الأنصاريِّ وقال له:

لقد تخاصمتُ مع أبي، وأقسمتُ أن لا أدخلَ عليه ثلاثة أيام، فإن رأيتَ أن تستضيفني عندكَ حتى تمضي هذه الأيام!

فقال له: أهلاً ومرحباً.

فمكثَ عنده عبد الله ثلاثة أيام فلم يَرَهُ يقوم من الليل شيئاً، وليس له في النهار زيادة عبادات عما كان يفعله الصحابة، غير أنه إذا استيقظَ في الليلِ ذكرَ الله في فِراشه حتى يُؤذِّن المُؤذِّن لصلاةِ الفجر فيقوم فيُصلِّي!

ولمَّا انقضتْ الأيام الثلاثة، وكادَ عبد الله أن يستصغرَ عمل الأنصاري، قال له: لم يكُنْ بيني وبين أبي هجرٌ ولا خُصومة،

غيـر أن النبـيَّ ﷺ قـال ثـلاث مـرات يطلـع عليكم الآن رجلٌ مـن أهـل الجنـة، فكنـتَ أنـتَ فـي الثـلاث، فـأردتُ أن أعـرفَ مـا تفعـل حتـى نلتهـا!

فقـال الأنصـاريُّ: مـا هـو إلا مـا رأيـتَ، غيـر أنـي لا أجـدُ فـي نفسـي لأحدٍ من المُسلمين غِشاً، ولا أحسِدُ أحداً على خير أعطاه اللّه إيـاه!

فقال له عبد اللّه: هذه التي بلغتْ بكَ وهي التي لا نُطِيقُ!

أَصْلِحْ قلبـكَ ثم لا يَضُـركَ أنـكَ لم تقُـم إلا بالفرائـض، فمـا يُؤتـى النـاس إلا مـن خـراب قلوبهـم!

لا أجدُ في نفسـي غِشـاً لأحدٍ من المُسـلمين: صِدقٌ في المِعاملة، وصِدقٌ فـي البيـعِ، وصِـدقٌ فـي الشـراء، وصِـدقٌ فـي المشـورةِ، وصِدقٌ فـي النصيحـةِ، وفـي الحديـثِ «مـن غشـنا فليس منا»!

ولا أحسـدُ أحـداً علـى خيـر أعطـاه اللّه إيـاه: شـرٌّ مـا مُلِـئَ بـه القلبُ بعد الشِرك هـو الحسـد، والحسـد أول ذنـبٍ عُصـيَ اللّه بـه فـي السَّـماء، فمـا حملَ إبليس على كرهِ آدم عليـه السَّـلام ثـم عـدم الامتثالِ لأمـر اللّه سُـبحانه بالسجود إلا الحسـد، حيـن ظنَّ أنـه خيـرٌ مـن آدم عليـه السَّـلام، وأوّلـى بهـذه المكانـة منـه!

اِقنـعْ بمـا قسـمَ اللّه لـكَ تكُـنْ أغنـى النـاس، ولا تنظُـرْ إلـى مـا فـي يـدِ غيـرك، لأنـكَ إن فعلـتَ فلـن تجـدَ وقتـاً لتحمـدَ اللّه علـى مـا أعطـاكَ، وفـي الحديـث «إياكـم والحسـد، فـإن الحسـد يأكلُ الحسـنات كمـا تـأكلُ النـارُ الحطـب»!

عَجِبَ اللّه من صنيعكما!

أتى رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: إني مجهود.

فأرسلَ النبيُّ ﷺ إلى بعض نسائه يسألها إن كان عندها طعامٌ في البيت حتى يأتيَ بالضيفِ، فقالتْ: والذي بعثكَ بالحقِّ ما عندي إلا ماء! فأرسل إلى زوجاته جميعاً، حتى قُلْنَ كُلُّهُنَّ: والذي بعثكَ بالحقِّ ما عندي إلا ماء!

فقال النبيُّ ﷺ لجُلسائه: من يضيفُ هذا الليلة رحمه اللّه؟

فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول اللّه!

فانطلقَ به إلى بيته، وقال لزوجته: هذا ضيف رسول اللّه ﷺ فهيِّئي له الطعام.

فقالتْ: ما عندي إلا طعامُ أولادي!

فقال لها: نوِّمي أولادك، ثم ضعي الطعام، فإذا مدَّ يده ليأكل فقومي إلى السِّراج فأطفئيه، ثم تعالي نُوهمه أننا نأكل معه حتى يكفيه الطعام فيشبع!

ففعلتْ مثلما أمرها، فشبعَ الضيف، وباتا جائعين!

فلما أصبح غدا إلى النبي ﷺ، فقال له: عَجِبَ اللّه من صنيعكما! وأنزل فيكما قرآناً: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾

الدنيا دولاب والزمن دوَّار، اليومَ معكَ مال وغداً قد لا تجده، واليوم لا تجده وغداً قد تثرى!

لا الفقر عيبٌ ولا الغِنى سُبة، المهم هي أخلاق المرء في غناه أو فقره، المهم ما في قلبه لا ما في جيبه! تخيَّلوا أنَّ النبيَّ ﷺ لم يجِدْ في بيت واحدة من زوجاته طعاماً يُقري به ضيفه!

إياك أن تعتقد أن الفقر عقوبة، أو أن الغِنى جائزة، كل ما في الأمر أن الدُّنيا امتحان، فإياك أن ترسبَ مهما كانتْ أسئلة الامتحان!

النبيلُ هو الذي يُبادر ليسُدَّ حاجة غيره ولا يُحرجه فيظهر بمظهر المُقصِّر!

من النُّبلِ إذا علمتَ بمرض أحدٍ في بيت جارٍ فقيرٍ أن تُعينه دون أن يطلب، أنتَ تعرفُ حاله، وبعضُ الناس تمنعه كرامته أن يطلب، وأجمل العطاء هو الذي يرحمُ الكرامة ويحفظُ ماء الوجه!

من النُّبلِ إذا أُقيم عزاءٌ لفقراء تعرفهم أن تُساهم معهم في تكاليفِ العزاء، أو أن تشتريَ لهم بعض حاجياته ومُتطلباته كي لا تُحرجهم أمام الناس فيظهرون بمظهر المُقصِّر والمحتاج، هذا لا يدخل في باب الصدقة فقط وإنما في باب السِّتر أيضاً، ويا لحُبِّ اللّهِ للسِّتيرين من عباده!

العطاءُ أدبٌ أيضاً، فأن تحرمَ إنساناً من صدقتك أفضل من أن تُعطيه إياها على ملأ فتجرح كرامته وتُشعره بالحرج!

وٱنظُرْ لأدب الأنصاري عندما علِم أن الطعام قليل، طلبَ من زوجتِه أن تُطفئَ السِّراج لأن الضيف سيشعر بالحرج ولن يأكل لو رأى أن الطعام لا يكفي للجميع!

رفعُ الحرج من جبر الخواطر، وجبر الخواطر عبادة!

حبسَهم العُذر!

في طريق عودة النبيِّ ﷺ من غزوة تبوك، قال لأصحابه: «إنَّ في المدينة رجالاً ما سِرتُم مسيراً، ولا قطعتُم وادياً إلا كانوا معكم، وشركوكم في الأجرِ حبسَهُم العُذر»!

نِيَّةُ المؤمنِ خيرٌ من عملِه، وعملُ المنافقِ خيرٌ من نيته!

كم صلَّى ابن سلول خلف النبيِّ ﷺ في المسجد فلم تنفعْه صلاته لأن هذا العمل الجميل كان خلفه نية قبيحة!

وكم قالَ الأخنسُ بن شريق الثقفي كلاماً جميلاً ولكنَّ قلبه كان فاسداً، فنزلَ فيه قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾

وكم أظهرَ الجد بن قيس الورع، حتى أنه تذرَّع بعدم الخروج للجهاد خشية أن يرى نساء الروم فيفتنوه عن دينه، حتى عرَّى الله ورعه الكاذب فقال فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

صلاةٌ لم تنفعْ، وكلامٌ حَسَنٌ لم يشفعْ، وورعٌ لم يرفَعْ، ذلك أن القلوب فاسدة، وإن الله ينظرُ إلى القلوب!

بالمُقابل حُرِمَ بعض الصحابة من تلك الغزوة، فكتبَ الله سبحانه لهم الأجر كاملاً!

المريضُ الـذي كان يتقلَّبُ علـى فراشـه ويتحسَّـرُ كيـف فاتتـه تلـك الغـزوة، وأنـه لـو كان صحيحـاً لشـاركَ فيهـا، كتـبَ اللّٰه لـه أجـر الغزوة، ومـا سـارَ الصحابـة مسـيراً، إلا وكان لـه مـن الأجـر مثـل مـا كان لهـم!

الفقيـرُ الـذي كان يتجـرَّعُ بمـرارةٍ بقـاءه فـي المدينـة لأنـه لـم يجـدْ ثمـن ناقـةٍ يُسـافرُ عليهـا، وأنـه لـو كان معـه لمـا تخلَّـف، نظـرَ اللّٰه إلـى قلبـه، وعَلِمَ صـدقَ مـا فيـه، فأعطـاه الأجـر غيـر منقـوص، كان الصحابـة يقطعـون الوديـان، ويُكابـدون حـرَّ الشـمس، وهـو فـي بيتـه يُشـاركُهم فـي الأجـر!

كلُّ مريـضٍ مُتعثِّـرٍ يُجمـع لـه مـال وأنـتَ لا تسـتطيع أصلِـحْ نِيَّتَـكَ أنـكَ لـو كان معـكَ مـا ترددتَ فـي المشـاركة، وإن عَلِـمَ اللّٰه صدقـكَ كتـبَ لـكَ أجـر المشـاركين، ولكـن إيـاكَ أن يُغنيـك لاحقـاً ليمتحنـكَ، فيـراكَ تتخلَّـف!

كلُّ مظلـوم لـم تسـتطِعْ أن ترفـعَ عنـه الظلـم لضعفـكَ وعجـزكَ، أصلِـحْ نِيَّتَـكَ أنـكَ لـو كنـتَ قـادراً لقُمْـتَ بنجدتـه، وإن علِـمَ اللّٰه صدقـكَ فسـيكتبُ لـكَ الأجـر كامـلاً، ولكـن إيـاك أن يُعطيـك القـدرة بعـد ذلـك ليمتحنـك فيـراك ترسـبُ!

لو مُزِجَتْ بماء البحر!

إن الإيمـان لا يُلغـي طبائـع النـاس وإنمـا يُؤَدِّبهـا، ولا يمحـو غرائزهـم وإنمـا يُهذِّبهـا، الإيمـانُ لـم يُلْغِ عاطفـة الأبـوة عنـد نـوح عليـه السـلام حيـن غـرقَ ابنـه، فسـألَ اللّٰه عنـه، فلمـا نهـاه انتهـى! وعُمـر بـن الخطـاب الصَّلب شـديد الطَّبـع فـي الجاهليـة، بقـيَ صلبـاً حازمـاً فـي الإسـلام، ولكـن الفـارق حيـن تتحـول الشِـدَّة فـي الباطـل إلـى شِـدَّة فـي الحـق، وهنـا تكمُـنُ عَظَمَـةِ الإيمـان!

لا يسـتطيع الإنسـان أن يخـرجَ مـن قفـصِ بشـريته مهمـا بلـغ مـن الإيمـان عتيـاً، مهمـا كانـتْ الزوجـة مُؤمنـة سـتغار مـن ضرتهـا، الأمـر لا علاقـة لـه بالإيمـان بقـدر مـا لـه علاقـة بهـذه النفـسِ البشـريةِ التـي جَبَلَنـا اللّٰه سُـبحانه عليهـا!

كانـتْ أُمُّنـا عائشـة جالسـةً يومـاً مـع النبـيِّ ﷺ فقالـتْ لـه: حسـبكَ مـن صفيـة كـذا وكـذا! أي أنهـا قصيـرة القامـة!

فقـال لهـا النبـيُّ ﷺ: يـا عائشـة لقـد قلـتِ كلمـةً لـو مُزِجَـتْ بمـاءِ البحـرِ لمزجتـه!

رغـمَ أن صفيـة قصيـرة فعـلاً ولـم تتجـنَّ عائشـة عليهـا، إلا أن النبـيَّ ﷺ عـدَّ ذلـك غيبـةً عظيمـةً، فقـد سـبقَ وأن عـرَّفَ الغيبـة بقولـه: الغيبـة ذكـركَ أخـاك بمـا يكـره!

فقال رجل: يا رسول اللّٰه أرأيتَ إن كان في أخي ما قلتُ فيه؟

فقـال لـه: إن كان فيـه مـا قلـتَ فيـه فقـد اغتبْتَـه، وإن لـم يكُـنْ فيـه فقـد بهتَّـه!

يعتقدُ الناسُ أنهم وهم يغتابون الآخرين أن لا شيء في الأمر طالما هي حقائق! وكأن الحقيقة تُبيحُ لكَ أن تأكلَ لحوم الناس!

تجدُ المجالس ضيافتها لحوم الناس، يلوكونها للتسلية، وإشباع حاجة الفضول والثرثرة!

لا يَسلم منهم دين فلان ودُنياه، ولا عرض فلانة وحياتها، وكأنهم رُقباء على الناس، وهؤلاء في الأغلب إذا أردتَ أن تنتقدَ أحوالَهم لا تعرف من أين تبدأ!

أما عن البُهتان فحدِّثْ ولا حرج!

كم من زواجٍ أُلغِيَ فقط لأن أحدهم ألَّفَ للخاطب قصة عن المخطوبة هي منها براء براءة الذئبِ من دمِ يوسف عليه السَّلام!

وكم من رزقٍ قُطِعَ فقط لأن أحدهم هوايته تركيب الأفلام في حياة الناس!

وكم من صدقة قُطِعَتْ عن فقيرٍ مُحتاجٍ فقط لأن رجلاً ضيِّق الصدر والقلب أخبر المُتصدِّق أن فلاناً ليس فقيراً وأنه يشتري ويصرف هذا فقط لأنه رآه يوماً حاملاً ربطة خبز لأولاده، أو شاهده عند الجزار أو بائع الخضار! يريدُ هذا الباهت أن يدفنَ الناس أحياء

عند اللّهِ أنتَ غالٍ!

كان رجلٌ من البادية اسمه «زاهر» يحضرُ إلى المدينة، فيبيعُ فيها ما أحضره معه من البادية، ويشتري من المدينة ما يلزم أهله، وكان النبيُّ ﷺ يُحبُّه ويُلاطفه، وكان زاهرٌ إذا جاء المدينة أحضرَ معه هديةً للنبيِّ ﷺ، فإذا أرادَ العودة إلى البادية جهَّزه النبيُّ ﷺ وأهداه! وكان يقول عنه: إنّ زاهراً باديتُنا، ونحن حاضروه! أي أنه يُحضر لنا من البادية ما يلزمنا، ونحن نُعطيه من المدينة ما يلزمه!

وكان زاهرٌ هذا دميم الوجه، ولكنه كان يملكُ قلباً كأنه قطعة سُكَّرٍ! وكان مرةً مُنشغلاً ببيعِ بضاعته، فجاء النبيُّ ﷺ من ورائه دون أن يشعر فاحتضنه من الخلف يُريدُ أن يُمازحه، فجعلَ زاهرٌ يقول: من هذا؟ أَفلتني!

فقال النبيُّ ﷺ مُمازحاً يُريدُ منه أن يعرف أنه هو: من يشتري العبد؟

فقال زاهر: يا رسول اللّه، إذاً واللّهِ تجدني كاسداً!

فقال له: لكن عند اللّهِ أنتَ غالٍ!

كان النبيُّ ﷺ أكثر الناس هماً، على عاتقه همُّ هداية البشرية إلى دين ربها، وهمُّ السياسة والحروب والمعاهدات، وهمُّ شؤون الناس والزكاة والصدقات، ولكنه لم يسمح لهذه الهُموم كلها أن تسلبَ منه شيئاً من لُطفه وإنسانيته، لديه وقت لكل شيء، زوجٌ مثاليٌّ، وأبٌ حنونٌ، وجَدٌّ مُحبٌّ، وجارٌ لطيفٌ، وصاحبٌ وفيٌّ!

بل لديه وقت أن يتعرَّف إلى بائع مُتجوِّل يأتي من البادية، بل لديه وقت أن ينتبه لأدق التفاصيل، فكان يقبل هديته كرماً منه، ثم يرد الهدية إذا حان موعد الرحيل، بل وأكثر من هذا إنه يُمازح ويُلاطف، يُمسكه من خلفه كما نفعل نحن حين نُغمض عيون أحبتنا ونسألهم من نحن، فما بالنا يمشي أحدنا بهمٍّ واحدٍ، أو ربما يملك منصبًا مرموقًا، كأنه يحمل الأرض على كتفيه: في البيت جلَّاد، ومع الجيران فظ، ومع المعارف غليظ، الأمر أهون من هذا بكثير، فقبل أن تكون موظفاً ناجحاً، وإنساناً ثرياً، كُنْ إنساناً، لا يوجد شيء أروع من هذا!

لا يهمُّ من أنتَ عند الناس، المهم من أنتَ عند الله!

كان زاهر عند الناس لا يُذكر، بل إنه كان يعرفُ أنه لو كان عبداً وأراد سيده أن يبيعه فلن يجد من يشتريه، ولكن سيِّد الناس أخبره أنه عند الله غالٍ! ليستْ الخسارة أن يضعكَ الناس دونَ قدركَ وأنتَ عند الله مرموق، ولكن الخسارة أن يرفعكَ الناس فوقَ قدرك وأنتَ عند الله رخيص!

لا يضُرك إن جهلكَ الناس، حسبُكَ من الشُّهرة أنك إذا رفعتَ يديكَ إلى السماء تدعو، قالت الملائكة يا رب صوت معروف من عبدٍ معروف!

لا يضُرك إن متَّ بسيطًا ثم نُسيتَ فلم تُفتقد، يكفيك أن يبكيك ممشاك إلى المسجد، ومكان سجودك، يكفيك أن يفتقدَكَ بسيطٌ كنتَ تبتسمُ في وجهه، ومسكينٌ كنتَ تتعاهده بالصَّدقة!

لا يضُـرك إذا كرهـكَ البعض لأنـك لـم تُجارِهِـم فـي معصيـة، ولـم تبِـعْ دينـك ومبادئـك لرضاهـم، يكفيـك أن تعمـل ليرضـى اللّٰه، ثـم يُنـادي يا جبريـل إنـي أحـبُّ فلانـاً فأحبَّـه!

لولا أنَّ قومكِ حديثو عهدٍ بجاهلية!

سألتْ عائشةُ النبيَّ ﷺ عن حِجر إسماعيل عليه السَّلام أهوَ من الكعبة؟

فقال: «نعم، هو من الكعبة»

فقالتْ: فما لهم لم يُدخلوه في البيت؟

فقال: «إنَّ قومكِ قصَّرتْ بهم النفقة»

فقالتْ: فما شأنُ بابه مرتفعاً؟

قال: «فعلَ ذلكَ قومكِ ليُدخلوا من شاؤوا، ويمنعوا من شاؤوا»!

ثم قال: «يا عائشة، لولا أنَّ قومكِ حديثو عهدٍ بجاهلية، فأخافُ أن تُنكر قلوبهم، لأمرْتُ بالبيتِ فهُدِمَ، فأدخلْتُ فيه ما أُخرجَ منه، وألزقتُه بالأرض، وجعلتُ له بابين: باباً شرقياً، وباباً غربياً، فبلغتُ به أساسَ إبراهيم»!

ثم لمَّا استلمَ عبد الله بن الزُبير زمام الحُكم في الحِجاز، حدَّثَتْهُ خالته عائشة بهذا الحديث، فقال لها: زالَ المانعُ الذي كان على عهد النبيِّ ﷺ، فهدمَ الكعبة وأعادَ بناءها كما كانتْ على عهدِ إبراهيم عليه السَّلام، ثم لمَّا قتلَ الحجاجُ ابن الزبير، هدمَ الكعبةَ مجدداً، وأعادَ بناءها على ما كانتْ عليه أيام قُريش!

فلما جاء أبو جعفر المنصور أرادَ هدمها وبناءها مجدداً كما كانتْ على عهدِ إبراهيم عليه السَّلام، واستشارَ في ذلك الإمام مالك، فقال له: أرى أن تترُكَها على الشكل الذي هي عليه، حتى لا تُصبح الكعبة أُلعوبة الملوك!

والشَّاهد في الأمر: لولا أنَّ قومكِ حديثو عهدٍ بجاهلية!

يُخبرُ النبيُّ ﷺ أُمَّنا عائشة أنَّ شكل الكعبة الذي تراه ليس هو الشكل الذي بناه إبراهيم عليه السَّلام، وأنه يُريدُ أن يَهدمَها فيُعيدَ بناءها، ولكنه يخشى على إيمانِ قُريشٍ التي دخلتْ في الإسلام حديثاً بعد الفتح! وهذا من حِكمته، وحُسن سياسته، ومُراعاته للمصالح والمفاسد!

درءُ المفاسِدِ مُقدَّمٌ على جلبِ المصالح!

بمعنى أنَّ الأمر الصائب الذي ينوي المرءُ فعله ويترتَّبُ عليه مفسدة أكبر من المنفعة يجب أن لا يفعله! وهذا درسٌ بليغٌ من دروس الحياة!

أحياناً نعرفُ أنَّ زوجةً ما قد ظُلمتْ بالزواج من هذا الزوج الذي هي معه، والصواب أن تُنقذَ نفسها وتتركَه، وفي هذا مصلحة لها، ولكن قد يترتَّبُ على هذا الطلاق ضياع الأولاد، فلا هي تستطيع أن تضُمَّهم إليها، ولا تستطيع أن تتركَهم له، فالحكمة هنا أن تُنصح بالصبر، واحتساب الأجر، لا أن تُنصح بالطلاق، ففي طلاقها منفعة فرد واحد، منفعتها هي، ولكن مفسدة لعدة أفراد هم أولادها!

وعلى هذا قِسْ كل أمور الحياة، فالحياةُ ليستْ معادلة حسابية جامدة، واحد زائد واحد يُساوي اثنين، الحياة مُتشابكة، هناك أسود في كل أبيض، وأبيض في كل أسود، والعاقل هو الذي يتقبَّلُ قليل السَّواد للمُحافظة على ما لديه من بياض، ومن أجمل ما

قال عمر بن الخطاب: ليس الفطن من عرف الخير من الشَّر، وإنما من عرفَ خير الشَّرين!

إن الحياة أحياناً تضعنا بين خيارين أحلاهما مُر، والذكي من سدَّدَ وقاربَ، وقارنَ بين المنفعة والمفسدة، وليسَ كُلُّ حقٍّ يُقال!

أن يصِلَ الرَّجُلُ وَدَّ أبيه!

خـرجَ عبـدُ اللّه بـن عُمـر بـن الخطـاب مـن المدينـة يُريـدُ مكـةِ، وكان يركبُ ناقتـه ومعـه حمـارٌ يتـروَّحُ عليـه إذا مـلَّ مـن ركوب الناقـة، وعلـى رأسـه عمامـة يشـدُّ بهـا رأسـه وتحميـه مـن الشَّـمس، وعليـه عبـاءة جميلـة...

فلقـيَ فـي الطريـقِ أعرابيـاً مـن أهـل الباديـة، فسـأله: ألسـتَ فلانـاً ابـنَ فُلان؟

قال: بلى.

فقـال لـه عبـد اللّه: خُـذْ هـذا الحمـار اركـبْ عليـه، وهـذه العمامـة تشُـدَّ بهـا رأسـك، وهـذه العبـاءة البسـها!

فلمَّـا مضـى الأعرابـيُّ، قـال أصحـاب ابـن عمـر لـه: أصلَحَـكَ اللّه، إنهـم الأعـرابُ، وإنـه يُرضيهـم اليسـير، فلـو أعطيتَـه مـالاً أو طعامـاً، وأبقيـتَ علـى حمـارك وعمامتـكَ وعباءتـك!

فقـال: إنَّ أبـا هـذا كان وَدَّاً لعُمـر بـن الخطـاب، وإنـي سـمعتُ النبـيَّ ﷺ يقـول: «إنَّ أبـرَّ البِـرِّ أن يَصِـلَ الرَّجُـلُ وَدَّ أبيـه»!

يـا لـه مـن ديـن، ويـا لهـا مـن أخـلاق، البِـرُّ ليس فقـط أن تُحسِـنَ إلـى أبيـك وأمـك فـي حياتهمـا، بـل أن تصـلَ أصدقاءهمـا، ومـن كان يُحبُّهمـا بعـد موتهمـا!

وٱنظُـرْ لبِـرِّ ابـن عُمـر لأبيـه، فالشـاب الـذي لَقِيَـهُ لـم يكُـن هـو صديـق أبيـه، هـذا ابـن صديـق أبيـه، ومـع هـذا فعـل معـه الـذي فعـل، فكيـف بـه لـو لقـيَ صديـقَ أبيـه فعـلاً؟!

وعن أبي أُسيد الأنصاري أن رجلاً جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال له: يا رسول الله: هل بقيَ من بِرِّ أبويَّ شيءٌ أبرهما به؟

فقال له النبيُّ ﷺ: «نعم، الدُّعاءُ لهما، والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عهدِهما، وإكرامُ صديقهما، وصلةُ الرَّحِم التي لا توصَلُ إلا بهما»!

لا تزهدوا بأبرِّ البِرِّ، انظروا إلى أصدقاء الوالدين وأحبابهم فَصِلُوهم، يا له من بِرٍّ إذا مرضتْ صديقة الأم فجئتَ لزيارتها، وكأنَّكَ تقول لها: ولأجلِ عينٍ ألفُ عينٍ تكرمُ!

ويا له من برٍّ أن تُخصِّصَ صديق أبيكَ بزيارةٍ بين الفينة والأخرى، وإذا لقيته في الطريق أن تُصافحه وتنبسط له، وإذا علمتَ أنَّ له حاجة أن تُسارع على الفور لتقضيها له!

هلَّا تركتَ الشيخَ في بيته؟!

وأخيراً فُتِحتْ مكة، الرَّجُلُ الذي نزلَ يوماً وحيداً من الغار يرتجِفُ من هول الوحي صار أُمة، والذي خرجَ رفقةَ أبي بكرٍ مُهاجراً تحت جنح الظلام بعد أن قررتْ قُريش قتله ها هو اليوم يدخل مكة في وضح النهار ومن أبوابها الأربعة! وجلستْ قُريشُ بين يديه تنتظرُ القصاص، ما تُراه يَفعل بهم، هؤلاء الذين كذَّبوه في دعوتِه، وآذوه في نفسِه، الذين وضعوا على رأسه سلى الجزور وهو ساجد عند الكعبة، وحاصروه في الشِّعب، واتهموه بالكذبِ والسحرِ والجنونِ ثم توَّجُوا كل ذلك بأن جمعوا من كل قبيلةٍ رجلاً ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرَّق دمه بين القبائل!

ولكنه لم يثأرْ لنفسِهِ أبداً، فلم يزِدْ على أن قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء!

ويذهبُ أبو بكر إلى بيته، ويأتي بأبيه أبي قُحافة الطاعن في السِّن الذي لا تكاد تحمله قدماه ولم يكُن قد أسلمَ بعد، رغبةً أن يدعو له النبيُّ ﷺ فيُسلم، فلما رآه النبيُّ ﷺ قال لأبي بكر: هلَّا تركتَ الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟!

فقال أبو بكر: يا رسول الله هو أحقُّ أن يمشيَ إليكَ من أن تمشيَ أنتَ إليه!

فأجلسَهُ النبيُّ ﷺ بين يديه، ومسحَ على صدره، وقال له: أَسْلِمْ!

فأسلم أبو قُحافة، وبكى أبو بكر، الرجل الذي أسلم على يديه كبار الصحابة، وجاء بعظماء الإسلام لديه أكرمَه الله بإسلامِ أبيه، والجزاءُ من جنس العمل!

وانظُرْ لأدبِ النبيِّ ﷺ لم يهُن عليه أن يُؤتى بأبي قُحافة لِكِبَرِ سِنه، ويُخبرُ أنه كان على استعدادٍ أن يذهبَ هو إليه بنفسه!
وكان دائماً يُشفقُ على كبار السن ويُكرمُهم، وكان يقول: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المُسلم»!

وجاءَ شيخٌ كبيرٌ في السن يُريدُ النبيَّ ﷺ، فلم يُوسِّعوا له ليصل إليه، فقال لهم: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويُوقر كبيرنا»!

تعاملْ مع كل شيخٍ على أنه والد أو جد،
ومع كل عجوزٍ على أنها والدة أو جدة،
فالإنسان في آخر عمره ينظرُ في ضعفه ومرضه وعجزه ويتحسَّرُ على ما فاتَ من مجدِه وقوتِه، فيشعرُ بانكسارٍ في قلبه وإن لم يبُحْ به، ولا شيء يرحمُ هذا الانكسار سوى التَّوقير الذي يجده مِمَّن حوله!
وجبرُ الخواطرِ عِبادة!

ما بقيَ منها؟!

ذُبحتْ شاةٌ في بيتِ النبيِّ ﷺ، فأمرَ أهله أن يتصدَّقوا منها، وخرج من بيته لبعضِ شأنه، فلما عاد سأل عائشة رضي الله عنها: ما بقيَ منها؟

فقالتْ: ما بقيَ منها إلا كتفها.

فقال لها: بقيتْ كلها إلا كتفها!

جوابٌ عظيمٌ من رجلٍ عظيمٍ كان يُخبر الناس دوماً أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأنه اليوم زراعة ولا حصاد، وأن الآخرة حصاد بلا زرع!

كان لا يترك مناسبة إلا استغلها ليُخبر أن الدنيا فانية، وأن الآخرة باقية، فها هو حوارٍ زوجي عادي يدور مثله في كل البيوت، زوج يسأل زوجته عن مصروف البيت وطعامه، ولكنَّ النبيَّ ﷺ يجعل من الحوار العادي مُناسبة لدرسٍ غير عادي!

إنه يسأل عائشة سؤال الدنيا: ما بقيَ منها؟

فتُجيبه جواب الدنيا: ما بقيَ منها إلا كتفها!

فيُعقِّب على كلامها بدرسٍ من دروس الآخرة: بقيتْ كلها إلا كتفها!

المالُ الذي نحمله بين أيدينا ليس لنا! إنه للبقالة، ومحطة البنزين، وفاتورة الكهرباء، ولبائع الثياب، وفرن الخبز، ومحلات الأدوات المنزلية، ومن ثم للورثة، مالنا الحقيقي هو ما ندَّخره عند الله اليوم، لنجده عنده هناك غداً!

كتفُ الشاة سيُؤكل ويذهب، ولكن ما خرج من لحم الشاة صدقة وحده سيبقى عند الله، هناك في بنك الآخرة الذي تعهَّده رب العزة بكرمه، وفيه يقول النبيُّ ﷺ: من تصدَّق بعَدْلِ/ مقدار تمرة من كسبٍ طيِّب، ولا يقبل الله إلا الطيِّب، فإنَّ الله يقبلها بيمينه ثم يُربيها لصاحبها كما يُربِّي أحدكم فَلُوَّه/الحصان الصغير، حتى تكون مثل الجبل!

يا له من بنك، ويا له من ادخار، مقدار تمرة من حلال تتصدقُ بها تريدُ وجه الله، يأخذها الرحمن بيمينه، ويُنميها لكَ، فإذا وقفتَ بين يديه غداً وجدتها كالجبل!

عندما نام السلطان سليمان القانوني على فراش الموت قال لمن حوله: عندما أموتُ أخرجوا يديَّ من التابوت ليرى الناس أن حتى السلطان يخرج من الدنيا خاليَ اليدين!

تصدقوا فليس للأكفان جيوب!

باعوه، فأكلوا ثمنه!

لما كان فتح مكة، قال النبيُّ ﷺ: «إنّ الله عزّ وجل ورسولَه حرَّم بيعَ الخمر، والميتة، والخنزير، والأصنام.

فقيل له: يا رسول الله، أرأيتَ شحوم الميتة؟ فإنه تُطلى بها السُّفن، وتُدهَنُ بها الجلود، ويستصبحُ بها الناس/أي يتخذون زيوتها للإضاءة.

فقال: لا، هو حرام، قاتلَ الله اليهود، إنَّ الله عزَّ وجلَّ لمَّا حرَّم عليهم الشحوم جملوه/أذابوه، ثم باعوه، فأكلوا ثمنه!

لم تعرف البشرية قوماً تحايلوا على الله في الفتوى كما فعل اليهود!

فإنه سبحانه لمَّا نهاهم عن الصيد يوم السبت، امتحنهم في هذا، فكانت الأسماك تندر بقية أيام الأسبوع وتكثر يوم السبت، فلم يُطيقوا صبراً، فكانوا إذا أتت الأسماك قرب الشاطئ يوم السبت نزلوا إلى البحر، وأحاطوها بالشباك وحبسوها، ثم يتركونها هكذا حتى صبيحة الأحد، ينزعون شباكهم وأسماكهم فيأكلونها، فمسخهم الله قردةً وخنازير!

وفي هذه الأيام للأسف كثر التحايل في الفتوى، وتمَّ لَيُّ أعناق النصوص لتُوافق الهوى،

يحسبُ الأغبياء أن الله يُخدع، وتعالى عالِم الغيب والشهادة، المُطَّلِع على الأسرار والضمائر أن تفوته النوايا!

وعن التحايل حدثني مرةً الدكتور محمد راتب النابلسي حفظه الله عن رجلٍ انتقلَ من مدينةٍ إلى أخرى له فيها بنت عم عندها بنتٌ صغيرة لها من العمر ثلاث سنوات، وزوج هذه المرأة مُسافر، ولم يجد هذا الرجل مكاناً يسكن فيه غير بيت ابنة عمه، ولمَّا قيل لهم أنّ هذا لا يجوز، أخذوا يبحثون عمّن يجد لهم حلاً شرعياً للأمر حتى أفتاهم من لا ذمة ولا دين له أن يُزوِّجوا الطفلة للرجل، ثم يُطلقها فوراً، وبهذه الطريقة تُصبح أمها مُحرَّمة عليه حُرمة أبدية شأن أمهات الزوجات وبهذا يستطيعُ أن يسكن معها وتتكشف عليه ولا حرج!

وعلى طريقة بني إسرائيل في اللف والدوران في شأن الشحوم وصيد الأسماك، سمعتُ مرةً من يفتي بأنه ما دام أكل الربا حرام فلا بأس أن يجعل المرءُ المال الربوي في شيء لا يُؤكل كأن يملأ بها سيارته من المحطة، ويدفع فاتورة الكهرباء، وأقساط المدرسة، وثمن أثاث البيت، أما الأكل فيشتريه من المال الحلال!

يبدو أن اليهود ليسوا قوماً فحسب وإنما فكرة أيضاً!

المرءُ مع من أحبَّ!

خرجَ النبيُّ ﷺ في سفرٍ، وبينما هو جالسٌ في أصحابه يستريحون إذ جاء أعرابي جهوريّ الصوتِ ونادى: يا محمد!

فقال له النبيُّ ﷺ: هاؤُمُ.

فقال له الصحابة: ويحكَ اغضُضْ من صوتكَ فإنك عند النبيِّ ﷺ وقد نُهينا أن نرفع أصواتنا عنده

فقال: واللّهِ لا أَغضُض!

ثم قال للنبيِّ ﷺ: المرءُ يُحِبُّ القوم، ولمَّا يلحق بهم.

فقال له النبيُّ ﷺ: المرءُ مع من أحبَّ يوم القيامة!

فلم يفرح الصحابة يومها بشيءٍ فرحهم بقوله: المرءُ مع من أحبَّ يوم القيامة!

اُنظروا لأدبِ النبيِّ ﷺ وفِقهه في مراعاة العادات والطبائع، فهذا أعرابيّ ابن بيئته، تركتْ فيه الصحراء شيئاً من قسوتها وخشونتها، طبعٌ فظٌّ اكتسبه من معارك النجاة التي يخوضها كل يوم للاستمرار على قيد الحياة في بيئةٍ جُغرافيةٍ تكاد تكون الأقسى على سطح الأرض، وصوت جهوريّ عالٍ لزمه منذ الصغر لاتساع المسافات وحاجتهم للنداء، ومن مهنة زجر الإبل والغنم، لهذا تغاضى عن ذلكَ كله لأنه يعرفُ أن مردّه الطبع والعادة وليست مسألة شخصية ولا تقليل احترام! بل وأجابه حين نادى عليه «يا محمد» هكذا مُجرَّداً من لقب النبوة بلهجته فقال له: هاؤُمُ أي ها أنا، أو تفضل قُلْ فإني أسمعكَ!

درسٌ عظيم لنا في أن لا نأخذ كل تصرُّف تنقصه اللياقة بصفة شخصية!

فليس الجميعُ تعلَّموا ما تعلَّمتَ، ولا تربوا كما تربيتَ، ولا لهم الطباع التي فيكَ،

بعض الناس يُناقشُ أعقد المسائل الفكرية بهدوء واتزان كأنه يقرأ في مصحف،

وبعض الناس يُناقشُ في كرة القدم بصوتٍ مرتفعٍ تعتقدُ أنه سيقوم ويقتلُ الشخص الذي يُناقشه!

تفهُّم طبائع الناس، وبيئاتهم، وظروف نشأتهم، ومستوياتهم الثقافية، يُعينُ كثيراً على الحياة!

إذا كان الصحابة قد فرحوا يومها بالمرءِ مع من أحبَّ يوم القيامة، فيجب أن نكون نحن بها أشدُّ فرحاً، فيا لحظنا ونحن نحبُّ النبيَّ ﷺ وأهل بيته، ونحبُّ عمرَ وأبا بكر وعثمان وخالد وأبا عبيدة وبقية الثلة المباركة التي اصطفاها اللّه سبحانه لنصرةِ نبيِّه!

وكل شخص لا يسرك أن تكون معه يوم القيامة فأَخرِجْ حبّه من قلبك فالحُبُّ عبادة أيضاً!

ثكلتك أُمك يا معاذ!

كان السَّيرُ معه غنيمة، وكان الصحابة لا يُفرِّطون بالغنائم، ويا لحظِّ مُعاذ بن جبل حين سار معه يوماً فقال له: يا رسول الله أخبرني بعملٍ يُدخلني الجنَّة ويُباعدني من النار!

فقال له النبيُّ ﷺ: لقد سألتَ عن عظيم، وإنه ليسيرٌ على من يسَّره الله عليه: تعبدُ الله ولا تُشركُ به شيئاً، وتُقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجَّ البيت! ثم قال لمُعاذ: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة، والصَّدقة تُطفئ الخطيئة كما يُطفئُ الماءُ النارَ، وصلاةُ الرجل من جوف الليل، ثم تلا ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

ثم قال لمُعاذ: ألا أُخبرك برأس الأمر كله، وعموده وذروة سنامه؟

رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله.

ثم قال له: يا معاذ ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟

فقال مُعاذ: بلى يا رسول الله!

فأخذَ النبيُّ ﷺ بلسانه وقال: كُفَّ عليكَ هذا!

فقال له مُعاذ: يا نبيَّ الله وإنا لمُؤاخذون بما نتكلم به؟

فقال له: ثكلتكَ أمّكَ يا معاذ، وهل يكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟!

هذا اللسان ليسَ فيه عظم ولكنه يكسِرُ العظم!

كم شخصٍ لم ينمْ ليلةً بسبب كلمةٍ جارحةٍ قالها له أحدهم ربما على سبيل التندُّر، فانفضَّ المجلس، وبقيتْ تلك الكلمة مغروزة كالسكين في قلبه!

كم بنتٍ توقَّف زواجها بسبب كلمةٍ قالها شخص في عرضها وهي بريئة براءة الذئب من دم ابن يعقوب عليهما السَّلام!

كم شخصٍ فقد وظيفته، وقُوت أسرته وعياله، بكلمةٍ وشايةٍ من شخصٍ مؤذٍ يُحِبُّ الوشاية، ويُجيد التسلُّق على أكتاف الناس!

كم ميراثٍ سُلِب، بكلمةٍ على هيئة شهادة زور، كانت نتيجتها أن يُحرم إنسان من حقه ويأخذ غيره ما ليس له حق فيه!

كم صداقةٍ جميلة انفرط عقدها بكلمة على هيئة نميمة قِيلت عبثاً وحسداً وحقداً، فأضرمتْ النار، وأحالتْ الصداقة إلى عداوة، وملأتْ القلوب حقداً، بعد أن كانتْ عامرةً حُباً!

انظروا في كلامكم، وأقلامكم، في منشوراتكم في مواقع التواصل، في ردودكم على الناس، وتذكَّروا أنكم تكتبون في صحائفكم أولاً، وأنه لا يكب الناس على وجوههم في النار يوم القيامة إلا حصائد ألسنتهم!

سُبِقتِ العضباء!

كان للنبيِّ ﷺ ناقةٌ تُسمى العضباء، سريعة لا تكادُ تُسبق، وكان من عادة العرب أن يُروِّحوا عن أنفسهم بسباق الإبل، ونبيُّ القوم منهم فكان يُسابقُ معهم، وكان الصحابة يفرحون إذا حلَّتْ العضباءُ أولاً وسبقتْ بقيَّة النوق، وذات يوم جاء أعرابي على جملٍ له فسابقَ النبيَّ ﷺ فسبقه، فحزنَ الصحابة لذلكَ، وقالوا سُبقتِ العضباءُ!

فلما رأى ذلك في وجوههم قال: «إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ لا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ»

الترويحُ عن النفس بالمُباح أمرٌ مشروع، لا يُنقص من الإيمان، ولا يقدحُ في رزانة الشخصية، واعتزالُ الحياة بكل ما فيها ليس غرضَ هذا الدين، وإنما يُريدُ اللّٰه منا أن ننغمسَ في الحياة وفقَ شرعه، نتمازح، ونخرجُ في النزهات، ونتزاور، ونذهب إلى الأسواق، ونتاجر، والحياة في كنفِ اللّٰهِ جنة من جنان الدنيا فعيشوها!

تواضعْ، مهما بلغتَ من الإيمان لن تبلغَ ذرَّةً مما بلغه النبيُّ ﷺ، وها هو يشتركُ في سباقات قومه، يربحُ ويخسرُ، بل ويتقبَّلُ الخسارة بصدرٍ رحبٍ، وينتهزُ الفُرصة لدرسٍ من دروس العقيدة! ومهما بلغتَ من المُلكِ وأوتيتَ من المالِ والجاه لن تبلغَ ذرَّةً

في مُلكِ سُليمان عليه السَّلام وها هو يقف ويستمع لخطاب نملة ويبتسم!

التقوى ليستْ في اعتزال الحياة وإنما في اعتزال الحرام!

يوم نزل قول الله تعالى ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ فرح الصحابة بها وحُقَّ لهم، ولكن أبا بكر بكى يومها وقال: ليس بعد التمام إلا النقصان!

فإذا كان هذا الدين الذي حكم أتباعه هذا الكوكب، وقادوا الحضارة البشرية قروناً بعظمةٍ واقتدارٍ دار عليهم الزمان بعد أن فرطوا بالحق الذي بين أيديهم فباتوا في موقع المتأخر، فهل سيبقى هذا الباطل الذي يسود الدنيا هذه الأيام، لا واللهِ لن يدوم، وما وصول الباطل قمته التي نراها اليوم إلا بشارة بقرب زواله، وإنَّ أحلكَ ساعات الليل هي تلك التي تسبقُ الفجر بقليل.

تذكروا أن العضباء سُبقتْ لأنه كان حقاً على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه، هذا والعضباء دابة، أفلا يضعُ الله هذا الشر والفجور وقد بلغ ذروته؟!

بثمنِها يا أبا بكر!

كان من عادةِ النبيِّ ﷺ في مكة قبل الهجرة أن يأتيَ بيتَ أبي بكرٍ إما صباحاً وإما مساءً، وفي أحد الأيام أتاهُ ظُهراً على غيرِ عادته، فقالَ أبو بكر بفراسته المعهودة: ما جاءَنا النبيُّ ﷺ في هذه السَّاعة إلا لأمرٍ قد حدث!

فلما دخلَ النبيُّ ﷺ قال لأبي بكر: أَخْرِجْ مَن عندكَ!

فقال أبو بكر: يا رسول الله إنما هما ابنتايَ أسماء وعائشة!

فقال له النبيُّ ﷺ: أُذِنَ لي في الخروج/الهجرة!

فقال أبو بكر: الصُّحبة يا رسول الله!

فقال له: الصُّحبة يا أبا بكر!

فقال أبو بكر: يا رسول الله عندي ناقتين أعددتُهُما للخروج، فخُذْ إحداهما!

فقال له: قد أخذتُها بالثمن، فلا أركبُ بعيراً ليس لي!

فقال أبو بكر: فهو لكَ!

فقال له: لا، ولكن بالثمن الذي ابتعتها به.

فقال أبو بكر: بثمنها إن شئتَ!

في الحقيقة لم تكن العلاقة بين النبيِّ ﷺ وبين أبي بكرٍ بهذه الرَّسمية، وهذا الحساب بالدرهم والدينار، على العكس تماماً نذرَ أبو بكر نفسه وماله فداءً للنبيِّ ﷺ، وكان عليه السَّلام يأخذُ منه دون حرج، ويكفي إثباتاً لهذا ما قاله قبل وفاته بأيام: «إنَّ من

أمَنِّ الناس عليَّ في صُحبتِه ومالِه أبو بكر»! لهذا السبب احتارَ الفُقهاءُ وأهلُ السِّيَرِ في إصرار النبيِّ ﷺ أن يدفعَ ثمن الناقة وأعجبني من أقوالهم ما ذكر عن أنّ النبيَّ ﷺ أصرّ أن يدفع ثمن الناقة لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبةً منه في استكمالِ فضلِ الهجرةِ والجِهادِ على أتمِّ أحوالِهما!

الأصلُ أن يتعامل الأصدقاء فيما بينهم بالمعروف، وأن لا يكون الحساب فيما بينهم كحسابِ التاجر والزبائن بالورقة والقلم، ومن خُلق الصحبة أن يتحسسَ المرءُ حال صديقه وخليله فإن عرفَ أنه له حاجة، أو نزلتْ به ضائقة أن يُسعفَه ويُعطيه قبل أن يُبادرَه بالسؤال، وإن بادرَه بالسؤال واستدانَ منه، فمن المروءة أن ينزلَ له عن بعضِ الدَّينِ فهذا من حُسنِ الصُّحبة ومكارم الأخلاق.

على أنه لا يتنافى مع الأخلاق أبداً أن تدُفعَ الحقوق بين الأصحاب كاملة، الأصدقاء ليسوا فاحشي الثراء كلهم، ويكفي من النُّبل أن أعانَ الصديقُ صديقَه وفرَّج كربَه، ولكن يبقى الإحسان والمعروف سيدا الأخلاق!

هلَّا مع صاحب الحق كنتم!

جاء أعرابي إلى النبيِّ ﷺ يتقاضاه ديناً عليه، فأغلظَ القول، حتى أنه قال: أُحرِّجُ عليكَ إلا قضيتني!

فانتهره الصحابة وقالوا: ويحكَ أتدري من تُكلِّم؟!

فقال: إني أطلبُ حقي!

فقال النبيُّ ﷺ لهم: هلَّا مع صاحب الحقِّ كُنتم!

ثم أرسلَ إلى خولة بنت قيس، فقال لها: إن كان عندكِ تمرٌ فأقرضينا حتى يأتينا تمركِ فنقضيكِ!

فقالت: نعم، بأبي أنتَ وأمي!

فأقرضته، فأعطى للأعرابي، وزاده عن حقه!

فقال الأعرابيُّ: أوفيتَ أوفى اللّٰه لكَ.

فقال النبيُّ ﷺ: أولئك خيار الناس، إنه لا قُدِّسَتْ أُمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع/من غير أن يُصيبه أذى!

الدُّنيا لا تلبثُ على حال، وقلما تستقيمُ لأحد، يوم عُسر ويوم يُسر، يوم صحة ويوم مرض، يوم سعادة ويوم كدر، وهي بأمر اللّٰه لا تكفُّ عن مفاجئتنا، يحسبُ الإنسان حساباً ثم يشاء اللّٰه آخر! وقد ينزلُ بالإنسان أمر يضطره أن يستدين، والناس لبعضها، ومن فرَّج عن مسلم كربةً من كُرَبِ الدنيا، فرَّج اللّٰه عنه كُربةً من كُرَبِ الآخرة، على أن المدين يجب أن يُقابل الدائن بالإحسان، يكفي أنه مدَّ له يد العون، فلا يُماطل إذا جاء وقت السداد، وإذا لم

تتيسر أموره فمن النُبل أن لا يتناسى بل أن يُخبره بتعسُّرِ أمره ويطلب مهلة أخرى!

لا يُحتملُ من النبيِّ ﷺ أن يُخلف وعده، والأعرابي جاء يطلبُ دينه لحاجة وقعتْ به قبل أن يحين وقتُ السَّداد، فأغلظَ القول، وقال كلاماً بأسلوبٍ فظٍّ ما كان ينبغي أن يُقال للنبيِّ ﷺ، ولكن النبيّ ﷺ رفضَ تعنيف الصحابة للأعرابي على سوء أسلوبه، لأن سوء الأسلوب لا يُلغي أنه صاحب الحق، وأخبرهم أنهم كان يجب أن يقفوا مع صاحب الحق!

علينا أن نفهم أن صاحب الحق قد يطلبه بأسلوبٍ فظٍّ، ربما صاحب الدين قال كلاماً قاسياً، والزوجة المظلومة زادتْ في شكواها، والعامل الذي أُكِل حقه لجأ إلى التشهير، هذه الأساليب لا تُلغي أن لهم حقاً وعلى من يستطيع إعانتهم في نيل حقوقهم أن يُعينهم، ثم بعد ذلك نُصح وإرشاد عن أدب استيفاء الحقوق، أما أن نُعطي صاحب الحق درساً في التربية المدنية، وأدب التخاطب دون مساعدته لنيل حقه، أو إخباره أنه صاحب حق على الأقل فمثالية زائدة!

أما أن نأكل حق إنسان لسوء أسلوبه، فنجعل هذه مقابل تلك، فهذا ليس من الإسلام في شيء، أنتَ مطالب أن تدفع ما عليكَ ولستَ مطالباً أن تربي الناس!

غيِّرْ عتبة بابك!

تركَ إبراهيم عليه السَّلام بأمرٍ من اللّه سبحانه زوجته هاجر وابنها الرَّضيع إسماعيل عليه السَّلام في مكة، ثم كانتْ حادثة ماء زمزم الشهيرة، وساقَ اللّه سبحانه قبيلة جرهم لتُؤنسهم، وشبَّ إسماعيل عليه السَّلام بينهم، وتعلَّمَ العربيَّة منهم، ثم زوَّجوه امرأة منهم، ثم ماتتْ أُمنا هاجر، وجاءَ إبراهيم عليه السَّلام ينظرُ ما حلَّ بهم، وذهبَ إلى بيتِ إسماعيل عليه السَّلام، فسأل زوجته عنه، فقالت: خرجَ يبتغي لنا/يُحصِّل معيشتنا. ثم سألَها عن حالِهم ومعاشِهم، فقالتْ: نحن في شرٍّ، نحن في ضِيقٍ وشِدَّة، وأخذتْ تشكو إليه وهي لا تعلم من هو.

فقال لها: إذا جاءَ زوجكِ فاقرئي عليه السَّلام، وقولي له يُغيِّر عتبةَ بابه!

فلما جاء إسماعيل عليه السَّلام، كأنَّه شعرَ بشيءٍ فسأل زوجته: هل جاءكم من أحد؟

فقالتْ: نعم، جاءنا شيخٌ أوصافه كذا وكذا، فسألنا عنكَ فأخبرته، وسألني كيف عيشنا فأخبرْتُهُ أننا في فقرٍ وشِدَّة!

فقال لها: وهل أوصاكِ بشيء؟

فقالت: نعم، أمرَني أن أقرأ عليكَ السَّلام، ويقول لكَ غيِّرْ عتبة بابكَ!

قال: ذاكَ أبي، وقد أمرَني أن أُطلِّقكِ، الحقي بأهلكِ!

لم يَعِبْ إبراهيم عليه السَّلام زوجة ابنه في عرضها، معاذ الله، ثم إنَّ بيوت الأنبياء معصومة من هذا وإن لم تُعْصَمْ من الكُفر! وخيانة زوجتيّ نوحٍ ولوطٍ عليهما السَّلام الواردة في القرآن هي خيانة العقيدة والكفر لا خيانة الفِراش! ولكنه عابَ عليها كثرة نقها وشكواها وقِلة رضاها، فالمرأة كثيرة الشكوى والتبرُّم من أمور الرزق نائبة من نوائب الدَّهر، والرجال كذلك!

إسماعيل عليه السَّلام لم يَدَّخِر جهداً لتأمين قوت أهله باعتراف زوجته التي قالتْ خرج يبتغي لنا، ولكنها امرأة شَغَلَها النظر إلى ما في أيدي الناس عن النظرِ إلى ما في يدها فأدى ذلك إلى كفران النعمة، لهذا أمره أن يُطلِّقها!

وكذلك أمرَ عُمر بن الخطاب ابنه أن يُطلِّقَ زوجته فامتثلَ لأمره.

وجاءَ رجلٌ إلى الإمام أحمد يسأله في أمر أبيه الذي أمره أن يُطلِّق زوجته، فسأله: هل تعيب عليها شيئاً في دينها؟

فقال: لا.

فقال له: فلا تُطلِّقها!

فقال: ولكن إبراهيم عليه السَّلام، وعُمر بن الخطاب رضي الله عنه أمرا ابنيهما بطلاق زوجتيهما ففعلا.

فقال له: إن كان أبوكَ كإبراهيم عليه السَّلام وعمر بن الخطاب فطلِّقها!

خُلاصة الكلام أن الابن ليس مأموراً بطلاقِ زوجته إن كان دينها حسناً، وليس من البِرِّ طاعة الأبوين في خراب البيوت،

وخسـارة امـرأة صالحـة، علـى أن بِـرَّ الآبـاء والأمهـات واجـب وإن كرهـا الزوجـة!

هـذه الدنيـا دار امتحـان، والـرزقُ مـن امتحانـات اللّٰه فـي الدنيـا، وعلينـا رجـالاً ونسـاءً أن نتـأدَّب مـع اللّٰه، ونـرضـى بأقـداره، دون تـرك أسـباب الـرزق، والإقبـال علـى المِهـن والأعمـال، والرِّضـا عـن قسـمة اللّٰه غنـى، والسـخط فقـر آخـر، وعلـى الأهـل أن يتقـوا اللّٰه ولا يسـعوا فـي خـراب بيـوت أبنائهـم!

ثبِّتْ عتبة بابك!

بعدما جاء إبراهيم عليه السَّلام لزيارة ابنه إسماعيل عليه السَّلام فلم يجده، ووجد زوجته، وسألَها عن حالِهم، فأكثرتْ من الشكوى من ضِيق الرزق، فأمرَه بطلاقِها، فامتثل لأمر أبيه كما تحدثنا المرة الماضية، عادَ إبراهيم عليه السَّلام مرةً أخرى لزيارةِ ابنه، فلم يجده أيضاً، ولكنه وجدَ زوجته الجديدة التي تزوَّجها بعد طلاق الأولى، فسألها عنه، فقالت: خرجَ يبتغي لنا/ أي يبحث لنا عن رزق.

قال: كيف أنتم؟ وكيف عيشكم؟

فقالتْ: نحن بخيرٍ وسَعَة، وأثنتْ على اللّهِ خيراً.

فقال: ما طعامكم؟

فقالت: اللحم.

فقال: ما شرابكم؟

فقالت: الماء.

فقال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء! ولم يكن لهم من طعام غيره وإلا لكان دعا لهم بالبركة فيه!

ثم قال لها: فإذا جاءَ زوجكِ فاقرئي عليه السَّلام وقولي له: ثبِّتْ عتبةَ بابكَ!

فلما جاء إسماعيل عليه السَّلام قال لها: هل أتاكم من أحد؟

فقالتْ: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنتْ عليه، وسألني عنكَ فأخبرته، وسألني عن عيشنا فأخبرته أننا بخير!

فقال: فهل أوصاكِ بشيء؟
قالتْ: نعم، هو يقرأ عليكَ السلام ويأمركَ أن تُثبِّت عتبة بابك!
فقال: ذاكَ أبي، وأنتِ العتبة، وقد أمرني أن أمسككِ!

إسماعيل عليه السَّلام هو إسماعيل عليه السلام مع زوجته الأولى والثانية، ليس له من طعام غير ما يصطاده بقوسه ونشابه، فقد كان من أمهر الناس بالرمي، وقد مرَّ النبيُّ ﷺ على أصحابه وهم يتدربون على الرمي فقال: ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً! ولكن الفارق هو نظرة كل من الزوجتين إلى الرزق الذي يُحصِّله زوجها، الأولى مُتبرِّمة مُتسخِّطة، والثانية قانعة راضية، هذا لأن الغنى إنما مصدره ما في قلب المرء لا ما في جيبه!

والأولى امرأة فاضحة هاتكة للأسرار، تنشر أمور بيتها، وتشكو زوجها، والثانية امرأة ساترة حافظة للأسرار شاكرة للنعم، إن وجدتْ خيراً حمدت الله وإن وجدتْ ضيقاً صبرتْ وحمدت الله كذلك!

المرأةُ الصالحةُ القانعةُ كنزٌ من كنوزِ الدنيا فتمسَّك بها بأسنانك وأظفارك، واغفر لها ما يكون منها نظير صبرها ورضاها، فلا أحد يخلو من خطأ، وأنتَ لستَ كاملاً لتطلب منها الكمال، ولكن ثمة صفات تغفر كل ما عداها، فلا تترك كثير خير لأجل قليل شر، فنحن لسنا أنبياء!

وعلـى الأهـل إن رأوا فـي كِنتهـم صبـراً ورضـى، وحسـن خُلُـقٍ وعقـل، أن يمدحوهـا أمـام ابنهـم، وأن يأمـروه بالحفـاظ عليهـا فهـذا خلـق الأنبيـاء، ومـا يُقـال فـي الكِنـة يُقـال فـي الصهـر أيضـاً!

ولا تحقِرنَّ من المعروف شيئاً!

جاء سليم بن جابر الهجيمي إلى النبيِّ ﷺ وقال له: يا رسول الله أوصِني.

فقال له: عليكَ باتقاء الله، ولا تحقِرَنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تُفْرِغَ من دلوِكَ في إناءِ المُستقي، وتُكلِّمَ أخاكَ ووجهكَ منبسطٌ إليه، وإياك وإسبال الإزار، فإنها من المُخيلة ولا يُحبها الله.

وإن امرؤٌ عيَّركَ بشيءٍ يعلمه فيكَ فلا تُعيِّره بشيء تعلمه فيه، دعه يكون وباله عليه، وأجره لكَ. ولا تسُبَّنَّ شيئاً!

يقولُ جابر فما سببتُ بعده دابةً ولا إنساناً!

لا تحقِرَنَّ من المعروف شيئاً، فإنكَ لا تدري أي حسنةٍ تُدخلكَ الجنَّة!

أن تُوقف سيارتكَ لتعبرَ قطة الطريق معروف، وأن تُمسك بيد عجوز تعبر بها الطريق معروف، وأن تجرَّ قعيداً على كرسيه معروف، وأن تُعطيَ عاملاً قارورة ماءٍ معروف، وأن تحمل عن رجلٍ مسنٍ كيساً يُتعبه معروف، وأن تصلح بين زوجين معروف، وأن تتغاضى عن زوجتك معروف، وأن تصفح عن أولادك معروف، وأن تُهدي إلى جارك شيئاً معروف، وأن تُعين مريضاً في علاجه معروف، المعروف لا نهاية له، والطُّرُق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، فيا تعسَ من كثرتْ أمامه الطرق فلم يمشِ!

ولا تجعل الناس معياراً لأخلاقك إن أحسنوا أحسنتَ وإن أساؤوا أسأتَ، فلو قابلنا الإساءة بالإساءة فمتى تنتهي الإساءة؟!

ثمة خُلقٌ نبيلٌ اسمه الترفُّع، أن لا تسمح لأحدٍ أن يُنزلكَ إلى مستوى أخلاقه، ليسَ عليكَ أن تخوضَ في كل جدالٍ تُدعى إليه، ولا أن تُشارك في كل معركةٍ تُفتح أمامك، أغلبُ معارك الحياة اليومية تافهة، ليس فيها لذة النصر وإن انتصرتَ، وفيها مرارة الهزيمة إن هُزِمتَ، عندما نتخلَّى عن أخلاقنا لنقابل الذي تخلَّى عن أخلاقه فبم نختلف نحن عنه غير أنه هو الذي كان البادئ؟!

العاقل لا يرى لنفسه ثمناً إلا الجنة، وكل قضية ليستْ طريقاً إلى الجَنَّةِ دعها، وأنتَ المُنتصر مهما كانت النتائج، وما زاد اللّه عبداً بعفوٍ إلا عزاً!

والأيامُ تدورُ وصاحبُ الحقِّ مُنتصرٌ نهاية المطاف، وصاحبُ الباطلِ مغلوبٌ، هذه هي سُنة اللّه تعالى في الناس، الأيدي التي باعتْ يوسف عليه السَّلام بدراهم معدودة هي التي امتدَّتْ إليه تطلبُ الصدقة منه!

والذين رموا النبيَّ ﷺ بالجنون والكذب وقفوا نهاية المطاف يسترحمونه قائلين: أخ كريم، وابن أخٍ كريم!

اِمْحها يا عليَّ!

جاءَ النبيُّ ﷺ للعُمرة قبل فتح مكة، فمنعَتْهُ قُريش من البيتِ الحرام، وبعد أخذٍ وردٍّ ومفاوضات، كان صُلح الحُديبية، وأرسلتْ قُريشُ سهيلَ بن عمرو سفيراً لها ليُوقِّع الصُلح نيابة عنها، وبعد الاتفاق على البنود، أمرَ النبيُّ ﷺ عليَّ بن أبي طالب أن يكتبَ هذا الاتفاق ليتم التوقيع عليه. فكتبَ عليٌّ بنودَ الاتفاق فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو: لا نعرفُ هذا وإنما اُكتبْ باسمك اللهم، فأمرَ النبيُّ ﷺ علياً أن يكتبَها هكذا. ثم أكملَ يقرأ هذا ما اتفقَ عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو.

فقال سهيل: لو نعلمُ أنكَ رسول الله ما صددناك عن البيت، ولكن اكتبْ محمد بن عبد الله!

فقال النبيُّ ﷺ لِعليٍّ: اِمحها يا علي واكتبْ محمد بن عبد الله.

فقال عليٌّ: واللهِ لا أمحوها أبداً يا رسول الله!

فطلبَ النبيُّ ﷺ من عليٍّ أن يَدُلَّهُ عليها لأنه لا يقرأ، فدلَّه عليها فمحاها بيده الشريفة، وتمَّ الصُلح!

وهذه الحادثة إنما تُسجَّلُ في مناقب عليٍّ ولا تُعَدُّ عصياناً لأمرِ النُّبُّوة، وحاشا عليٌّ أن يعصيَ أمرَ النبيِّ ﷺ، وإنما هي الحرقة والغيرة على دينِ اللهِ!

ومثلُ هذا ما كان من أبي بكر يوم مرضَ النبيُّ ﷺ فأمر أبا بكر أن يُصلِّيَ بالناس، وحين دخلَ النبيُّ ﷺ المسجد عندما شعر

بتحسُّن وشقَّ الصفوف ليصل للصف الأول، واستشعرَ به أبو بكر، تراجعَ ليترك الإمامة للنبيِّ ﷺ، فأمره أن يثبتَ مكانه إماماً، فأبى وتراجع، ولمّا سأله بعدها: ما منعكَ أن تثبتَ إذ أمرتك؟

فقال: ما كان لابن أبي قحافة أن يُصلي بين يدي رسول اللّه ﷺ!

وفي الحياة العامة، قد يطلبُ الأبُ من ابنه الجُلوس في المقعد الأمامي، فيرفض الابن ويُصرُّ أن يركب أبوه فيه، وهذا ليس من رفض أمر الأب، على العكس هو من البِر، فهذا رفضٌ نابعٌ من الحُب والتبجيل، والمعنى واضح جلي لا يحتاج إلى مزيد توضيح!

في اِمحها يا علي دروس عظيمة يجب على الأُمَّة أن تتعلَّمَها:

١. فيها التجاوز عن الأمور الصغيرة والشكليات لحساب المضمون!

٢. عدم إضاعة الوقت في الجدال العقيم والاهتمام بالنتائج!

٣. لا بأس بخسارةٍ لحظِيَّةٍ لأجل فوزٍ استراتيجيٍّ!

٤. التراجعُ إلى الوراء قد يكون أحياناً ضرورياً للقفز بعيداً إلى الأمام!

٦. التجاهلُ والتجاوزُ من شِيَمِ العُظماء وما أحوجَنا لثقافة التجاوز مع الأقرباء والأصدقاء قبل الأعداء!

قراءة ابن أم عبد!

جاءَ رجلٌ إلى عُمر بن الخطاب فقال: إني جئتكَ من عند رجلٍ يُملي المصاحف عن ظهر قلب!

ففزعَ عمر وغضبَ، وقال له: ويحكَ انظُرْ ما تقول!

فقال: ما جئتك إلا بالحقِّ.

فقال له عمر: من هو؟

فقال: عبد الله بن مسعود.

فقال: ما أعلمُ أحداً أحقّ بذلك منه، وسأحدثك عن ذلك، إنّا سهرنا ليلةً في بيتِ أبي بكرٍ في بعض ما يكون من حاجة النبيِّ ﷺ، ثم خرجنا ورسول الله ﷺ يمشي بيني وبين أبي بكر، فلما وصلنا إلى المسجد إذا رجل يقرأ، فوقفَ النبيُّ ﷺ يستمعُ إليه، فقلتُ له: يا رسول الله، أعتمتْ/أي تأخر الوقت فهيا نمضي، فغمزني بيده يعني اُسكُتْ.

فقرأَ، وركعَ، وسجدَ، وجلسَ يدعو ويستغفر، فقال النبيُّ ﷺ: سَلْ تُعْطَ. ثم قال: من سرَّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أُنزِلَ فليقرأ قراءة ابن أم عبد!

فعلمتُ أنا وأبو بكر أنه عبد الله بن مسعود، فلما أصبحتُ وذهبتُ إليه لأبشره، فقال لي: سبقكَ بها أبو بكر!

وما سابقتُ أبا بكرٍ إلى خيرٍ قط إلا سبقني!

الشَّاهد في القصة كيف كان الصحابة رضوان الله عليهم يُحبُّون الخير لبعضهم، ويرون في تفوق أحدهم في مجالٍ ما ثراءً لهم جميعاً، فالأمر عندهم تكامل لا تنافس، فلا يشعرون بالغيرة والحسد من نُبوغِ أحدهم، ولا تضيق صدروهم بثناء النبيِّ ﷺ على أحدهم، كانوا يُحبون الخير للناس كما يُحبونه لأنفسهم، كانتْ صدورهم سليمة، وقلوبهم طيبة، وها أبو بكر وعمر يتسابقان أيهما يُخبر ابن مسعود بالبُشرى!

نجاحُ الناس ليس فشلاً لكَ، وغناهُم ليس فقراً لكَ، وسعادتُهم ليستْ تعاسةً لكَ، نَقِّ قلبكَ، عوِّده الخير ومحبة الناس، علِّمه أن يفرحَ لفرحهم، ويحزن لحزنهم، سلامة الصدر أقصر طرق الجنة!

كُن رسول خير، كهُدهد سُليمان عليه السَّلام لا ينقل إلا الخبر الصحيح،

وكحمامة نوح عليه السَّلام تزفُّ خبر انتهاء الطوفان،

امشِ بين الناس بالخير،

احمِلْ كلمة حلوة لإنسان قيلتْ عنه في غيابه،

واكتمْ الكلام السيىء،

ولا تمشِ بالنميمة بين الناس، فتكون رسولاً لإبليس.

جاء رجلٌ إلى وهب بن منبه وقال له: إنَّ فلاناً شتمك

فقال له: أما وجدَ الشيطان رسولاً غيرك!

معكَ ملكٌ يردُّ عنك!

شتمَ رجلٌ أبا بكرٍ الصديق والنبيُّ ﷺ جالس، فلم يرُدَّ أبو بكر على الرَّجُل بشيءٍ، فجعلَ ذلك النبيَّ ﷺ يعجبُ ويتبسَّمُ. فلما زاد الرَّجُلُ في الشتائمِ والوقاحةِ، ردَّ عليه أبو بكر بعضَ قوله، فغضِب النبيُّ ﷺ وقامَ، فلحقه أبو بكر فقال له: يا رسول الله كان يشتمني وأنتَ جالسٌ، فلمَّا رددتُ عليه بعضَ قوله، غضبتَ وقمتَ.

فقال له النبيُّ ﷺ: «إنه كان معكَ ملكٌ يرُدُّ عنكَ، فلما رددتَ عليه بعضَ قوله، وقعَ الشيطانُ، ولم أكُنْ لأقعدَ مع الشيطان»!

ثم قال: «يا أبا بكر ثلاثٌ كُلُّهُنَّ حقٌّ: ما من عبدٍ ظُلم بمظلمةٍ فيغضي عنها/يتجاهلها لله، إلا أعزَّ الله بها نصره، وما فتحَ رجلٌ باب عطِيَّةٍ يُريدُ بها صلةً إلا زاده الله بها كثرةً، وما فتحَ رجلٌ بابَ مسألةٍ يُريدُ بها كثرةً إلا زاده الله عزَّ وجلَّ بها قِلَّةً»!

إذا فشلتَ في رفعِ أحدٍ إلى مستوى أخلاقك فلا تدعْه ينجح في إنزالك إلى مستوى أخلاقه! عندما تُحاربُ خسيساً بسلاحه تتساوى معه، وإن ردَّ البذاءةِ بالبذاءةِ بذاءةٌ أيضاً، ولو أن كل صاحب فضلٍ نزل إلى مستوى سفيهٍ جاء يُباريه لم يبقَ على هذه الأرضِ صاحبُ فضل!

مما يُنسبُ إلى مارك توين قوله:» إياكَ أن تُجادل السفهاء، سيُنزلونك إلى مُستواهم الدنيء، ثم يهزمونك بفارقِ الخِبرة!«

ويقولُ الإنكليزُ في مثلهم الشعبي: لا تُصارع الخنزير في الوحل، فستتسخَ أنتَ، ويستمتعَ هو، لأن القذارة أسلوب حياته!

ليسَ عليكِ أن تخوضَ كل معركةٍ تُفتح أمامك، ولا أن تشترك في كل جدال تُدعى إليه، ثمة معارك النصر الوحيد فيها أن لا تخوضها منذ البداية!

تجاهلْ وتغاضَ فإن التجاهل من خُلق الأنبياء ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾

ويقولُ الإمام أحمد: تسعة أعشار العافية في التغافُل!

ويقول الإمام الشافعي: الكيِّس العاقل هو الفطن المُتغابي!

ومن قول الشافعي، استمدَّ أبو تمام بيته الشهير فقال:

ليسَ الغبيُّ بسيدٍ في قومه
لكنَّ سيِّد قومه المُتغابي!

ما فعلَ النُغَيرُ؟!

كان لأنس بن مالك خادم النبيِّ ﷺ أخٌ صغير يُكنَّى «أبو عمير»، وكان من عادة العرب أن تُكني أولادها منذ الصغر، ومنهم من كان يُكنِّي البنات أيضاً وهُنَّ صغيرات! وكان لأبي عُمير طائر صغير يُلاعبه اسمه النُغير. وكان النبيُّ ﷺ إذا جاء إلى بيتِ أبي طلحة ليزور أنسَ ابن مالك في بيته، لاعبَ الطفلَ الصغيرَ قائلاً له: أبا عُمير ما فعلَ النُغَيرُ!

كان من عادةِ النبيِّ ﷺ أن يزورَ الصحابة في بيوتهم، وهذا من تواضعه، وحِرصه على الإلفة، وجبر الخواطر، وما زال التزاور بين الناس محموداً بضوابط، وهي ألا تزور الناس كثيراً حتى لا يَمَلُّوا منك وحديث «زُرْ غِباً تزدد حباً» فإن كان لا يصح عن النبيِّ ﷺ فإنه صحيحٌ بالتجربةِ المُعاشةِ، فزُرْ أحبابك وأقرباءك وأصدقاءك ولكن لا تكُنْ لصقةً فللناسِ مشاغل وكثير الزيارة لا بُدَّ أن يُمَلَّ، على أنّ الزيارة أجمل ما تكون من الأثرياء والمُتنفِّذين للفُقراء والمساكين في بيوتهم فهذا له أثر طيب على نفسيةِ الزائرِ حيث يُبقيه في دائرة التواضع ويُبعدُه عن الكِبر، وعلى نفسيةِ المُزارِ وما يَلحقُه من جبرِ خاطره، وجبر الخواطر عبادة!

ليسَ عليكَ أن تكون جدِّياً على الدوام، ثقافتك وعلمك ومركزك لا تنقص بتواضعك ولينك وملاطفتك، على العكس تماماً

مـا يُنقـص منهـا هـو أن تتعامـلَ مـع الجميـع بعقليـة واحـدة، وانظُـرْ لِلُطْـفِ النبـيِّ ﷺ ولينـه كيـف يُمـازح صبيـاً صغيـراً، ويُحدثـه ببسـاطةٍ وبلغـةٍ يفهمهـا، وعـن أمـرٍ يهتـم بـه وهـو أكثـر النـاس همـاً ومسـؤولية، وليـس فـي تاريـخ البشـرية مـن وظيفـة أصعـب مـن وظائـف الأنبيـاء!

قـد تتحـدث زوجتـك معـكَ بأمـرٍ تـراه تافهـاً، مـا لـكَ أنـتَ ولطبخـةِ الغـدِ، أو لمسـحوقِ الغسـيلِ الـذي لا يُنظِّـفُ جيـداً، أو لمـدى مناسـبة لـون السـتائر للغرفـة، ولكـن عليـكَ أن تُبـدي اهتمامـاً وتُعطـي رأيـكَ كأن الأمـر يعنيـك، وكأنـه قضيـة مفصليـة مـن قضايـا الأُمَّـة الشـائكة، وأي تصـرُّف غيـر هـذا هـو حماقـة!

أحيانـاً علـى الإنسـان أن ينـزلَ بإرادتـه إلـى أدنـى مسـتوياتِ العقـلِ ليصـلَ إلـى أعلـى مسـتويات القلـب عنـد الآخريـن!

الغِنـى الـذي لا يُزينـه التواضـع هـو فقـرٌ آخـر، والعِلـمُ الـذي لا يجعلـك قريبـاً مـن النـاس هـو جهـلٌ آخـر، شـهادتك وثروتـك ومركـزك هـذه أشـياء لـكَ وحـدكَ أمـا أخلاقـكَ فهـي للنـاس!

سِجْنُ المؤمن وجنَّةُ الكافر!

شغلَ الحافظُ ابن حجر المقدسي منصبَ قاضيَ القضاة، فمرَّ في طريقه إلى دار القضاء بالسوق في موكب عظيم، وهيئة جميلة، يقتضيها هذا المنصب الذي يُعتبر بمقياس زماننا جامعاً بين وزير العدل ورئيس المحكمة الدستورية العليا! فاقتحمَ موكبه بائع زيتٍ يهوديٌّ فقيرٍ، ثيابه مُلطخة بالزيت، وهيئته رثَّة، فأمسكَ بلجام فرس ابن حجر وقال له: يا شيخ الإسلام، تزعمُ أن نبيكم قال: «الدنيا سِجن المؤمن وجَنة الكافر» فأي سجن أنتَ فيه، وأي جنةٍ أنا فيها؟!

فقال له ابن حجر: أنا بالنسبة لما أعدَّه الله لي في الآخرة من نعيم كأني الآن في سِجن، وأنتَ بالنسبة لما أعدَّه الله لكَ في الآخرة من العذاب كأنك في جَنَّة!

فأسلمَ اليهودي من فوره، والقصة رواها المناوي في فيض القدير.

وقول ابن حجر هذا هو أحد التفسيرات الجميلة لهذا الحديث النبوي الشريف، على أننا لو نظرنا إلى حياة المؤمنين لوجدنا معنى آخر وهو أن حدود الله تُكبلهم، فالمؤمن يُقيده الحلال والحرام!

تتزين أمامه الشهوات التي يميل إليها بفطرته ونزعته الإنسانية فلا يُقدم عليها لأن روحه مكبلة بقيد التقوى!

ويسهلُ عليه جمعُ المال من الحرام، فيبحث عن الحلال الذي قد يكون أصعب بكثير من الحرام لأن يديه مُكبلتان بقيد خشية اللّه!

والعباداتُ قيدٌ كذلك وفيها مشقة، فصلاةُ الفجر شاقة، والصيامُ مُتعب، والحجُّ مُضنٍ، وكلمةُ الحق خطرة، والمالُ عزيز، والعِفةُ تحتاج إلى مُجاهدة، والأمانةُ أصعب من الخيانة، وغضُّ البصر خِلاف الهوى، والنفسُ أمَّارة بالسوء، وطريقُ الجنة شائكة بينما طريق النار مُعبَّدة!

على المقلب الآخر تجدُ الكافر حرًّا طليقًا! لا آية تزجره عن الرِّبا، ولا سورة المطففين تضبط ميزانه، وآداب سورة الحجرات لا تدخل ضمن حساباته، لا وضوء بالماء البارد، ولا صلاة فجر تُوقظه من أحلى لحظات نومه، ولا صيام يقطع عليه طعامه وشهوته، أحاديث بِر الوالدين ليست في منظومته، والإحسان إلى الجار مُجرد عادة اجتماعية محمودة إن فعلها كان به وإن لم يفعلها فلا قانون يُحاسبه على تركها!

ويا لقيد الإيمان ما أجمله، ويا لانفلات الغرائز ما أتعسه، فهنيئاً لمن عاش سجنه برضى ربه، ويا تعسَ من حرَّرَ نفسه من قيد خالقه فقيّد نفسه بقيد شهوته!

اللهمَّ إني أمسيتُ راضياً عنه!

كان عبد اللّهِ بن عبد نهم المزنـي يتوقُ إلى الإسلام ولكنَّ قومه ضيَّقوا عليه ومنعوه، ولما علموا إصراره أخذوا منه كل شيءٍ إلا بجادٍ/كساء غليظ عليه ليضمنوا بقاءه عندهم، ولكن هذا لم يمنعه ممَّا يتوقُ له قلبه، فغافلَهم وخرجَ ليس عليه إلا بجاده، فلما اقتربَ من المدينة شقَّ بجاده فجعلَه قطعتين كملابس الإحرام، فاتَّزرَ بواحدة وارتدى الأخرى، ودخلَ على النبيِّ ﷺ مُعلِناً إسلامه، ولُقِّبَ منذ تلك اللحظة بذي البجادين!

وجاءتْ غزوة تبوك، وخرجَ ذو البجادين مع النبيِّ ﷺ في أبعدِ وأصعبِ غزواته، وبقية القصة يرويها لنا عبد اللّه بن مسعود قال:

قمتُ في جوف الليل في غزوة تبوك، فرأيتُ شعلةً من نارٍ في ناحية العسكر، فذهبتُ أنظُرُ ما الخبر، فإذا ذو البجادين قد مات، وإذا هم قد حفروا له قبره، ورسول اللّه ﷺ في حُفرته، وأبو بكر وعمر يُناولانه إياه ليضعه في قبره وهو يقول: أَدْنِيا إليَّ أخاكما!

فلما وضعَه في قبره بيديه الشَّريفتين قال: اللهمَّ إني أمسيتُ راضياً عنه، فارضَ عنه!

عندها قال ابن مسعود في نفسه: يا ليتني كنتُ صاحب الحُفرة!

من صَدَقَ مع اللّهِ أبلَغَهُ اللّه مُراده!

هـذا قانـونٌ سَنَّه ربُّ العـزةِ يـوم خلـق السـماوات والأرض لا يتغيَّـر ولا يتبـدَّل حتـى قيـام السَّـاعة!

خرجَ ذو البجادين تاركاً الدنيا كلها وراءه لا يُريدُ إلا اللّه ورسـوله، فكانـت مُكافـاة نهايـة الخدمـة علـى قـدر النيـة! النبـيُّ ﷺ يضعُـهُ فـي قبـره بيديـه ويُغلِـقُ ملـفَّ قضيتـه بشـهادة ودعـاء: اللهـم إنـي أمسـيتُ راضيـاً عنـه، فـارضَ عنـه!

وأبـو بكـر وعمـر همـا اللـذان نـاولاه للنبـيِّ ﷺ، أي مكافـأة هـذه يـا ذا البجاديـن أن تكـون آخـر الأيـدي التـي تلمسـك فـي الدنيـا أيـدي النبـي ﷺ وأبـي بكـر وعمـر؟!

الطريـقُ إلـى اللّه صعـبٌ وشـاقٌ وطويـل، ليـس المهـم أن تصـل، المهـم أن تمـوت علـى الطريـق، فهـذا بحـدِّ ذاتـهِ وصـول!

لـن تُسـأَلَ عـن عمـوم المُسـلمين وإنمـا ستُسـأل عـن نفسِـكَ، عـن عبادتِـكَ، عـن ورعِـكَ وتقـواكَ، عـن صدقاتِـكَ، وأخلاقِـكَ ومعاملاتِـكَ، عـن بيتِـكَ، عـن بناتِـكَ وحجابِهـن، وعـن أولادِكِ وصلاتِهـم، هـذه هـي قضيتـك، وهـذه هـي طريقـك، وإنَّ مـن عـاشَ علـى شـيءٍ مـاتَ عليـه!

فغفرَ اللّه لها!

حـدَّثَ مـرةً أصحابَـه مُحـاولاً أن يُخبرَهـم أن الجنَّـةَ أقـربُ إلـى أحدهـم مـن شِـراك نعلـه، فقـال: «إن امـرأةً بَغيـاً رأتْ كلبـاً فـي يـوم حـار يطـوفُ ببئـرٍ، قـد أدلـعَ لسـانه مـن العطـش، فخلعـتْ موقهـا/ حذاءهـا فنزعـتْ لـه بـه المـاء فغفـرَ اللّه لهـا»!

مـا أرحم هـذا الـرَّب الـذي يغفرُ لزانيـةٍ بشـربةِ مـاءٍ سـقتْها لكلب قد أصابَـه العطـش! فاعملوا، ولا تسـتصغروا عمـلاً فلعـلَّ بـه الجنَّـة وأحدنـا لا يـدري!

مـا كانـتْ هـذه المـرأة الزانيـة تعلـمُ أنَّ الجنَّـة فـي شـربةِ مـاءٍ تُقدِّمُهـا لهـذا الكلـب الـذي شـارفَ علـى الهـلاكِ مـن شـدةِ العطـش!

ولا كان الرجـلُ الـذي مـرَّ بغصـنِ شـجرةٍ علـى جانـبِ الطريـق، فقـال فـي نفسـه لأُنحّيـنّ هـذا عـن طريـقِ المُسـلمين لا يُؤذيهـم، يَعلـمُ أنَّ اللّه سـيغفر لـه كل ذنوبـه بقطعِـه لهـذا الغُصـنِ خـوفَ أن يُـؤذيَ المُسـلمين!

ولا كان الرجـلُ الـذي مـرَّ بطريـقٍ فوجـدَ عنـد حافتِـه غصـنَ شـوكٍ فأخَّـره، يعـرفُ أن اللّه سـيغفر لـه ذنوبـه بفعلتِـه البسـيطةِ تلـك!

هـذه النمـاذجُ الثلاثـة حدَّثنـا عنهـا النبـيُّ ﷺ، ليُخبرنـا أنَّ الجنـةَ قريبـةٌ جـداً، وأن اللّه سُـبحانه سـريعُ الرضـا واسـعُ المغفـرة، يكفـي أن ينظـرَ إلـى قلبـك فيـرى الرحمـةَ فيـه، ويَطَّلِـعَ علـى صـدرِك فيـراه خاليـاً مـن كل حقـد، مليئـاً بالمحبـة وحُـبِّ الخيـرِ للنـاس!

ولو تأملنا هذه النماذج الثلاثة لوجدْنا أن المشتركَ بينها هو فعلُ الخيرِ لأجل وجه اللّه فقط، وفي غيابِ من يرى هذا الخير!

التي سقتْ كلباً أدخلها اللّه الجَنَّة، فكيف بالذي يسقي قلباً قد جفَّفَه الحزنُ، وأضناهُ الألمُ، ونخرَه الخذلانُ والوجع؟!

والذي أزال غصنَ شجرةٍ من طريق المُسلمين أدخله اللّه الجنة، فكيف بالذي يُزيلُ من أمامهم الأفكارَ السامةَ، والبِدَعَ، والعاداتِ البالية، والأعرافَ التي ما أنزل اللّه بها من سُلطان؟!

والذي أزالَ غصنَ شوكٍ كي لا يجرح أحد قدمه به أدخلَه اللّه الجنة، فكيف بالذي يُزيلُ أشواكَ الحاجةِ فيُساعدُ الفقير، وأشواك الألم فيمشي في علاجِ المريض، وأشواك الفقد فيُعزي ويُساهمُ في تكاليف الدفن، وأشواك الديون فيدفعُ عن مُعْسِرٍ، ويُقيمُ مُتعثِّراً؟!

قريبةٌ هي الجنة، قريبةٌ جداً، يكفي أن تعملَ وينظرَ اللّهُ إلى قلبك فيرى أنك لا تُريدُ بهذا العمل سواه.

أخشى أن تكون من تمر الصَّدقة!

أخَذَ الحسنُ بن علي رضي اللّٰه عنهما وهو طفل صغير تمرةً من تمر الصَّدقة فجعلها في فمه، فقال له النبيُّ ﷺ: كِخْ كِخْ، اِرمِ بها، أما علمتَ أنَّا لا نأكلُ الصَّدقة!

وكان النبيُّ ﷺ يمرُّ بالطريق فيجدُ التمرة مُلقاة على الأرض، فيقول: لو أني أخشى أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها!

ومرَّ عبد اللّٰه بن عمر رضي اللّٰه عنهما بالطريق فوجدَ تمرةً فأخذها، ومسحها، وأكلها!

من أوصافِ النبيِّ ﷺ في التوراة والإنجيل قبل تحريفهما أنه يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة، وكان بعد بعثته إذا أُوتيَ بطعام سألَ عنه: أهدية أم صدقة؟

فإن قيل: صدقة، قال لأصحابه: كلوا! ولم يأكل معهم.

وإن قيل: هدية، جلسَ فأكل معهم.

فالصدقة إذاً لا يأكلها النبيُّ ﷺ ولا آل بيته الأطهار، حُكم خاص من دون المسلمين.

حرصَ النبيُّ ﷺ على تربية الأولاد على أحكام الإسلام وهم صغار، حتى إذا كبروا صارتْ هذه الأحكام جزءاً من تركيبتهم وشخصيتهم، فها هو يُعلِّمُ الحسنَ حُكماً شرعياً: أنَّا لا نأكل مال الصدقة، ويُعلِّمُ صبياً آخر: يا غلام سمِّ اللّٰه وكُلْ بيمينك وكُلْ مما

يليك! ويُعلم صبياً آخر عقيدته: احفظ اللّه يحفظك، احفظ اللّه تجده تجاهك...

وما يقوله البعض من اتركوا الأطفال يعيشون حياتهم وطفولتهم، جهل بالتربية، ثم ألا يُعلِّمُ هؤلاء أولادهم أصوات الحيوانات، والحروف، والقراءة والكتابة في سن مبكرة، فلماذا لا يتركونهم يعيشون طفولتهم، أم أن الدين وحده ضدّ الطفولة؟!

يُعلِّمُنا النبيُّ ﷺ احترام النعمة، وفي رأس النِّعم الطعام! فلم يهُن عليه أن تُرمى تمرة ولولا خشيته من أن تكون من تمر الصدقة لأكلها، وعملاً بسُنته أكل عبد اللّه بن عمر التمرة المُلقاة على الأرض لأنه ليس من بيت النبوة ولا ضير إن كانت من تمر الصدقة.

فإن كان لم يهُنّ على النبيِّ ﷺ أن تذهب تمرةٌ هدراً فهل سيهون عليه ما نُلقيه من طعام في سلة المُهملات؟

اطبخوا على قدر حاجتكم فليس في الأمر بُخلاً أبداً،

ثم وإن كانتِ الطبخة كبيرة فلم لا تُؤكل في اليوم الثاني،

أو تُحفظ في الثلاجة ليوم آخر،

أو أن تُعطى لفقير ومحتاج فبطون المساكين أولى بها من سلال القمامة!

هذه رحمة!

أرسلتْ زينبُ ابنة النبيِّ ﷺ تطلبُ حضوره عندها لأنَّ ابنها الصغير يُحتضر.

فأرسلَ إليها يقول: إنَّ للّهِ ما أخذ، وله ما أعطى، وكلٌّ عنده بأجل مسمّى، فلتصبري ولتحتسبي.

فأرسلتْ إليه مجدداً تُقسِمُ عليه أن يأتيَها، فقامَ ومعه جماعة من أصحابه، فجِيء له بالصبيِّ، وأنفاسه تتقطع، ففاضتْ عيناه بالبُكاء!

فقال له سعد بن عُبادة: يا رسول اللّهِ ما هذا؟

فقال له: هذه رحمة جعلَها اللّهُ في قلوبِ عباده، إنما يرحمُ اللّه من عباده الرُّحماء!

الأبُ من بعد اللّهِ سند، والفتاةُ لا تستغني عن أبيها ولو صار لها زوج وأولاد.

للأب نكهة أخرى ليستْ في أحد، فتفقَّدوا بناتِكم بعد الزواج، زوروهُنَّ في بيوتهن، شارِكوهُنَّ لحظات الفرح، ولا تُفوِّتوا أبداً لحظات الحُزن، إن البنت الصغيرة التي عندها صوت أبيها في البيت أكثر أمناً من كل أقفال العالم لا تستغني عن هذا الأمان حين تكبر، فتذكَّروا يا معشر الآباء نحن نُزوِّج بناتنا ولا نتخلَّص منهنّ!

البكاءُ عند الفقدِ لا يتعارض مع الرضا بقدرِ الله تعالى، على العكس تماماً فالمُؤمن عذبُ النفسِ، رقيقُ القلبِ، طيِّبُ المشاعرِ، ومن الطبيعي أن يبكي إذا ما فقدَ عزيزاً، وها هو النبيُّ ﷺ يبكي لما رأى من احتضارِ ابن ابنته وهو سيد الرجال، وسيد الراضين بقدرِ الله، فلا تنظروا إلى البكاء على أنه ضعف، البكاء مريح للنفس عند المصائب، بعكس الكتمان الذي يخنقُ النفس، ويكبتُ الروح، وهذا ليس من مواطن المكابرة!

وفي هذا يقول امرؤ القيس:

وإن شفائي عَبرةٌ مهراقة
فهل عند رسْمٍ دارسٍ من معول؟

وأجمل منه ما حكاه المُحدِّث والفقيه أبو بكر بن عياش، قال:

كنتُ وأنا شاب إذا أصابتني مُصيبة تصبَّرتُ لها، ورددتُ البكاء عن نفسي، فكان ذلك يُوجعُني ويزيدُني ألماً، حتى رأيتُ يوماً أعرابياً واقفاً وقد اجتمع الناس حوله يُنشِد:

خليليَّ عوجا من صدور الرَّواحلِ
بجمهور حُزوى وابكيا في المنازلِ

لعلَّ انحدارَ الدَّمعِ يُعْقِبُ راحةً
من الوجدِ أو يشفي نجيَّ البلابل

فسألتُ عنه فقيل: هذا هو الشاعر ذو الرمة.

فأصابتني بعد ذلك مصائب، فكنتُ أبكي منها فأجدُ راحة، وأقول في نفسي: سُبحان اللّه، ما أبصر هذا الأعرابي وما أعلمه!

على أن بكاء العين والقلب ممتلئ رضىً وتسليماً شيء، والنواح، ورفع الصوت، وشقّ الثياب وشدّ الشعر شيء آخر، فهذا وجه من وجوه السَّخط على قدر اللّه!

دَعِ النَّاقة!

المكان عرفة، والزمان حجَّة الوداع، أما الحدث فأعرابيٌّ يسألُ عن النبيِّ ﷺ، فَأُخبِرَ أنه ذاك الرجل على الناقة... ويتخطَّى الأعرابيُّ حشد الصحابة، ثم يحولُ بعضهم بينه وبين النبي ﷺ يخشون أن يُوقفه عن مسيره، ولكنه قال لهم: دعوا الرجل!

فدنا الأعرابي حتى أمسكَ بخطام الناقة، ونظرَ إلى النبي ﷺ، وليتَ عينيَّ في رأسه لأرى ما رأى! فقال له النبي ﷺ: ما تُريد؟

فقال: يا رسول الله، شيئان أسألك عنهما: أخبرني بما يُقربني من الجنة وما يُباعدني من النار!

فنظر النبي ﷺ إلى أصحابه وقال: لقد وُفِقَ إلى الخير في سؤاله.

ثم قال للأعرابي: اُعبدِ اللهَ ولا تشرك به شيئاً من الأوثان، وأَقِمِ الصلاة المكتوبة وأدِّ الزكاة المفروضة، وصُمْ رمضان، وصِلْ رحمك.

فقال الأعرابي: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذه الأوامر شيئاً، ولا أنقصُ منها شيئاً.

فقال له النبيُّ ﷺ: لقد استوفيتَ، دَعِ الناقة!

فلما مضى الأعرابي، قال النبيُّ ﷺ: إن تمسَّك هذا الرجل بما أُمِرَ به دخلَ الجنة، ومن أحبَّ مسروراً أن يرى رجلاً من أهل الجنة يحرص على دخولها ويسعى من أجلها فلينظر إلى هذا!

اُنظـرْ إلـى تواضـع النبـي ﷺ، لا حشـم ولا خـدم، ولا تـاج ولا صولجـان، ولا موكـب ملكـي، لدرجـة أنـه كان لا يتميَّـز عـن أصحابـه بلبـاس أو علامـة، وكان مـن لا يعرفـه لا يعـرف أنـه هـو إلا إذا دُلَّ عليـه، ومـا عرفـه الأعرابـي إلا بعـد أن سـأل عـن صفاتـه، ولقـد تكـرَّر كثيـراً فـي السـيرة أن يأتـي الأعرابـي مـن الباديـة والنبـي ﷺ فـي أصحابـه، فيدخـل ويقـول: أيكـم محمـد؟!

إنَّ هـذا الديـن ليـس ضـد التجمُّـل ولا الثيـاب الحسـنة، ولا ضـد أن يُحسِّـنَ المسـلمُ موضـع نظـر النـاس إليـه، ولكنـه قبـل التجمُّـل وتحسـين الثيـاب وتحسـين موضـوع نظـر النـاس يُنـادي بإصـلاح القلـب الـذي هـو موضـع نظـر الله تعالـى!

هذا تواضع المظهر،

أمـا الآن فانظُـرْ إلـى تواضـع السـلوك، إنـه بالمفهـوم الدينـي نبـيٌّ هـذه الأمـة، وبالمفهـوم السياسـي رئيـس الدولـة، ولكنـه يقـول: دعـوا الرجـل! ويسـمحُ لـه بالاقتـراب وإمسـاك زمـام الناقـة، ويُجيبـه عمـا سـأل!

وبعضنـا إذا جلـس خلـف مكتبـه الفاخـر تعالـى علـى النـاس كأنـه مديـر المجموعـة الشمسـية لا كوكـب الأرض فحسـب!

ثمّ اُنظـرْ إلـى تواضـع المُعلـم، لقـد وُفِّـقَ الرجـل فـي سـؤاله، فيُثنـي علـى السـؤال خيـراً، إنـه حـضٌّ خفِـيٌ لأصحابـه مفـاده: «اهتمـوا بآخرتكـم»!

ثمـة حقيقـة تغيـب عنـا اليـوم، ألا وهـي أن إصـلاح الديـن يُـؤدي إلـى إصـلاح الدنيـا، بينمـا نحـن اليـوم نريـدُ أن نُصلـح الدنيـا ثـم نلتفت لشـأن الديـن، نهتـم بمـا وعدنـا اللّٰه إيـاه، أكثـر ممـا نهتـم بمـا افترضـه علينـا!

فعلـى سـبيل المثـال إن اللّٰه فـرضَ علينـا العبـادة وتكفَّـل لنـا بالـرزق، ثـم تجـد مـن يسـألك: لنفتـرض أنـي أغلقـتُ دكانـي وذهبـتُ للمسـجد وقـت الصـلاة، أليـس مـن المُحتمـل أن يأتـي الزبـون ولا يجدنـي فيذهـب إلـى غيـري؟! وهـذا سـؤال مشـروع لمـن يعتقـد أن الـدكان تـرزق، أمـا مـن يعتقـد أن اللّٰه هـو الـرازق، وأن الـدكان ليـس إلا بابـاً للـرزق، فيمضـي إلـى مـا أُمـر بـه وكلـه يقيـن أنـه سـيحصل علـى مـا وُعـد بـه!

ثـم إن الجنّـة قريبـة سـهلة، لا تُشـرِك، صـلِّ وصُـمْ وتصـدَّق، وصِـلْ رحمـكَ، والسـلام!

ليس تقليلاً من شأن الصَّدقة، ولا قيام الليل، ولا صيام النَّفل،

علـى العكـس تمامـاً، فمـا زال العبـد يتقـرَّب إلـى اللّٰه بالنوافـل حتـى يُحبـه،

ولكن لا بُدَّ أن يُفهم أنـه مـا تقـرَّب عبـد إلـى اللّٰه بمثل مـا افترضـه عليه،

بمعنـى أن قطـرة عـرق علـى جبينـك فـي صـلاة الظهـر فـي نهـار رمضـان وأنـتَ ذاهـب إلـى المسـجد خيـر مـن دموعـك فـي صـلاة التراويـح، لأن الأولـى فريضـة والثانيـة نافلـة،

ويا لحظ من جمع بين الحُسنيين!

فهلَّا جلستَ في بيت أبيك وأمك؟!

استعملَ النبيُّ ﷺ رجُلاً يُقالُ له ابن اللُّتْبِيَّة لجمع أموال زكاةِ بني سُليم، فلمّا عاد بأموال الزكاة إلى النبيِّ ﷺ قال: هذا مالكم، وهذا أُهدِيَ إليَّ!

فغضِبَ النبيُّ ﷺ، فقال له: فهلَّا جلستَ في بيتِ أبيكَ وأمكَ حتى تأتيكَ هديتكَ إن كنتَ صادقاً!

ثم صَعِدَ المنبر، فحمدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإني أستعملُ الرَّجُلَ منكم على العمل ممّا ولاني الله، فيأتيني فيقول: هذا مالكم، وهذا أُهدِيَ إليَّ! أفلا جلسَ في بيتِ أبيه وأمه حتى تأتيه هديته؟! واللهِ لا يأخذ أحدٌ منكم شيئاً بغيرِ حقِّهِ إلا لقيَ الله يحمله يوم القيامة، فَلَأَعرِفنَّ أحداً منكم لقي الله يحملُ بعيراً له رُغاء، أو بقرةً لها خوار، أو شاةً تيعر/تصيح. ثم رفع يديه حتى رُؤِيَ بياض إبطيه وقال: اللهمَّ هل بلَّغتُ؟!

مما ابتُلِيَ به المُسلمون اليوم كثرة الرِّشى، يسمونها بغير أسمائها! فهذا يُسميها: هدية، والآخر يُسمِّيها: إكراميَّة، والثالث يسميها: جبران خاطر، والرابع يُسمَّيها: كَرَم!

ليس للموظف إلا راتبه، وأي شيء يأخذه من المُراجعين، ولو دون طلبٍ منه فهو سُحتٌ وغلول!

وروى أبـو داود أن النبـيَّ ﷺ قـال: مـن اسـتعملناه علـى عمـلٍ فرزقنـاه رزقاً/راتبـه، فمـا أخـذَ بعـد ذلـك فهـو غلـول! وروى الإمـام أحمـد فـي مسـنده، عـن النبـيِّ ﷺ أنـه قـال: هدايـا العُمـال غلـول!

الهديـةُ أمـرٌ مُحببٌ بيـن النـاس، وقـد قبـلَ النبـيُّ ﷺ الهديـة، وكان يُكافـئُ عليهـا، ويُكثـر أن يُهـدي النـاس، ولكـن الأمـر مُختلـف فـي الوظائـف العامـة، ومـا فيـه مصالـح ومعامـلات، حيـث يخـرجُ مـن بـاب الهديـة ويدخـلُ فـي بـاب الرشـوة!

فالهديـة فـي هـذه الأحـوال إنمـا تُهـدى للمُحاباةِ، وتسـليكِ الأمـورِ، وربمـا أدَّت المُحاباةُ إلـى الغـش خصوصـاً فـي المُناقصـاتِ التجاريـةِ حيـث غالبـاً مـا ترسـو علـى الـذي دفـع البراطيـل والرِّشـى، ولـو كان هـذا المُوظـف فـي غيـر وظيفتـه مـا أعطـاه المُراجـع لا درهمـاً ولا دينـاراً، وإنمـا أعطـاه لمنصبـه الـذي هـو فيـه وليـس لشـخصه!

وأسـوأُ الأنـواعِ هـو ذاكَ الـذي شَـغِل منصبـاً عامـاً، فيأتيـه المواطنـون بمعاملاتهـم، فمـن دفـعَ لـه رشـوة يسَّـرَ أمـره، ومـن لـم يدفـعْ أهمـلَ لـه معاملتـه، ويتـذرعُ أن الراتـب الحكومـي لا يكفـي، وهـذه حجـة واهيـة لإماتـة الضميـرِ واستسـاغةِ الحـرام، أنـتَ تعـرفُ مقـدار راتبـكَ حيـن تقدَّمـتَ إلـى الوظيفـة فإمـا أن تقبلهـا أو ترفضهـا، أمـا رفـع قيمـة راتبـك مـن جيـوب المراجعيـن فهـو مـال حـرام، وأيّمـا لحـمٍ نبـتَ مـن حـرام فالنـار أوّلـى بـه!

«فلا تعضُلُوهُنَّ»!

زوَّجَ الصحابيُ الجليلُ معقل بن يسار أخته لرجلٍ من الأنصار، فحدثَ بين الرجل وزوجته خلاف فطلَّقها، فلما انقضَتْ عدتها جاءَ زوجها ليخطبها من أخيها مرةً أخرى...

ويُكملُ معقل بن يسار القصة فيقول: فقلتُ له: زوَّجتُك، وفرشْتُكَ/أي ساعدْتُكَ في جهازها، وأكرمتُكَ فطلَّقتها ثم جئتَ تخطبها، لا واللّهِ لا ترجِعُ إليكَ أبداً! وكان رجلاً لا بأس به وكانتْ أُختي تُريدُ الرجوع إليه.

فأرسلَ إليَّ النبيُّ ﷺ وقال: يا معقل بن يسار إن اللّه أنزل فيكَ قرآناً: **﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾**.

فقال له معقل: أُزوِّجُها له يا رسول اللّه!

المؤمنُ يجب أن يكون وقَّافاً عند أوامرِ اللّه، فعندما أمر اللّه تعالى الأهل أن لا يمنعوا ابنتهم من الزواج بطليقها إن رغبتْ بذلك، وافقَ على الفور امتثالاً للأمر الإلهي، وتنازلَ عن رفضه الجازم السابق، فلا تكُنْ عنيداً خصوصاً إذا ما تعلَّقَ الأمر بأمرِ اللّه سبحانه.

أُمِرْنَا بالعدل عند الخصام، فبالرغم من أن معقل بن يسار مُنزعج من طلاق أُخته، ومُتضايق من صهره لأنه ساعدَه في أمرِ

الـزواج فلـم يلـقَ هـذا صـدىً إيجابيـاً عنـده، إلا أنـه يشـهد لـه أنـه كان رجـلاً لا بـأس بـه، فـلا تـدعْ سـاعة الخصومـة تقـودك إلـى نكـرانِ فضائـلِ الآخريـن!

واجـبُ الأهـلِ إذا وقـع الخـلاف بيـن الزوجيـن أن يدفعـوا باتجـاه الصُلـح: المـرأة لزوجهـا، والـزوج لامرأتـه، إن رغبـا بالعـودة بعـد وقـوع الطـلاق البائـن وانقضـاء العِـدة، وهـذا يلزمـه مهـر وعقـد جديديـن، فمـن بـاب أوّلـى أن يعـودا لبعضِهمـا وهـي علـى ذمتـه وقـد حـدث بينهمـا خـلاف، والعِنـادُ فـي عـودةِ الأزواجِ لبعضِهـم قِلـةُ فقـهٍ للحيـاة، وعـدمُ إدراكٍ لمخاطـر الطـلاق، وجهـلٌ بالحيـاة الزوجيـة التـي لا تخلـو أسـاسـاً مـن خـلاف!

الإحسـانُ إلـى الزوجـة، ومعاملتُهـا بالمعـروف واجـبٌ علـى الـزوج وإن لـم يُعاونـه أهلهـا فـي أمـر زواجهـا، ويُصبـحُ الواجـبُ مُضاعفـاً إن أحسـنوا إليـه وعاونـوه، لأنَّ النبيـل يُقـدِّرُ المعـروف، ويتحيَّـنُ الفرصـة لِـرَدِّه، والحيـاة الزوجيـة الكريمـة للبنـت فـي بيـت زوجهـا فرصـة سـانحة لِـرَدِّ المعـروف فأَحْسِـنْ اسـتغلالها!

لمن هذا الجَمل؟!

دخلَ النبيُّ ﷺ بستاناً لأُناسٍ من الأنصار فإذا فيه جَملٌ، فلما رأى النبيَّ ﷺ حنَّ وذَرفَتْ عيناه! فاقتربَ منه النبيُّ ﷺ ومسحَ على رأسه حتى سكتَ

ثم قال: لمن هذا الجمل؟

فجاء فتى من الأنصار، فقالِ: لي يا رسول اللّه!

فقال له: «أفلا تتقي اللّه في هذه البهيمة التي ملَّكَكَ اللّه إياها، فإنه شكا إليَّ أنك تُجوِّعه وتدئبه/تتعبه!

البشريةُ التي تُحاضِرُ اليوم فينا في حقوق الإنسان كُنَّا قبل ألفٍ وأربعمئة سنة نُحاضِرُ فيها في حقوق الحيوان! يوم التزمنا بديننا فهانَ لأجله كل شيءٍ، ورخصَتْ له الدماء والأموال والأوقات، حكمنا العالم كله بالعدلِ وقُدنا دفة البشرية، ويوم فرَّطنا فيه صُرنا في ذيلِ الحضارةِ وتخلَّفْنا عن الركب، ولن يصلحَ آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أوله: كتاب اللّه وسنة رسوله!

إنَّ أحبَّ أسماء اللّه إليه هو الرحمن، وأحبَّ عباده إليه هم الرُّحماء، الرُّحماء على البشرِ والدوابِ والشجر!

وإن من أجمل الأرزاق التي يسوقُها اللّه إلى عبده هو لين القلب على المخلوقات، لأن من لا يَرحم لا يُرحم!

لم يرضَ النبيُّ ﷺ أن يجوعَ الجمل فلا يأخذ حظّه من الطعام، وأن يتعبَ ويُحملَ عليه ما لا يُطيق، هذا الدين الذي رفع أتباعه إلى أعلى مراتب الإنسانية حثَّهم على الرحمةِ بالحيوان فما بالك بالناس!

وحين يُحدِّثُنا النبيُّ ﷺ عن المرأة التي دخلتُ النار في هرةٍ حبسَتْها حتى ماتتْ، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكلُ من خشاش الأرض، فَلِيُعلِّمنا احترام الأرواح والأنفس حتى ولو كانتْ للبهائم!

وحين يُحدِّثُنا عن الرجل الذي كان يمشي، فاشتدَّ عليه العطش، فنزلَ بئراً فشربَ منها ثم خرجَ فإذا هو بكلبٍ يلهثُ ويأكلُ التراب الندي الرطب من العطش، فقالَ في نفسه لقد بلغَ هذا مثل الذي بلغَ بي، فملأ خُفَّه/حذاءه ثم أمسكه بفمه وصعدَ حتى سقى الكلب، فشكرَ الله له وغفرَ له، لِيُعلِّمنا أن من عاملَ المخلوقات بصفةٍ عامله الله بها، من رَحِمَ رُحِمَ، ومن قسا عُوقِب!

روى الذهبيُّ أن مسعود الهمذاني كان رجُلاً يُحِبُّ العفو والصفح، وكان يُرغِّب به، ويدعو إليه، وإذا جاءه من يعتذِرُ منه، عفا عنه وقال له: الماضي لا يُذكر!

توفي مسعود، ورُئي في المنام، فقيل له: ما فعلَ الله بك؟

فقال: أوقفني بين يديه وقال لي: الماضي لا يُذكر! خذوه إلى الجنَّة!

أمك ثم أمك!

جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحقُّ الناس بحسن صحابتي يعني صحبتي؟

قال: أمك.

قال: ثم مَنْ؟

قال: أمك.

قال: ثم مَنْ؟

قال: أمك.

قال: ثم مَنْ؟

قال: أبوك!

وجاء رجلٌ قد قتلَ نفساً إلى عبد الله بن عباس، فقال له: هل للقاتلِ من توبة؟

فقال له: أمك حيَّة؟

فقال: لا.

فقال له ابن عباس: أَكثِرْ من الاستغفار!

فلما ذهبَ الرَّجُل، سأله تلميذه عطاء بن يسار: يا ابن عم رسول الله رأيتكَ سألته عن أمه!

فقال: ما أعلمُ شيئاً أحبُّ إلى الله من بِرِّ الوالدة!

لا أحد أوفى من الله، ولحبِّه للوفاء أمر ببِرِّ الوالدين، وخصوصاً الأم، وذلك لأنها في أصلِ خلقتها أضعف من الرجل في بنيتها الجسدية، وتحملُ وهناً على وهن، ورغم ذلك تُعطي أكثر!

ولأن غالب النساء إنما يتزوجن في غير أهلهنَّ، والبِرُّ بها تعويضٌ عن غربتها عن أهلها، وهذه نقطة حبّذا لو ينتبه إليها الأزواج!

الأُمهات هُنَّ اللواتي صنعنَ لنا أبطال هذه الأُمَّة!

كانتْ أم الإمام أحمد تُوقظه في ليالي بغداد الباردة، فتُدفئ له الماء ليتوضّأ، ثم تصحبه إلى المسجد لصلاة الفجر ليُصلي، ثم ترجع به إلى البيت، فلمَّا كبرَ حفظَ الله به الإسلام يوم فتنة المعتزلة والقول بخلقِ القرآن!

ونشأ البُخاري يتيماً في حجرِ أمه، فربَّته أحسن تربية، وحثته على طلب العلم، وسافرتْ معه، وأنفقتْ عليه، حتى اشتدَّ عوده وفتحَ الله عليه بصحيحِ البُخاري!

وماتَ أبو الشافعي وهو صغير، فرفضتْ أمه الزواج لتربيته، وتركتْ أهلها في غزة وجاءتْ إلى مكة حفاظاً على نسبه الشريف لأنه كان من أهل البيت، وبقيتْ ترعاه حتى أقرَّ الله عينها ورأته كما يقول عنه الإمام أحمد: كان الشافعي كالشمسِ للدنيا وكالعافيةِ للناس!

وماتَ أبو سفيان الثوري وهو صغير، فأرادَ أن يعمل ليُعيلها، فقالتْ له: لا، اُطلُبِ العلمَ وأنا أكفيك بمغزلي! وبقيتْ تغزِلُ وتُنفِقُ عليه وعلى نفسها حتى صار عَلَماً من أعلام المسلمين!

فالزموا أقدام أمهاتكم، فثمَّ الجنة!

مثل عجوز بني إسرائيل!

نـزلَ النبـيُّ ﷺ يومـاً فـي ضيافـة أعرابـيٍّ فأكرمـه، وعندمـا هـمَّ بالرحيل عنه قال لـه: يا أعرابـي ائْتنـا. يريدُ أن يـردَّ إليـه معروفـه، فهكـذا كان يحفـظُ المعـروف ولا ينسـاه!

ثم إن الأعرابي لـم تطلْ بـه المـدة حتـى جـاءه، فقـال لـه النبـيﷺ: يا أعرابـي سَلني حاجتك

فقال: ناقة نركبها، وأعنزٌ يحلبها أهلي!

فقال له النبي ﷺ: أعجزتَ أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل؟!

فقال أصحابه: يا رسول اللّه، وما عجوز بني إسرائيل!

فحدَّثهم أن يوسـف عليـه السـلام كان قد أوصـى قومـه إذا خرجوا مـن مصـر أن يحملوه معهم ليُدفـن فـي الأرض المقدسـة، ولمّـا أعلَـمَ موسـى عليـه السـلام بنـي إسـرائيل أن وقـت الخـروج مـن مصـر قـد حـان، أخبـروه بوصيـة أخيـه يوسـف، فسـألهم أيـن يقـع قبـره ليُنفِّـذوا وصيتـه. فأخبـروه أن لا أحـد يعـرف مكانـه إلا امـرأة عجـوز طاعنـة فـي السـن، فطلـب منهـا موسـى عليـه السـلام أن تدلـه علـى مكانـه، فرفضـتْ أن تُخبـره حتـى يعدهـا بأنهـا سـتكون رفيقتـه فـي الجنـة! فرفـضَ لأنـه لا يملـك إدخـال النـاس الجنـة أو النـار، فأوحـى اللّه تعالـى إليـه أن أعطِهـا مـا طلبـتْ! فأعطاهـا موسـى عليـه السـلام طلبهـا، فدلتهـم علـى مسـتنقع، وقالـت جفِّفـوا مـاءه فتحتـه قبـر يوسـف عليـه السـلام! فجففـوا المـاء وأخرجـوا جُثمـان يوسـف عليـه السـلام ونفَّـذوا وصيتـه!

وانظُرْ لتواضعه، صعد إلى السماء السابعة، وبلغ مبلغاً لم يبلغه مخلوق من قبل، ولكنه عندما عاد إلى الأرض بقي مُتواضعاً، ينزل في خيمة أعرابي لا يعرفه أحد، ويحفظ له معروفه، ويطلب منه أن يأتيه ليُكافئه، فما بالنا نحن إذا امتلكَ أحدنا سيارة فارهة تمختَرَ بين الناس تمختُر قارون في أهل مصر، وإذا حاز على شهادة عُليا ظنَّ نفسه أحد كتبة الوحي، فتعالى على الناس وعبدَ لقبه، والويل ثم الويل لمن ناداه باسمه مُجرَّداً من لقب دكتور، أو باش مهندس، تواضعوا فما نحن إلا من تراب وإلى تراب نصير!

الدنيا جسر عبور إلى الآخرة فلا تجعلها همَّك، وقد انزعج النبيُّ ﷺ من الأعرابي وقد فتحَ له باب الطلب، فإذا به يطلب ناقةً وأعنُزاً!

العمل شيء مشروع، ولا شيء في تحصيل المال، والعيب أن يكون الإنسان عالة، ولكن ثمة فرق بين أن تكون الدنيا في يدك وبين أن تكون في قلبك، فكُن عجوز بني إسرائيل في همتها لا الأعرابي في تفاهةِ طلبه!

الأعمار بيد الله، وقد كثُر موت الفجأة، فاكتُبْ وصيتك!

يرحل الأب الثري فلا يدري أولاده ما له وما عليه، وربما تشاجروا فيما بينهم على الإرث، كل واحد يُريد أن يحصل على المزيد من حق إخوته، فتتفرَّق العائلة، ويتشتت الأولاد، وينقطع الرحم!

المالُ عزيز، والنفسُ البشرية طماعة، فلا تترك أولادك خلفك في ساحة حرب،

هذا يوسف عليه السلام قد أوصى لمئات السنوات بعد موته، وليس في وصيته تركة ولا درهم ولا دينار، ولا شيء ممّا يتنازع فيه الناس، فلماذا لا نُوصي نحن حفظاً لحقوق الورثة، وحفظاً لمالك، وكم من ميت مات فجاء أحدهم يقول كان لي عليه مال، والوَرَثة بين نارين، دَيّن قد يكون مزعوماً فيخسروا بعض ما ورثوه، أو دَيّن صحيح قد لا يُعطونه صاحبه فيحمل الميت وزره!

هَلْ حضرتَ الصلاة معنا؟!

جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول اللّه، قبَّلْتُ امرأةً دون أن أُصيبَ منها -أي ما يكون من التقبيل والضم واللمس دون الزنا- فها أنا، فاقضِ فيَّ ما شئتَ!

فقال له عُمر بن الخطاب: لقد سترَكَ اللّهُ فلو سترْتَ نفسَكَ!

فلم يقُل النبيُّ ﷺ شيئاً، إذ أُقيمتْ الصلاة، فلما انتهى النبيُّ ﷺ من الصلاة دعا الرَّجل وقال له: هل حضرتَ الصلاة معنا؟

فقال: نعم

فقال له النبيُّ ﷺ: قد غفرَ اللّهُ لكَ، وأنزل فيك قرآناً ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾

فقال رجلٌ من القوم: يا نبيَّ اللّه هذا له خاصة؟

فقال النبيُّ ﷺ: لجميع أمتي كلِّهم!

بالطبع هذا الحديث لا يُفهم منه أنه لا عليكم قبِّلوا وعانقوا دون الزنا فلا بأس إن الصلاة تُكفِّر هذا! وإنما المقصود أنه إذا غلبتْكُم الشهوات، وزيَّنَ لكم الشيطان ووقعَ الفأسُ في الرأس فباب اللّه مفتوح لا يُسدُّ، والحسنةُ تمحو السيئة بفضلِ اللّه وكرمِه، وهذه فتوى بعد وقوعِ المحظورِ وليستْ ضوءاً أخضرَ: أن ارتكبه ثم صلِّ!

جاءَ رجلٌ إلى ابن عباس يسأله هل للقاتل من توبة، فقال له: نعم.

ثم في نفسِ المجلسِ جاءَ رجلٌ آخر وسألَه هل للقاتل من توبة، فقال له: لا!

فلما سُئِلَ عن هذا قال: أما الأول فرأيتُ فيه النَّدم والانكسار فعلمتُ أنه قد قتلَ، فقلتُ له نعم لكَ توبة.

وأما الثاني فرأيتُ فيه علامات الغضبِ والشرورِ، فعلمتُ أنه أرادَ أن يذهبَ ليقتل فقلتُ له لا توبة لك!

وانظُرْ لفِقْهِ عُمر، لقد سترَكَ اللّهُ فلو سترْتَ نفسَكَ!

هذا الدين لا يُوجد فيه كهنة ورهبان واعتراف، دعْ معاصيكَ بينك وبين اللّه، ولا تفضحْ نفسكَ ما دامَ اللّه قد أرخى عليكَ ثيابَ ستره، إن الناس تفضحُ ولا تعذر، واللّه يعذرُ ويستر!

مهما عَظُمَ الذنبُ فرحمةُ اللّهِ أعظم منه،

وإن الذي غفر لبغيٍّ بني إسرائيل بسُقيا كلبٍ عطشان لهو أرحم بمن دونها،

والمعادلةُ سهلة، إذا لم تسْتَطِعْ أن تتخلصَ من معصيةٍ فزاحِمْها بالطاعات!

ولو بِشِقِّ تمرة!

كان النبيُّ ﷺ جالساً بين أصحابه، فجاءه قومٌ من مُضَر/قبيلة عربية، حُفاةٌ، ثيابهم بالية، فتمعَّرَ/تغيَّرَ وجهه لِمَا رأى بهم من الفقر، فدخلَ بيته ثم خرج، فأمرَ بلالاً فأذَّنَ، وأقام، فصلَّى، ثم خطبَ وحثَّ على الصدقة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾

تصدَّقَ رجلٌ من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه/قمحه، من صاع تمره، حتى قال: ولو بِشِقِّ تمرة!

فجاء رجلٌ من الأنصار بِصُرَّةٍ كادتْ كفه تعجزُ عن حملِها فوضَعَها بين يدي النبيِّ ﷺ، ثم تتابع الناس حتى صارَ في المسجد كومان من طعامٍ وثياب، فتهلَّلَ وجهُ النبيِّ ﷺ كأنه فلقة قمر لمَّا رأى هذا التكافلَ والتراحم بين المسلمين، ثم وقف وقال مُثنياً على الأنصاري الذي بدأ في الصَّدقة وقلَّده الناس: «من سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً فله أجرُها وأجرُ من عملَ بها بعده من غير أن ينقصَ من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئةً كان عليه وِزرها ووِزر من عمل بها بعده من غير أن ينقصَ من أوزارِهم شيء»!

المُسلمون أُمةٌ واحدةٌ من دون الناس، وعائلةٌ واحدةٌ أبوهم القرآن وأمهم السُّنَّة، يشُدُّ بعضهم أزر بعض، يساعدُ قوِيُّهُم

ضعيفَهم، ويُطعِمُ غنيُّهم فقيرَهم، ويُرشِدُ مُهتديهم ضالهم، ويُقيم قائمُهم مُتعثِّرَهم، يفرحُ بعضُهم لفرح بعضٍ، ويحزنُ بعضُهم لحزنِ بعض، يتهللُ وينتشي بعضُهم بنصرِ مُجاهدٍ في بلادٍ بعيدة عنه كأن النَّصر نصره وهو كذلك فعلاً، ويغتمُّ بعضُهم لمشهدِ طفلٍ تحت الركام قتلتْهُ يدُ الإجرام كأن الطفل طفله وهو كذلك فعلاً!

من سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنة، أي ما ينفعُ الناس ولا يتعارض مع الشَّريعة! وهذا يشمل الدنيا لا الدين، وإلا من أنتَ لتُضيفَ للدِّين جديداً وقد قال ربنا قبل ألفٍ وأربعمئة سنة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾

كُنْ الأول في الخير ولكَ أجرُ من قلَّدك!

خَفِّفْ المهرَ على خاطب ابنتك بعد أن غلا، وكُنْ قدوة للناس، ولكَ أجرُ من قلَّدكَ!

اِبدأْ مشروع صدقة، بادِرْ بفكرة طيبة، قُمْ بحملةٍ لسد دين، وأخرى لعلاج مريض، الإنسان الذي يطلبُ لنفسه يصغُرُ، والذي يطلبُ لغيره يكبُرُ ويرتفع، فكُنْ مفتاحاً للخير!

تصدَّقوا عليه!

الدُّنيا إِقبالٌ وإدبار، أغنياءُ اليوم قد يصبحون فقراء الغد، وفقراء اليوم قد يصبحون أغنياء الغد، صحيح اليوم قد يمرض، ومريض اليوم قد يشفى، القوي لا يبقى قوياً، والضعيف لا يبقى ضعيفاً، هكذا خلقَ اللّه الحياة درساً بليغًا نتعلمُ منه أنه لا يبقى على ما هو إلا هو!

ونحن في الفقر والغِنى، في الصحة والمرض، في إقبال الدنيا وإدبارها في امتحان، واللّه سبحانه ينظُرُ إلينا ما نصنع، والملائكة تكتب! وقد ربَّى النبيُّ ﷺ هذه الأُمَّة على التراحم والتكافل، علَّمَنا أن نزور المريض، وأن نُشيِّع الميِّت، ونُعزِّي الفاقد، ونُقيم المُتعثِّر، وندلَّ التائه، ونجبر المكسور، ونُطيِّب الخاطر!

يُحدِّثنا أبو سعيد الخدري، قال: أُصيبَ رجلٌ في عهد النبي ﷺ في ثمار ابتاعها، فكثُرَ دَيْنُه، فقال النبي ﷺ: «تصدَّقوا عليه»!

فتصدَّق النَّاسُ عليه، فلم يبلُغ ذلكَ وفاءَ دَيْنه.

فقال رسول اللّه ﷺ لغرمائه: «خُذوا ما وجدتم، وليس لكم إلا ذلك»!

درسٌ عظيمٌ في الجبر والتراحم، أرادَ إذا وقع المسلمُ أن يجدَ يداً تُقيمه، لا أن يصبح حاله على قول المثل: البقرة إذا وقعتْ كثُر ذبَّاحوها!

كل يوم نسمع عن مريض غير قادر على تأمين تكاليف العملية الجراحية، فهل تصدَّقنا وقُلنا: اللهم ليس مِنةً على عبدك وإنما شُكرٌ لكَ على العافية! وبالشُكر تدوم النِعم، واللّٰه أعدل وأرحم من أن يراك تساعد إنساناً في علاجه ثم يبتليك بمرضه، صدِّقني أنتَ تشتري نفسكَ من اللّٰهِ بهذه الصدقة!

كل يوم نسمعُ عن إنسان كثُر عليه الدَّيْن، فهل تصدَّقنا وقُلنا: اللهم ليس رياءً ولا سُمعة ولكن شُكراً لكَ أنكَ جعلتني عبدك المُعطي لا عبدك الآخذ! واللّٰهُ أعدل وأرحم من أن يراك تُساعد إنساناً في دَيْنِه، تمدُّ يدك بالصدقة تعطيها ثم يجعلك تمدُّ يدك لتأخُذها، صدِّقني أنت تشتري نفسكَ من اللّٰه، اليدُ التي تُعطي الصدقة مُستحيل أن تمتد يوماً لتطلب صدقةً!

واُنظر لرحمة هذا الدين وسماحته، يقول لغرمائه، ليس لكم إلا ما وجدتم!

لم يحجر النبيُّ ﷺ على بيت الرجل المديون، ولم يبِعه في مزاد علني، ويُلقي بأُسرته في الطريق، القانون الذي لا يعرفُ الرَّحمة قانون غير جدير بالاحترام ولو حكمَ الدنيا كلها!

وقد يسأل سائل ما ذنبُ الذي أعطى المال دَيْناً، ولم يسترده! وهذا سؤال وجيه ومنطقي، يُواجَهُ بسؤالٍ آخر: هل الدنيا دار جزاء أم دار عمل؟! دار زراعة أم دار حصاد؟!

ما دمتَ تُؤمن أنها دار عمل والجزاء عند اللّه، ودار زراعة والحصاد عند اللّه، فتنازل عن بعض حقك للذي غلبه الدَّيْن وأبشِرْ بهذه:

روى مسلم في صحيحه من حديث حذيفة قال: قال رسول اللّه ﷺ: أُتي اللّه بعبدٍ من عباده آتاه اللّه مالاً فقال: ماذا عملتَ في الدنيا؟ فقال: يا رب آتيتني مالكَ، فكنتُ أُبايع الناس وكان من خُلقي الجواز، فكنتُ أتيسَّرُ على الموسر، وأُنظِرُ المعسِرَ. فقال اللّه تعالى: أنا أحقُّ بذلك منك، تجاوزوا عن عبدي!

ما لكَ يا عمرو؟!

وأخيراً أبصرَ قلبُ عمرو بن العاص نورَ الإسلام، فخرجَ من مكة يُريدُ المدينة ليُسلم بين يدي النبيِّ ﷺ، وفي الطريق لقيَ خالد بن الوليد فإذا به يُريدُ المدينة ليُسلم، داهية قريش وقائد فرسانها سيُسلمان في يوم واحد، يا لهذا الدين الذي يفتحُ القلوب قبل المُدُن، ويستولي على الأفئدةِ قبل الجدران!

ولمّا وصلَ عمرو بن العاص إلى المسجد قال للنبيِّ ﷺ: اُبْسُطْ يمينك لأُبايعك!

فبسطَ النبيُّ ﷺ يمينه، ولكن عمرو قبضَ يده!

فقال له النبيُّ ﷺ: ما لكَ يا عمرو؟

قال: أردتُ أن أشترطَ!

فقال له النبيُّ ﷺ: تشترطُ ماذا؟

قال: أن يُغفرَ لي!

فقال له: أما علمتَ أن الإسلام يهدِمُ ما كان قبله!

كُلُّ توبةٍ هي إسلامٌ من جديد!

فأَقبِلْ على الله ولا تستعظِمْ ذنبكَ مهما كان،

لا يُوجد ذنبٌ أكبر من الشِّرك، الزنا والسرقة وأكل الربا، كلها على عِظَمِها أصغر من الشِّرك، ومع هذا إذا تركَ المُشركُ شِركَه وأقبلَ إلى اللهِ بقلبه غفرَ له ما كان منه، ومن بابٍ أَوْلَى

أنه سُبحانه يغفِرُ للمسلم العاصي معاصيه مهما كانتْ كبيرة في عينه، فمهما كبرتْ ذنوب الناس، فمغفرة اللّهِ تعالى أكبر منها!

ويُشترَطُ للتوبة شروطاً ثلاثة:

الأول الإقلاعُ الفوري عن الذَّنب.

والثاني النَّدم والعزمُ على عدمِ العودة ولو ضعفَ العبد وعاد فليُجدد توبته، وأحبُّ الأحاديث النبوية إلى قلبي ذاك الذي يقول فيه النبيُّ ﷺ: «ما من عبدٍ مؤمنٍ إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة، أو ذنبٌ هو مقيمٌ عليه لا يُفارقه حتى يُفارق الدنيا، إن المؤمن خُلِقَ مُفتناً تواباً نسياً إذا ذُكِّرَ ذكرَ»!

وأما الشرط الثالث فهو إعادة حقوق العباد إن كانتْ المعصية في أكلِ مالِ إنسان، أو غصبِه قطعة أرض، أو ظلمِه في ميراث!

لو أذنبتَ في اليوم ألفَ مرة تُبْ إلى اللّه ألفَ مرة، لا يُريدُ الشيطان من العبد أكثر من أن يجعلَه ييأسُ من رحمةِ اللّه، فإياك أن تيأس!

أطلقوا ثمامة!

بعثَ النبيُّ ﷺ سَرِيةً ناحية نجد، فجاءتْ برجلٍ لا يعرفون من هو حتى قال لهم النبيُّ ﷺ: أتدرون من أسرْتُم؟ هذا ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة فأحسنوا إساره!

فحبسوه قُرب المسجد، وكان النبيُّ ﷺ يُرسِلُ إليه من طعامِ أهله إذا أكلوا، ولكن ذلك لم يُرقِّقْ قلب ثمامة!

فجاءَهُ النبيُّ ﷺ وقال له: ماذا عندكَ يا ثمامة؟

فقال له: عندي خير يا مُحمد! إن تَقتلْ تَقتلْ ذا دم، أي أن وراءه من سيأخذ بثأره، وإن تُنعِم تُنعِم على شاكر، أي أنه وفيّ لا ينسى المعروف، وإن كنتَ تريدُ المالَ فسَلْ تُعطَ منه ما شئتَ!

وعلى مدى يومين كان الحوار ذاته يدورُ بينهما، إلى أن قالَ النبيُّ ﷺ في اليوم الرابع: أطلقوا ثمامة!

فانطلقَ ثمامة إلى نخلٍ قريبٍ من المسجد، فاغتسل، وعاد، وقال للنبيِّ ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله!

ثم قال له: يا مُحمد، واللهِ ما كان على الأرض وجه أبغضَ إليَّ من وجهكَ، فقد أصبحَ وجهك أحب الوجوه إليَّ! وإنَّ خيلكَ أخذتني وأنا أريدُ العُمرة، فماذا ترى؟

فبشَّرَه النبيُّ ﷺ وأمرَه أن يعتمرَ، فلما قَدِمَ مكة وعلمتْ قُريش بإسلامه، قالوا له: صبوتَ؟!

فقال: بل أسلمتُ مع محمد ﷺ، ولا واللهِ لا يأتيكم من اليمامةِ حبة قمح حتى يأذنَ فيها النبيُّ ﷺ!

وأسـلمَ ثمامـة، وحسُـنَ إسـلامه، ونفـعَ اللّه بـه الإسـلام كثيـراً، وقـامَ بعـد وفـاة النبـيِّ ﷺ مقامـاً حميـداً حيـن ارتـدَّتْ اليمامـة مـع مُسـيلمة فخطـبَ بالنـاسِ ينهاهُـم عـن الـرِّدة، ومـا زال هكـذا حتـى جـاء معـه ثلاثـة آلاف قاتلـوا فـي جيـش المسـلمين ضـد المُرتدِّيـن!

النبيلُ يُكبِّلُه المعروف!

وكان الأحنـف بـن قيـس يقـول: مـن أحسـنَ إلـيَّ فقـد قيَّدنـي! فقيِّـدوا النـاس بالمعـروف، فـإن وقـع فـي أهلـه فهـم أهلـه ومـن وقـع فـي غيـر أهلـه فأنـتَ أهلـه!

الإحسـانُ إلـى الـذي بينـك وبينـه عـداوة إنمـا يجـب أن يكـون عـن قـوةٍ وإلا صـارَ هـذا الإحسـان ذُلاً وخوفـاً!

ألا وإن ثمـة مواقـف لا يصلُـح فيهـا الإحسـان كأن يحتـلَّ عـدوٌّ أرضَـكَ، فالإحسـانُ إليـه دِياثـة وقِلـة مـروءة وخِيانـة مهمـا غلَّفوهـا بعبـاراتٍ جميلـةٍ كالسَّـلام!

لِيُصَلِّ أحدكم نشاطه!

دخل النبيُّ ﷺ المسجد، فإذا حَبْلٌ ممدود بين ساريتين/ عمودين من سواري المسجد، فقال: ما هذا؟

فقالوا: هذا لزينب، تُصلي من الليل، فإذا كسلتْ أو فترتْ أمسكتْ به!

فقال: حُلُّوه/فُكُّوه، ليُصلِّ أحدكم نشاطه، فإذا كسلَ أو فترَ فليقعُدْ!

لا شكَّ أنه يُحسبُ لأُمنا زينب بنت جحشٍ هذا الحرص على قيام الليل حتى لو أنهكها التعب، ولكن صاحب الشريعة السمحاء يُخبرنا بهذا الحديث عن مضمون آية أُنزلتْ عليه من قبل ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾

يُريدُ النبيُّ ﷺ منا أن نُقبل على الله صلاةً وصياماً وصدقةً وعملاً للخير بمقدار ما نستطيع، وبأريحية، دون مشقة وضرر لأنفسنا!

صحيح أننا لو قُمنا العمر كله على سجادة الصلاة فلن نفيَ الله حقه، ولو أمضينا العمر كله صياماً فهذا ليس كثيراً على الله، ولكن الله سُبحانه يحفل بنا، ويهتم لأمرنا، ومن رحمته بنا جعل في دينه رُخصاً يُحِبُّ أن نأخذ بها.

فالُمسافر في رمضان في خيار بين أن يصومَ وأن يُفطر، وقد غزا الصحابة مع النبيِّ ﷺ، فكان منهم من اختار أن يصوم، ومنهم من اختار أن يُفطر، فلم يُثنِ على الصائم، ولم يُوَبِّخ المفطر، لقد تركَ الأمر لكل واحد منهم أن يُقدِّر أموره وطاقته واحتماله، ولكنه قالَ في مناسبة أخرى: ليس من البِر الصيام في السفر!

كذلكَ رخَّصَ الله تعالى للمُسافر أن يجمع بين الصلوات، وأن يقصر إن شاء، هديةً منه ورحمةً سبحانه على عباده، وأعجبني جواب ابن تيمية في الفتاوى على سؤال: أيهما أعلى أجراً من قَصَرَ الصلاة في السفر أو من أتمها؟

فقال: كلاهما على خير، وسقطتْ عنه الفريضة، أما من قصَرَ الصلاة فأعلى أجراً لأنه قام بالفريضة وأصاب السُّنَّة

الفكرةُ من هذا كله أن هذا الدين يُؤخذ بعقل وليس بعاطفة،

فمن أخبره الأطباء أن في صيامه خطر على حياته فليس له أن يصوم في رمضان مع الناس،

فإن كان مرضه ممَّا له دواء يقضي ما أفطر بعد أن يصحَّ، وإن كان مرضه مزمناً لا شفاء منه فالله رحيم!

وقد شرعَ دفع فدية الصيام ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾

وعليه قِس باقي العبادات!

إنما بُعثتم مُيَسِّرين!

بينما النبيُّ ﷺ جالس في المسجد مع أصحابه إذ دخلَ أعرابيٌّ فقال: اللهمَّ ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً!

فقال له النبيُّ ﷺ: لقد تحجَّرْتَ/ضيَّقتَ واسعاً!

فلم يلبث الأعرابي طويلاً حتى قام يبولُ في زاوية من زوايا المسجد فهرعَ إليه الصحابة ينهونه، فقال النبيُّ ﷺ: لا تزرموه/لا تقطعوا عليه بوله، دعوه!

فلما انتهى الأعرابي، أشارَ النبيُّ ﷺ إلى مكان بول الأعرابي، وقال: أهريقوا/صُبُّوا عليه دلواً من الماء!

ثم قال لهم يُعلمهم درساً عظيماً من دروس الدعوة إلى الله: إنما بُعثتم مُيَسِّرين ولم تُبعثوا مُعَسِّرين!

الدرس الأول:

لا تقبل مديحاً فيه مُخالفة للشرع، فلم يرضَ النبيُّ ﷺ قول الأعرابي: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً! وأخبره أن رحمة الله واسعة ولا يحق لأحد أن يُضيقها!

ودخل ابن هانئ الأندلسي على الحاجب المنصور في الأندلس وقال له:

ما شـئتَ لا ما شـاءت الأقدار
فاحكـم فأنـتَ الواحـد القهارُ
وكأنمـا أنـتَ النبـيُّ محمـدٌ
وكأنمـا أنصـارك الأنصـارُ

فأمر الحاجب المنصور بجلده، وقال له: واللّهِ لا تُساكنني في أرض واحدة، ونفاه إلى المغرب!

الدرس الثاني:

الإنسان ابن بيئته وطبعه ومألوفه، وهذا أعرابي اعتاد حيث أدركته حاجته أن يقضيها، فترفَّقَ به النبيُّ ﷺ، وتعاملَ مع الموضوع على قُبحه بهدوءٍ واتزانٍ، في حين أنه كان يُؤدِّب أصحابه على هفواتهم لأنهم تربّوا ونضجوا على يديه، تماماً كما نزع خاتم الذهب من يد رجل من الأنصار ورماه أرضاً وقال: يعمدُ أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده!

فتفهموا طباع الناس وعاداتهم وأنتم تتعاملون معهم!

الدرس الثالث:

العاقلُ يُقدِّر العواقب، ويختار أخفَّ الأضرار،

لقد أمرهم أن لا يقطعوا على الأعرابي بوله، لأن في هذا ضررًا عليه، ولو فعلوا لنجّسَ ثيابه، ثم نجَّسَ قدراً أكبر من المسجد، وهذا مبدأ عظيم من مبادئ الدعوة إلى اللّه: يجب أن لا يؤدي رفع الضرر إلى ضرر أكبر منه!

الدرس الرابع:

إنما بُعِثتم مُيَسِّرين، ولم تُبعثوا مُعسِّرين!

إنَّ اللّه يفتُح باللينِ قلوباً لا تُفتح بالسيف، ويهدي بالرفق أقواماً ما كانوا ليهتدوا بالشِّدَّة والعنف!

العاصي إن لم يجد في الداعية حُباً وشفقة فما الذي سيدفعه لترك معصيته، فكثيراً ما تؤدي الموعظة القاسية إلى الاستمرار في المعصية عناداً، ووظيفتنا أن نأتي بالناس إلى اللّه، ونضع أقدامهم على الطريق، لا أن نقف بينهم وبينه!

شهادة خُزيمة بشهادة رجُلين!

اشترى النبيُّ ﷺ فرساً من أعرابي، ولم يكن يحملُ مالاً، فطلبَ منه أن يتبعه بالفرس حتى يُحضر له المال، فأسرعَ النبيُّ ﷺ إلى بيته وأبطأ الأعرابي، فكان بعضُ الناس يسألون عن سعر الفرس ولا يعلمون أن النبيَّ ﷺ قد اشتراه، ولما دُفِع للأعرابي سعرٌ أعلى من الذي اتفقَ عليه مع النبيِّ ﷺ، فنادى على النبيِّ ﷺ ليُخيره بين أن يدفعَ حسب السعر الجديد أو يبيعه لغيره!

فقال له النبيُّ ﷺ: أوليسَ قد ابتعته منكَ؟

فقال الأعرابي: لا واللّهِ ما بعتك إياه!

فقال النبيُّ ﷺ: بلى، قد ابتعته منكَ!

فاجتمعَ الناس ينظرون هذا الجدال، وقال الأعرابي: هل من شاهدٍ يشهدُ أني قد بعتكَ إياه!

فقال خُزيمة بن ثابت: أنا أشهدُ أن رسول اللّه ﷺ قد اشتراه!

ولم يكن خُزيمة شاهداً على البيع،

فقال له النبيُّ ﷺ قولةَ المُستغرب: بِمَ تشهد؟

فقال: بتصديقك يا رسول اللّه، أأصدقك في خبر السَّماء وأكذبك في خبر الأرض؟!

فقال النبيُّ ﷺ: شهادة خُزيمة بشهادة رجلين!

وعندما جُمعَ المِصحفُ في عهد أبي بكر، كان زيد بن ثابت لا يكتب الآية إلا بشهادة رجلين سمعاها من فم رسول اللّه ﷺ،

وعندما وصلَ إلى سورة الأحزاب علمَ أن هناك آية سمعها من النبيِّ ولكنه نسيها، فجاء خُزيمة وقال له: الآية هي ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾

قال زيد: شهادة خُزيمة بشهادة رجلين كما قال النبيُّ ﷺ وكتبها في المصحف، ونحن نتلوها إلى يوم القيامة!

أمرنا الله سبحانه أن نكتب العقود حفظاً وضماناً للحقوق، حق المشتري وحق البائع، حق الدائن وحق المدين، حق العامل وحق رب العمل، ولكن علينا أن نعلم أن الإنسان الذي لا تربطه كلمته لن يربطه شيء!

يحسبُ الناس أن الدنيا شطارة، وأن جمع المال عبقرية بغض النظر عن الوسيلة التي نسلكها لذلك، تماماً كالأعرابي الذي تراجع في بيعه، وحنث بصفقة تمّت بعد أن وجدَ من يدفع له سعراً أعلى،

يغفلُ الناسُ أن الحلال نهاية المطاف يذهبُ فكيف بالحرام؟!

ثم إن هناك شيء اسمه البركة نزعه الله من كل مالٍ جُمع بالحلف الكاذب، والغدر، وإخلاف الوعد، ثم بعد هذا هناك موت وآخرة وحساب، فلننتبه!

سليم الصَّدر!

كان النبيُّ ﷺ جالساً بين أصحابه في المسجد، فقال: إنَّ أوَّل من يدخل من هذا الباب رجلٌ من أهل الجنة، فدخلَ عبد اللّه بن سَلام، فقام إليه بعضهم فأخبروه بذلك، ثم قالوا: أخبِرْنا بأوثق عملٍ في نفسك ترجو به الجنة؟

فقال: إني لضعيف، وإن أوثق ما أرجو به اللّه سلامة الصدر، وترك ما لا يعنيني!

وعبدُ اللّه بن سَلام صحابيٌّ جليل، من ذُرية يُوسف عليه السَّلام، كان حبراً من أحبار بني إسرائيل، جاءَ يوماً إلى النبيِّ ﷺ وقال له: إني سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمها إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول ما يأكل أهل الجنة؟ ومن أين يشبه الولد أباه وأمه؟

فقال له النبيُّ ﷺ: أخبَرَني بهنَّ جبريل آنفاً! أما أول أشراط الساعة فنارٌ تخرجُ من المشرقِ تحشرُ الناس إلى المغرب، وأول ما يأكل أهل الجنة فزيادةُ كبد الحوت، وأما الشّبه، فإذا سبقَ ماءُ الرجل نزعَ الولد إلى أبيه، وإذا سبقَ ماءُ المرأة نزعَ الولد إلى أمه!

فقال له: أشهدُ أنك رسول اللّه!

وفيه نزل آيتان من القرآن: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

و﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾

والشَّاهدُ أن سلامة الصدر من الأحقادِ والضغائنِ من أسبابِ دخولِ الجنةِ! وسلامةُ الصدرِ جنةٌ في الدنيا قبل الآخرة، فالإنسانُ الذي يملأُ قلبه الحقد والحسد والكراهية، إنسانٌ لا يجد طعم السعادة مع أحد، ولا يجد السعادة معه أحد!

الإنسانُ الممتلئُ بالحسدِ لن يجدَ لذةً في النِّعم التي بين يديه لأنه مُنشغل بتجرُّعِ مرارة مُراقبة النِّعم التي في أيدي الناس!

والإنسان المنشغل بالكراهية ليس لديه وقت ليُحبَّ أحداً، بل قد تجده يكره نفسه!

وإنَّ من أعظم أرزاق الله أن يهبَ عبده قلباً طيباً رقيقاً لا مكان فيه لحقدٍ أو حسدٍ أو انتقام، وهكذا كانتْ قلوبُ الأنبياء، فمن أُوتيَ هذا القلب فليُحافظ عليه ولا يُلوِّثه، فإن فيه شيئاً من نُبُوَّة!

وكما يحرصُ الإنسان على نقاءِ قلبه هو، عليه أن يحرصَ على نقاءِ قلب غيره، فإذا أخطأْتَ اعتذر، لتُطهِّرَ قلبَ الذي أخطأْتَ معه، وإذا أخطأَ معكَ أحدٌ فسامِحْ، فشرُّ ما يُملأ به القلب هو الحقد!

كذلك لا تحمل للناسِ أخباراً سيئة عن الناسِ، ولا تقُلْ لفُلان إن فلاناً قال فيك كذا وكذا، فإن هذا فوق أنه نميمة إلا أنه يملأ قلوب الناس بالحقدِ والكراهيةِ على بعضِهم.

وقد كان النبيُّ ﷺ أحرصَ الناسِ على نقاء قلبه، فكان يقول: لا يُبلِّغني أحدٌ من أصحابي عن أحدٍ شيئاً، فإني أُحبُّ أن أخرجَ إليكم وأنا سليم الصَّدر!

اِصْنعوا لآل جعفر طعاماً!

جعفرٌ، وما أدراكَ ما جعفر؟! إنَّه الرجل الذي قال له النبيُّ ﷺ: «أَشبهتَ خَلقِي وخُلقي»! إنَّه المجد من طرفيه! إنه الوسيم اللبِق، الفصيحُ الداهية الذي كان رئيس المُهاجرين إلى الحبشة، وعندَ النجاشي هزمَ عمرو بن العاص داهية قُريش وسفيرها!

إنه الحبيب الأثير على قلب النبي ﷺ، فقد صادفَ عودته من الحبشة وقتَ فتح خيبر، فقال النبيُّ ﷺ: «لستُ أدري بأيهما أُسَرُّ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»!

إنه الفارس المغوار، وقائد جيش المُسلمين بعد زيد بن حارثة يوم مُؤتة، ثُمَّ ما لبثَ أن ترجَّلَ شهيداً جامعاً المجد كله، مجد الهجرة ومجد الصُّحبة ومجد الشهادة وقد أبدله الله بذراعيه المقطوعتين في مؤتة جناحين يطير بهما في الجنة!

أما في المدينة، فكان النبيُّ ﷺ ينقلُ للمسلمين وقائع المعركة، ويرثي قادة جيشه واحداً بعد الآخر، إلى أن أخبرهم بميلاد سيف الله المسلول الذي نفَّذ انسحاباً ما زال يُدرَّسُ حتى اليوم في الكليات العسكرية!

بكى الناس يومذاك أحبتهم، فقال النبيُّ ﷺ للناس: اِصنعوا لآلِ جعفرَ طعاماً، فإنه قد جاءهم ما يشغلهم!

ما أرقاه من نبي، وما أعظمه من دين: اصنعوا لآل جعفر طعاماً!

الدنيا هذه دار فقد، اليوم نُودِّعُ وغداً نُوَدَّع، واليوم نَحمِلُ وغداً نُحملُ، ولكن هذا الدين دين رحمة في الرخاء والشدة، دين تكافل ورحمة ومواساة، ولا شيء يرحم جرح الفقد أكثر من وقوف الناس إلى جانب بعضهم بعضًا وتراحمهم!

يُعلِّمنا النبيُّ ﷺ أن نصنعَ لآل الفقيد طعاماً، لأن ما نزلَ بهم من الحزن يشغلهم عن الاهتمام بهذه الأمور، والحياة سلفٌ ودَيْن!

صنعَ لنا الناس طعاماً ذات فقد، وصنعنا لهم مثل ما صنعوا لنا لحظة فقدهم، على أنَّ الأمر أبعد من طعام ولُقمة في المعدة، إنه تربية على القلب المكلوم، ومسح على الصدر المحزون!

وكُلُّ ما يُخفف عن أهل الفقيد يدخل في قول النبي ﷺ: اِصنعوا لآل جعفر طعاماً!

قد لا يملك أهل الفقيد داراً واسعة للعزاء فيا لحظِّكَ لو فتحتَ لهم دارك!

وقد لا يملكُ أهل الفقيد تكاليف العزاء فيا لحظك لو ساهمتَ معهم!

وقد لا يملكُ أهل الفقيد سداد دين عليه، أو تكاليف مرض ماتَ فيه، فيا لحظِّكَ وقد ساهمتَ معهم، فأحسنتَ إلى الحيِّ والميت!

وما أجمل قول ابن القيم: الدين كله خُلق، فمن فاقكَ في الخُلق فاقكَ في الدين!

صَدَقَ سَلمان!

عندما جاءَ النبيُّ ﷺ إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، وكان ممن آخى بينهم أبو الدرداء وسلمان الفارسي، وفي أحدِ الأيام جاءَ سلمان لزيارةِ أبي الدرداء في بيته، فرأى أم الدرداء في حالةٍ رثة، فظنَّ أنَّ خطباً ما قد حدث، فسألها: ما شأنك يا أم الدرداء؟

فقالتْ: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا! تريدُ أن تقول أنها أهملتْ نفسها لأنَّ أبا الدرداء مُنشغلٌ بالعبادة، صوَّامٌ في النهارِ، قوَّامٌ في الليلِ، مُعرِضٌ عنها!

ودخل سلمان على أبي الدرداء، ولما وُضِعَ الطعام، لم يمدَّ أبو الدرداء يده. فقال له سلمان: كُلْ!

فقال: إني صائم!

فقال سلمان: ما أنا بآكل حتى تأكل!

فأكلَ أبو الدرداء وفكَّ صيامه، فلما كان الليل أراد أبو الدرداء أن يقومَ ليُصلي، فقال له سلمان: نَمْ! فنام أبو الدرداء.

فلما انقضى وقت عاود أبو الدرداء القيام ليُصلي، فقال له سلمان: نَمْ! فنام أبو الدرداء! فلما كان ثلث الليل الآخر، قال له سلمان: الآن قُمْ! فَصَلَّيَا معاً ثم قال له سلمان: إنَّ لربك عليكَ حقاً، ولنفسكَ عليكَ حقاً، ولأهلِكَ/زوجتك عليكَ حقاً، فأعطِ كُلَّ ذي حقٍّ حقه.

فأتى أبو الدرداء إلى النبيِّ ﷺ فحدَّثه بالذي كان بينهما، فقال له النبيُّ ﷺ: صَدَقَ سَلمان!

الحياءُ من الإيمان، وأجملُ مستحضراتِ تجميلِ المرأة الحياء، وما أجمل أم الدرداء إذ تستخدم الكناية، فلم تَقُلْ هو مُعرِضٌ عني لهذا أنا رثة الثياب والمظهر، وإنما قالتْ ليس لهُ حاجة في الدنيا!

وجاءتْ امرأةٌ إلى عُمر بن الخطاب تقول: إنّ زوجي صوَّام قوَّام، فقال: نِعم الرجل! فظلَّتْ تُعيدُها ومن حياء كنايتها لم ينتبه عُمر لمقصدها رغم ذكائه المعروف، حتى قال له محمد بن مسلمة: إنما تشكو لكَ مُباعدة زوجها لها في الفِراش!

المُوازنةُ أمرٌ مطلوبٌ، وأُنموذج أبي الدرداء رغم أنه أخطأ التصرُّف إلا أنه انقرضَ، فنحن نعيشُ اليوم تفريطاً سلبياً وهو الإقبالُ على الدنيا حدَّ نسيان الآخرة، عكس إقبال أبي الدرداء على الآخرة حدَّ نسيان الدنيا! وكلاهما خطأ فادح، وخلاف الشَّريعة والسُّنَّة، فالمسلمُ يعملُ للآخرة لكنه لا ينسى أنه يعيشُ في الدنيا!

البيوتُ أسرارٌ، والأمورُ تحتاج إلى حكمة في مثل هذه الأمور،

وأخطأت أم الدرداء بإهمال نفسها حين أعرَضَ عنها زوجها لأنَّ هذا يزيده إعراضاً،

والحكيمُ من يعملُ على حلِّ المشاكل ولا يزيد من تفاقُمها،

وعلى الزوج والزوجة أن يُدرِكا أن لكل واحدٍ منهما حق نيل رغبته الطبيعية،

وما كان الزواج إلا للمساعدة على العِفَّة، والإقبال على الدنيا والآخرة بنفسية مُرتاحة،

فهوِّنوا على بعضكم الطريق!

أَبْلي وأَخْلِقي!

عندما ضاقتْ مكة على المُسلمين، واشتدَّ عليهم العذاب، أمرَهم النبيُّ ﷺ بالهجرة إلى الحبشة علَّهم يجدون عند الغريب رأفةً لم يجدوها عند القريب، وكان النجاشي عند حُسن ظنِّ النبيِّ ﷺ به، حيث قال عنه: اذهبوا إلى الحبشة فإن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد!

وكان ممن هاجرَ إلى الحبشة سعيد بن العاص وزوجته أُميمة بنت خلف الخزاعية وهناك رُزقا ببنتٍ أسمياها «أَمَة» ولكنها اشتهرت في كُتب السِّيَر بكنيتها فكان يُقال لها أم خالد وهي طفلة رضيعة.

وعاد الأبوان وابنتهما إلى المدينة بعد الهجرة في أول وفدٍ عادَ من المُهاجرين إلى الحبشةِ، ووَدَّعَهم النجاشي يومها وقال لهم: أقرِئوا رسول الله ﷺ مني السَّلام. وكانتْ أم خالد من الذين أبلغوا النبيَّ ﷺ سلام النجاشي رغم صِغر سنها!

وجاءُ سعيدُ بن العاص برفقةِ ابنته أم خالد لزيارةِ النبيِّ ﷺ وكانتْ تلبسُ ثوباً جميلاً، فقال لها مُمازحاً كعادته مع الأطفال: سَنَهْ سَنَهْ وهي كلمة حبشية تعني جميلة!

فأمسكتْ أم خالد يده الشريفة وأخذتْ تلعبُ بخاتم النبوة وتُحركُه في إصبعه، فنهرها أبوها وزجرها لتتوقف، فقال له

النبيُّ ﷺ: دعها! ثم مسحَ بيده الشريفة على أم خالد وقال: أَبْلِي وأَخْلِقي، ثم أَبْلِي وأَخْلِقي، ثم أَبْلِي وأَخْلِقي!

وأَبْلِي وأَخْلِقي بمعنى البسي الثياب حتى تهترئ ثم جدديها، ويقابلها قولنا العامي لمن لبس ثوباً فندعو له: «تهري وتُجدد»، والمعنى دعاء بطول العمر، وعاشتْ أم خالد ببركةِ دعائِهِ أكثر من مئةٍ وعشرين سنة!

كلامُ النبيِّ ﷺ مع الطفلة أم خالد بالحبشية كانتْ من باب المُداعبة والمُلاطفة، حيث وُلِدتْ وترعرتْ هناك، وواضحٌ ما فيها من التحبُّب والتقرُّب، ولا يُستدل به على جواز ما يفعله أدعياء الثقافة والتبعية للغرب من قومها حيث يضعون كلمة إنكليزية أو فرنسية بين كل كلمتين عربيتين من بابِ التباهي، وهذا إن دلَّ فإنما يدُلُّ على انهزامٍ ثقافيٍّ، ونفسيةٍ تشعر بالدونية وتحاول بهذا أن ترحم دونيتها، وهي فوق هذا فيها نوع من التعالي خصوصاً إذا كان الكلام مع العوام!

ملاطفةُ الأطفالِ بابٌ من أبواب إكرام آبائهم، وانبساطُ النبيِّ ﷺ لأم خالد حتى تركَها تلعب بخاتمه، ورفضُ زجر أبيها لها، إنما هو رحمة بالطفلة وإكرام لأبيها، فإذا جاءكَ ضيف ومعه صغير لاطفه، اِطبعْ على رأسه قبلة، وقُلْ له كلمة حلوة، أَعطِه قطعة سكاكر، فهذا يُسعد الأب قبل أن يُسعد الطفل، وهو باب عظيم من أبواب التحبب بين الناس!

إني لا أخيسُ بالعهد!

كان أبـو رافـع قِبطيـاً يديـن بالنصرانيـة، فأرسـلَتْه قُريـش موفـداً منهـا إلـى النبـيِّ ﷺ لبعـض الأمـورِ السياسـيةِ التـي كانـتْ تجـري بينهمـا قبـل فتـح مكـة، فلمـا وصـلَ أبـو رافـعٍ إلـى المدينـة المنـورة، ورأى أخـلاق النبـيِّ ﷺ وأخـلاق الصحابـة، وعَـرَفَ الإسـلام عـن قُـرب، قـرَّرَ أن يُسـلم، فقـال للنبـيِّ ﷺ: يـا رسـول اللّه، إنـي واللّهِ لا أرجـعُ إليهـم أبـداً!

فقـال لـه النبـيُّ ﷺ: «إنـي لا أخيسُ/أُخلـف بالعهـد، ولا أحبـسُ البُرْدَ/جمـع بريـد وهـو الرسـول والموفـد، ولكـن ارجِـعْ إليهـم، فـإن كان فـي نفسِـك الـذي فـي نفسِـكَ الآن فارجـعْ إلـيَّ!

فعـاد أبـو رافـعٍ إلـى مكـة، وأبلـغَ قُريشـاً بـردِّ النبـيِّ ﷺ بمـا أرسـلته إليـه، ثـم عـاد إلـى المدينـةِ فأسـلم!

وكواليس الحديث كالتالي:

كانـتْ الأعـراف السياسـية تقضـي أن الرُّسـل التـي تكـون بيـن الملوك المُتنازعيـن وبيـن القبائـلِ المتناحـرةِ أنهـا لا تُقتـل ولا تُحبـس مهمـا كان مضمـون الرسـالة، ولـو حـوى تهديـداً مـن طـرفٍ إلـى طـرفٍ، فمـا علـى الرسـولِ إلا البـلاغ! وعندمـا أراد أبـو رافـعٍ أن يُسـلمَ، وأن لا يرجـع إلـى قُريـش، وهـو بالأسـاس قـد جـاءَ رسـولاً منهـا إلـى النبـيِّﷺ، رفـضَ النبـيُّ ﷺ هـذا الأمـر، لأنـه يخـرق الأعـراف الدبلوماسـية، والعـادات الحميـدة التـي تعـارفَ عليهـا النـاس، وقـد

خشـيَ أن تقـولَ قُريش أنـه قـد حبسَ موفدهـا إليـه فتُؤخَذُ عليـه بيـن العـرب غـدرةً رغـم أن أبـا رافـعٍ اختـارَ الإسـلام والمكـوث رغبـةً منـه واقتنـاعـاً، فأمـرَه أن يرجـعَ إلـى قُريـش بالأمـرِ الـذي جـاء بـه، فـإن بقـيَ راغبـاً فـي الإسـلام عـادَ إلـى المدينـة المنـورة وأسـلم، وهـذا الـذي كان!

أمـرَ اللّٰه سُبحانه المسـلم أن يفـيَ بالعهـد الـذي يتعهَّدُ بـه فقـال: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ وعلَّمنـا النبـيُّ ﷺ أنَّ مـن آيـات المُنافـق أنـه إذا وعـدَ أخلـف!

ورغـم أن قُريشـاً كانـتْ علـى الشِّـرك إلا أن النبـيَّ ﷺ لـم يخلـفْ عهـده معهـا، لذلـك إنَّ العهـد يجـب أن يُراعـى مـع الكافـر كمـا يُراعـى مـع المسـلم!

لذلـك أوفِ بعهـدك، وكُـن علـى قـدرِ كلمتـك، فـإن النبـلاء تربطُهُـم ألسـنتهم لا العقـود التـي يُوقعونهـا فقـط، وقـد أخبرنـا النبـيُّ ﷺ أن اللّٰه تعالـى يكـره الغـدر والغادريـن فقـال: «لـكل غـادرٍ لـواء يـوم القيامـة، يُقـال: هـذه غـدرة فـلان»!

لـواء أي علامـة يشـتهر بهـا فـي النـاس، وكان مـن عـادة العـرب فـي الجاهليـة أنهـا تَنصُـبُ للغـادر لـواءً فـي الأسـواق والمحافـل للتشـهير بـه !

أتحبه لأمك؟!

جاء شابٌ إلى النبيِّ ﷺ وقال له: يا رسول اللّه اِئذن لي بالزنا!

فزجرَه من كان جالساً معه، ولكن النبي ﷺ لم يَزِدْ على أن قالَ له: اُدنُ مني!

فلمَّا دنا منه وجلسَ، قال له: أتحبُّه لأمك؟

فقال الشاب: لا واللّه، جعلني اللّه فداءك!

قال: ولا الناس يُحبُّونه لأمهاتهم، أفتحبُّه لابنتك؟

فقال: لا واللّه يا رسول اللّه، جعلني اللّه فداءك!

قال: ولا الناس يُحبُّونه لبناتِهم، أفتحبُّه لأُختك؟

فقال: لا واللّه، جعلني اللّه فداءكَ!

قال: ولا الناس يُحبُّونه لأخواتِهم، أفتُحبُّه لعمتك؟

فقال: لا واللّه، جعلني اللّه فداءكَ!

قال: ولا الناس يُحبُّونه لعماتهم، أفتحبُّه لخالتك؟

فقال: لا واللّه، جعلني اللّه فداءكَ!

فقال النبيُّ ﷺ: ولا الناس يُحبُّونه لخالاتِهم! ثم وضعَ يده الشريفة على صدرِ الشابِ وقال: اللهم اغفرْ ذنبَه، وطهِّرْ قلبَه، وحصِّنْ فرجَه.

فثبتَ الشابُ من يومها بدعاءِ النبيِّ ﷺ ولم يلتفتْ لشيء!

الأسلوبُ أولاً وأخيراً هو الذي يفتحُ بإذن الله قلوب الناس إلى الحق، مطلبُ الشاب من النبيِّ ﷺ لو كان بينه وبين النبي ﷺ لكان وقاحةً، فكيف وقد جاء يطلبُ الإذن بالزنا على الملأ!

ولكن الرحمة المُهداة فهمَ أن الشاب قد استعرتْ فيه الشهوة وهي في مُقتبلِ العمر ليستْ كما هي في آخره، وهو مدفوعٌ بالغريزةِ وليس بالفجور، وهذا ما يجب أن نتفهمه في أهل المعاصي من المُسلمين!

وبعد أن نتفهمَه تأتي المُحاججة بالمنطقِ، والهدوءِ، والقلبِ الليِّنِ، واللسانِ العذبِ، والإشفاقِ وإنَّ الله سُبحانه يفتحُ القلبَ باللسان اللين ولا يفتحه بالسيفِ القاطع!

كلُّ ما تريدُ أن تقومَ به تجاه الآخرين قِسْهُ على نفسك، فإذا رضيتَه لكَ فاصنعه مع الناس، وإذا لم ترضَه لكَ فأمْسِكْ فعلكَ، وإنَّ من العدل أن يرضى الإنسان للناس ما يرضاه لنفسه، وأن يرفضَ لهم ما يرفضه لنفسه!

العلاقةُ التي لا ترضاها لأهلِ بيتِك فلا تقُمْ بمثلها مع أهل بيت آخر!

والكلمةُ التي لا ترضى أن تسمعَها من غيرك فلا ترضَ أن تُسمِعَها لغيرك!

وعِشْ حياتك كلها على مبدأٍ واحدٍ تسلم: أدِّ للناس ما تُحب أن يُؤَدُّونه إليك!

أجرُ القرابة وأجرُ الصَّدقة!

خطبَ النبيُّ ﷺ في النساء، وحثَّهُنَّ على الصدقة، فقال: «تصدَّقنَ يا معشر الناس ولو من حُلِيِّكُن».

وكان بين النساء زينب زوجة عبد اللّهِ بن مسعود، فرجعتْ إلى بيتِها وقالتْ له: إنكَ رجل فقير، وإن النبيَّ ﷺ قد أمرَنا بالصدقة، فأتِهِ فاسأله أيسعني أن أضعَ صدقتي فيكَ وفي بني أخٍ لي يتامى، وإلا صرفتها إلى غيركم.

فقال لها: بل ائتيه أنتِ!

فانطلقتْ فإذا امرأة من الأنصار ببابِ النبيِّ ﷺ جاءتْ تسألُ نفس السؤال، فقرعَتا الباب، فخرجَ إليهما بلال بن رباح، فقالتا: قُلْ للنبيِّ ﷺ أنَّ امرأتين بالباب تسألانك أتُجزئُ الصدقة عنهما على أزواجِهِما، وعلى أيتامٍ في حجورهما؟ ولا تخبره من نحن.

فدخل بلال على النبيِّ ﷺ فأخبرَه، فقال له: من هما؟

فقال: امرأة من الأنصار وزينب

فقال النبيُّ ﷺ: أيُّ الزَّيانب؟

فقال: امرأة عبد اللّه بن مسعود

فقال له النبيُّ ﷺ: «لهما أجران: أجر القَرابة، وأجرُ الصَّدقة»!

إنَّ في جعلِ الزكاةِ والصدقةِ في الأقارب أجران، أجر العبادة وأجر صلة الرحم، بشرط أن لا يكون دافع الزكاة ممن هو مأمورٌ بالإنفاقِ على من أعطاه!

بمعنى أنه للزوجة أن تُعطيَ زكاة مالها لزوجها الفقير، وليس له أن يُعطيَها لأن النفقةَ واجبُ الزوج على زوجته! كذلك لا يُعطي الأبُ أولادَه من الزكاة والعكس، فهي لا تُدفع للأصول والفروع! إلا في حالات ضيقة وليست هذه السلسلة مخصصة للفقه للتوسع بها!

ولكن تُعطى الزكاة للأعمامِ والأخوالِ والإخوةِ والأخواتِ وأولادِهم لأن النفقة ليستْ واجبة على هؤلاء!

من إكرامِ الإسلام للمرأة أنه جعلَ مالَها لها فليس للزوج أن يأخذَ منها ولو درهماً بغيرِ رِضاها، على أن البيوت إنما تقومُ بالمعروف، وقد شاهدْنا عياناً أن أتعسَ البيوت هي تلك التي يتعاملُ فيها الأزواج على مبدأ هذا لي وهذا لك! غير أن الحقَّ حقّ ومال الزوجة لها!

يُستحسنُ إن كان السؤال الذي يسأله المرءُ للشيخ أو المفتي مُحرِجاً أن يُخفي هويته، بكل بساطة يمكنك أن تسأل الشيخ السؤال على أنه لغيرك، فتستخدم التورية، كأن تقول أعرفُ رجلاً فعل كذا، فما الحكم؟ أو إن رجلاً لديه مال ويُريدُ أن يصنعَ كذا فما الحكم؟ على أنه يجوز للمُفتي أن يسألَ عن الشخص إن كانتْ القضيةُ تستوجبُ ذلك، كأن يسأل المرأةُ التي تُريدُ أن تتصدَّقَ على زوجِها إن كان زوجها فقيراً لأن الفقر شرط في الاستحقاق، ويا له من دِين، ويا لها من شريعة!

بنخلةٍ في الجنة!

تجاورَ أنصاريان في أرضين لهما، وكان لأحدِهما نخلة داخلة في أرض جاره، فأرادَ الجارُ أن يُقيمَ جداراً، والجدار لن يستقيمَ حتى تكون النخلة من ضمن نخله، فجاءَ إلى النبيِّ ﷺ وقال له: يا رسول الله إن لفلانٍ نخلة، وأنا أُقيمُ حائطي بها، فأْمره أن يُعطيني إياها حتى أُقيم حائطي!

فقال النبيُّ ﷺ للجار: أعطِها إياه بنخلةٍ في الجَنَّة!

فرفضَ أن يفعل!

وكان أبو الدحداح شاهِداً على الحادثة، فلما انفضَّ المجلسُ ذهبَ إلى الرجلِ وقال له: بِعني نخلتكَ هذه ببستاني! فقَبِلَ!

وجاء أبو الدحداح إلى النبيِّ ﷺ وقال له: يا رسول الله، إني قد ابتعتُ النخلةَ ببستاني، فاجعلها له، فقد أعطيتُكَ إياها!

فقال النبيُّ ﷺ: كم من عِذقٍ/غصن راح لأبي الدحداح في الجنة!

فأتى أبو الدحداح بستانه وامرأته فيه فقال: يا أم الدحداح أخرجي من البستان فقد بعته بنخلةٍ في الجنة!

فقالتْ له: ربحَ البيع!

هناك شيء أجمل من مفهوم الحق والواجب والقانون ألا وهو الإحسان، وهو أرقى أشكال التعامل بين الناس، صحيحٌ أن الحق حق، والواجب لا يُستغنى عنه، والقانون لا بُدَّ أن يسودَ ليتمَّ

بـه العـدل، ولكـن يبقـى الإحسـان أنبـل صفـات النـاس، قـد يُعطيـكَ القانـون حقـاً ويفـرضُ عليـكَ الإحسـان أن تتنـازلَ عنـه فـلا تزهـدْ أن تكونَ مُحسِناً، ولـو كان هـذا الجـار نبيـلاً مـا اضطـرَّ جـاره أن يأتـيَ إلـى النبـيِّ ﷺ ليفضَّ بينهمـا الأمـر، ولـو كان فيـه شـيء مـن فهـم وفِقه مـا رفـضَ نخلـةً فـي الجنـة ولكـن مـا أتعسَ النـاس!

بـاعَ أبـو الدحـداح بسـتانه بنخلـةٍ فـي الجنـة ومـا دفعـه إلـى هـذا إلا لأنـه يعلـم أن حبيبـه لا ينطـقُ عـن الهـوى، ولعلـكَ تقـولُ لـو كنـتُ مـكان أبـي الدحـداح لفعلـتُ مثلمـا فعـلَ تصديقـاً لوعـدِ النبـيِّ ﷺ، إلا أنـك كل يـوم مـكان أبـي الدحـداح، فالنبـيُّ ﷺ قـال: «مـا نقـصَ مـالٌ مـن صدقـةٍ» فكُـنْ أبـا الدحـداح!

كذِّبْ المنطق وآمِنْ بالغيب والوعد الحق،
المالُ ينقص هذا ما تقولُه المُشاهدة،
ولكن هل سألتَ نفسكَ عن البركة التي يطرحها فيما تبقى؟!
هـل سـألتَ نفسـك عـن المـرضِ الـذي لـم تمرضـه وكان سـيُكلفك أكثـر مـن صدقتـك ولكـن اللّٰه سـبحانه دفعـه عنـكَ بصدقتِـك هـذه؟!
مـن عامـلَ اللّٰه بالأسـباب عاملـه بالأسـباب، ومـن عامـلَ اللّٰه باليقيـن عامَلَـهُ بالمُعجـزات!

حتى اللُّقمة!

مـرضَ سـعد بـن أبـي وقـاص فـي مكـة عـام حجـة الـوداع مرضـاً شـديداً حتـى ظنَّ أنـه سـيموتُ منـه، وجـاءه النبـيُّ ﷺ يعـودُه، فقـال لـه سـعد: يـا رسـول الله قـد بلغَ بـي مـن الوجـع مـا تـرى، وأنـا ذو مـالٍ، ولا يرثنـي إلا ابنـةٌ واحـدة لـي، أفأتصـدَّق بثُلثـي مالـي؟

فقال له النبيُّ ﷺ: لا

قال: فأتصدَّقُ بنصفه؟

فقال له: لا

فقال سعد: بالثُّلث؟

فقـال لـه النبـيُّ ﷺ: بالثُّلُثِ يـا سـعد، والثلـثُ كثيـر، إنـكَ أن تـذرَ ورثتَـكَ أغنيـاء خيـرٌ مـن أن تَذَرَهـم عالـةً يتكفَّفـون النـاس، ولسـتَ بمُنفـقٍ نفقـةً تبتغـي بهـا وجـه الله إلا آجـركَ الله بهـا، حتـى اللُّقمـة تجعلُهـا فـي فـم امرأتـك!

مـن هَـدْيِ النُّبُـوَّة أن يُفكِّـرَ المـرءُ بورثَتِـه، وأن يتـركَ لهـم مـالاً يسـتعينون بـه علـى نوائـبِ الدهـرِ بعـده، فالدنيـا مُتقلبـة، ولا يؤُمـن جانبهـا، ولكـن هـذا لا يعنـي أن يعمـلَ الإنسـانُ جامـع مـالٍ لمـن بعـده وينسـى نفسـه مـن البِرِّ والصدقـةِ والإنفـاقِ فـي وجـوهِ الخيـرِ، حتـى إذا حضـرَه المـوت قـال لورثتـه، تصدَّقـوا عنـي بكـذا، واجعلـوا لـي صدقـةً جاريـةً بكـذا، امـلأْ صحيفتـكَ بنفسـكَ، تصـدَّقْ أنـتَ، وسـابِقْ إلـى الله بمـا آتـاك، لا تجمـع المـال ثـم تتركـه لهـم وتُحاسـبُ عليـه وحـدكَ!

النِّيةُ تجعلُ العادات عبادات! فاجعَلْ نواياك دوماً للّه!

الطعامُ الذي تشتريه لأُسرتك لا تربطه بمفهوم الواجب ولكن تحسسْ فيه الأجر، ففي كل كبدٍ رطبةٍ صدقة!

والمالُ الذي تُعطيه لوالديك لا تربطه بمفهوم الواجب، وكي لا يقول الناس أنك لا تُنفقُ على أبويك، تحسسْ فيه البِر، تقرَّبْ به إلى اللّه، ورتِّل بهدوء ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾!

زيارةُ أختك التي وضعتْ مولوداً لا تربطها بمفهوم الطقوسِ الاجتماعيةِ والواجباتِ الأُسرية، تحسسْ بها صِلة الرحم، وتذكرْ كيف أن الرَّحِم مربوطة بالعرش من وصلها وصلَه اللّه ومن قطعَها قطعه اللّه!

طبقُ الطعام الذي تُهديه إلى الجار لا تربطه بمفهوم المبادلة، وطبق بطبق، وهذا ما يفعله الناس منذ قِدم الدهر، تحسسْ فيه ما زال جبريل يُوصي بالجار حتى ظننتُ أنه سيُورِّثه!

تتشابه أعمال الناس وتختلف نواياهم، فاجعل اللّه دوماً في نيتك!

فإني لا أشهدُ على جور!

عن النُّعمان بن بشير أنَّ أمه عمرة بنت رواحة سألتْ أباه بعض الموهبة من مالِهِ له، فماطلَها في ذلك سنة، ثم بدا له أن يُوافق.

فقالتْ له: لا أرضى حتى تُشهد النبيَّ ﷺ على ما وهبتَ لابني!

فأخذ أبي بيدي وأنا يومئذٍ غُلام، فأتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله إنَّ أم هذا بنتَ رواحة أعجبَها أن أُشهدَكَ على الذي وهبتُ لابنِها.

فقال له النبيُّ ﷺ: يا بشير، ألكَ ولدٌ سوى هذا؟

قال: نعم

فقال له: أكُلُّهم وهبتَ لهم مثل الذي وهبتَ لابنكَ هذا؟

قال: لا

فقال له النبيُّ ﷺ: فلا تُشهِدني إذاً، فإني لا أشهدُ على جور!

قد يُحبُّ الأبُ أو الأمُ ولداً أكثر من ولدٍ، فالإنسان لا يملكُ زمام قلبه، وهو معذورٌ في هذا الحُب، ولكنه ليس معذوراً أن يُميِّزَ في المُعاملةِ والأُعطياتِ بين الأولاد، لأنَّ هذا من الظُّلم أولاً، ولأنه يُوغر صدور الإخوة بالكراهية على بعضِهِم البعض!

الأولادُ أذكياءُ جداً في ملاحظةِ اختلالِ ميزان التعامل، وهذا شيء يغفل عنه الأبوان!

ماتتْ أم يُوسف عليه السَّلام وهي تضع شقيقه بنيامين، فمالَ يعقوب عليه السَّلام كلَّ الميل إلى الصغيرين اليتيمين شفقةً أن لا أم لهما، وتعلَّقَ قلبه بيُوسف عليه السلام أيما تعلُّق، وكان هذا سبباً في كراهية إخوتِهِ له!

صحيحٌ أنَّ جُرمَهم معه قبيحٌ وغير مبرر، وأنَّ تآمُرَهم عليه لا يُبرره ميل يعقوب عليه السلام إليه، إلا أنَّ اللّٰه سبحانه يقصُّ علينا قصصهم لنتعلَّم منها، ونأخذ الدروس والعِبر، فاتقوا اللّٰه في أولادِكم ولا تجعلوا منهم أعداءً بسببِ التمييزِ في المُعاملةِ والأُعطيات!

إنَّ المواريث جعلَها اللّٰه تعالى بسببِ رابطِ الدمِ والقرابةِ لا بسببِ رابطِ المحبةِ والهوى!

بمعنى أن الذي يجعل الولد مستحقاً لميراث أبيه هو أنه ابنه ومن صُلبه، لا لأنه يُحبه، وعليه فليس للأب أن يحرمَ أحداً من أولاده من الميراثِ أو أن يُحابيَ أحداً على حساب أحد!

قد يكون للأب ابنتان واحدة لها زوج فقير والأخرى لها زوج غني، وإذا خصَّصَ مُساعدةً بسيطةً للمُحتاجةِ دون الغنية فلا بأس على أن يجعلَ هذا سِراً ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ليَسُد الباب في وجه الشيطان، وكذلك في شأن الأولاد ولكن أن لا يعدل بسبب حبه لأحدٍ أكثر من أحد فهذا عين الجور والظلم الذي رفض النبيُّ ﷺ أن يشهدَ عليه!

الآن يا عمر

كان النبـيُّ ﷺ ماشياً فـي جماعـةٍ مـن أصحابِـه وهـو مُمسك بيدِ عُمـر بـن الخطـاب، فقـال لـه عُمـر: يـا رسـول اللّٰه، واللّٰهِ لأنـتَ أحـبّ إلـيَّ مـن كل شـيءٍ إلا مـن نفسـي!

فقـال لـه النبـيُّ ﷺ: لا والـذي نفسـي بيـده، حتـى أكون أحب إليـكَ من نفسـك!

فقال له عُمر: فإنه الآن واللّٰهِ لأنتَ أحب إليَّ من نفسي!

فقال له النبـيُّ ﷺ: الآن يا عُمر!

وعـن أنـسٍ قـال: قـال النبـيُّ ﷺ: «لا يُؤمـن أحدكـم حتـى أكـون أحـبَّ إليـه مـن والـدِهِ وولـدِهِ والنـاسِ أجمعيـن».

وسـألَ رجلٌ أسـدَ بـن الفُرات عـن معنـى هـذا الحديـث، فقـال لـه: أرأيتَ لـو كان النبـيُّ ﷺ بيـن أظهُرِنـا فَقُـرِّبَ ليُقتـل، أكنـتَ تفديـه بنفسـك؟

قال: نعم

قال: أكنتَ تفديه بولدك؟

قال: نعم

قال له: إن صدقتَ فأنتَ مُؤمن!

على أنَّ للمحبة أمارات ثلاث:

الأولى: أن تتذكرَ فضلَه عليكَ وكم تعبَ ليكُون لكَ دين تعبدُ اللّه به، أن تتذكرَه ليلةَ نُزولِ الوَحيِ وهو يرتجفُ من هَوْلِ المشهد، وأن تتذكرَه وقومه يُحاصرونه في شِعب أبي طالب، ويضعون على رأسه سلى الجزور، وينعتونه بالساحرِ والكاذبِ والمجنون، أن تتذكرَه في الطائف يُرجم، وفي الهجرة مُختبئاً في الغار، ويوم أُحُد ينزفُ دماً ويقول: كيف يُفلحُ قوم شجُّوا نبيهم! أن تتذكرَه يربطُ حجراً على بطنه من الجُوع، ويعتصرُ ألماً من سمٍّ دسَّتْهُ لهُ اليهودية في فخذِ الشاة!

الثانية: أن تُكثرَ من الصلاةِ عليه قائماً وقاعداً وعلى جنبك، فإن المُحب يُكثرُ من ذِكرِ محبوبه، فاشغلْ لسانَك وقلبَك بالصلاةِ عليه فإنها كفاية الهم وغفران الذنب!

الثالثة: إن أروع أشكال الحُب هو الاقتداء، فاجعلْ محبتك له سلوكاً، اعطِفْ على زوجتك لأنه عَطَفَ، وأحسِنْ إلى جارِك لأنه أحسَنَ، وتواضعْ للضُّعفاء لأنه تَواضَع، وجالِسْ المساكين لأنه جَالَسَ، وساعِدْ الفقير لأنه سَاعَدَ، وكُنْ ليِّناً لأنه لانَ، وحنوناً لأنه حنَّ، ومُحِبَّاً للخيرِ لأنه أحبَّ!

لا يصلح فيها شيء من كلام النَّاس!

كان مُعاوية بن الحكم السُّلمي حديث عهدٍ بالإسلام، فجاء إلى المسجد، وأُقيمتْ الصلاة، ووقفَ مع الناس خلفَ النبيِّ ﷺ، وبينما هُم في الصلاة إذ عطسَ رجلٌ من القوم، فقال له مُعاوية: يرحمكَ اللّٰه!

فجعلَ الناس كأنهم يلتفِتون إليه من غريب فِعلته!

فقال: ثكلتني أمي، ما شأنكم تنظرون إليَّ؟

فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم أي اُسكُتْ!

قال مُعاوية: ففهمتُ مرادهم فسكتُّ، فلما انتهتْ الصلاة، اقتربَ مني النبيُّ ﷺ، بأبي هو وأمي ما رأيتُ معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، واللّٰهِ ما نهرَني ولا ضربَني ولا شتمَني، وإنما قال لي: «إنَّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن»!

مهما كان الحقُّ معكَ، وحجتك دامغة، الأسلوبُ أولاً، لأن الأسلوب الخشن يُنفِّر الناس ولو كان مضمون الكلام صواباً!

إن الأسلوب الفج القاسي يبني جداراً بينك وبين الناس بحيث أنهم لا يعودون يتقبَّلون التفكير في فِكرتِكَ أساساً، وهذه حقيقة أقرَّها القرآن الكريم، ألم يقل اللّٰه تعالى لِنبيِّه الكريم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

لقد جاء بأصحِّ فكرة في تاريخ البشرية ألا وهي التوحيد، وأصدقِ مضمونٍ ألا وهو الإسلام، وأنبلِ مهمةٍ ألا وهي إيصال الخلق إلى الله، ورغم هذا يُخبرُه ربه أن كل هذا لم يكُنْ ليتحقق لولا لِينِه ورحمتِه ورقةِ قلبه.

فمهما كانتْ فكرتُكَ صائبةً لن تكون أصوب من فكرة التوحيد، ومهما كان مضمونُكَ صادقاً لن يكون أصدق من الإسلام، ومهما كان قصدُكَ نبيلاً فلن يكون أنبل من إيصالِ الخلقِ إلى ربِّهم، وبهذا كله كان الأسلوب قبل المضمون!

النصحُ لا يستغني عن اللُّطف، فإذا استغنى عنه صار هجاءً ولم يعُدْ نُصحاً!

أيُّ نُصحٍ في أن تقولَ لتاركِ الصلاة أنت كافر وسوف تتعذَّب في قبرك وتدخل النار؟!

وأيُّ نُصحٍ في أن تقولَ للسافرة لماذا أنتِ رخيصة ينظر إليك من هبَّ ودبَّ، وماذا تفرقين عن الغانيات!

وأيُّ نُصحٍ في أن تقولَ لتاركِ الصيام أنتَ كالدابة لا همَّ لكَ إلا بطنك، لو كنتَ إنساناً لتركتَ الطعام لأجل ربك!

نعم علينا أن نُنكرَ المُنكرَ، وأن ندعوَ العُصاةَ، وأن نُبيِّنَ الحقَّ للناس، ولكن لا ندعو إلى الله إلا بما يُرضي الله.

في زمن المنصور صدرَ من بعض نصارى الشام تمرُّد، فأرادَ أن يهدمَ كل كنائس النصارى في بلاد الشام، فقال له الإمام الأوزاعي: يا أمير المؤمنين لا تغضبْ لله بما يُغْضِبُ الله!

أرأيتَ حتى الغضبَ لله له أدب وضوابط!

من يمنعكَ مني؟

غـزا النبـيُّ ﷺ ناحيـة نجـد، وفـي طريـق عودتِـهِ أدركتْـهُ شـمس الظهيـرة فـي وادٍ كثيـر الشَّـجر، فأعطـى أمـرَه للصحابـة أن يسـتظِلُّوا ويسـتريحوا قليـلاً، فتفرَّقـوا كل منهـم فـي مـكان، وتركـوا لـه شـجرةً ظليلـة وابتعـدوا عنـه كـي يسـتريح...

فعلَّـق سـيفه ونـام، فجـاءَ رجـل مـن المُشـركين وأخـذَ سـيفه، وأخرجـه مـن غمـده، واسـتيقظ النبـيُّ ﷺ، فقـال لـه المشـرك: ألا تخافنـي؟!

فقال النبيُّ ﷺ: لا!

قال: فمن يمنعك مني؟

قال: اللّٰه!

فسـقطَ السَّـيفُ مـن يـده! فأخـذه النبـيُّ ﷺ، وقـال لـه: فمـن يمنعـك منـي؟!

فقال: كُنْ خيرَ آخذٍ!

فقال له النبيُّ ﷺ: تشهدُ أن لا إله إلا اللّٰه وأني رسول اللّٰه؟

قـال: لا، ولكنـي أُعاهـدكَ أن لا أقاتلـكَ، ولا أكـونُ مـع قـومٍ يقاتلونـك!

فقبلَ منه النبيُّ ﷺ ذلك، وخلَّى سبيله.

فأتى الرَّجُلُ أصحابه، فقال: جئتكم من عند خير الناس!

الشَّـاهِدُ فـي القصـة أن النبـيَّ ﷺ قَبِـلَ مـن الرجـل الحيـاد، أن لا يكـون معـه ولا يكـون عليـه، وهـذه حكمـةٌ عظيمـةٌ فـي السياسـة

خصوصاً والحياة عموماً مفادُها: إذا لم تستطعْ أن تجعلَ من شخصٍ صديقاً لكَ فليس بالضرورة أن تجعله عدواً!

للأسف لا يقبل الناس في أيامنا مسافةَ الحياد هذه، ويتصرَّفون على مبدأ: إذا لم تكُنْ معي فأنتَ ضدي! وهذا من أتفه مبادئ الناس!

يقعُ خلافٌ بين صديقين، فتجدُ صديقاً لكليهما يُحافظُ على الود معهما، فلا يقف في صف هذا ولا صف ذاك، ويُحاول قدر المستطاع أن يُعيدَ الأمور بينهما إلى مجاريها، فإذا فشل استمرَّ على صداقة الاثنين، فلا يرضى أحدهما بذلك ويُخبره أن عليه أن يختارَ بينهما، إما أنا أو هو! فإذا كان النبيُّ ﷺ قد قبلَ الحياد في قضية شركٍ وإيمانٍ من رجل رفضَ أن يُؤمن، فمن أنتَ حتى لا تقبل الحِياد في قضيةٍ من توافه الدنيا هي في الغالب خلاف في وجهات النظر، أو على شيء من المال، أو ربما بسبب قيلٍ وقال!

ويقعُ خلافٌ زوجي،

فتقفُ عائلة الزوجة كلها مع ابنتهم ويُعاملون صهرهم كأنه فرعون يخطبُ في الناس «أنا ربكم الأعلى»! وتقف عائلة الزوج كلها مع ابنهم ويُعاملون كنتهم كأنها سجاح إذ ادَّعتِ النُبُوَّة!

لماذا علينا أن نتعاملَ مع كل مشاكل الحياة على أنها حرب بين خندق الباطل وخندق الحق؟!

لماذا علينا أن نكون جنوداً في حروبٍ ليس لنا فيها ناقة ولا جمل؟!

ولماذا لا نفهم أن الذي ليس معي ليس ضدي؟!

اللهمَّ لكَ الحمدُ على سارقٍ وزانيةٍ!

كان النبيُّ ﷺ يُكثرُ أن يَقُصَّ على أصحابه من أخبارِ الأوّلين، فحدَّثهم مرةً عن رجلٍ نوى أن يتصدقَ بصدقةٍ، فوضعها في يد سارقٍ، فصار الناس يقولون: تُصدِّق الليلة على سارق!

وفي اليوم التالي عزمَ أن يتصدَّقَ بصدقةٍ، فوضعها في يد زانيةٍ، فصارَ الناس يقولون: تُصدِّق الليلة على زانية!

وفي اليوم الثالث عزمَ أن يتصدَّقَ بصدقةٍ، فوضعها في يد غنيٍّ، فصار الناس يقولون: تُصدِّق الليلة على غني!

فقال: اللهم لكَ الحمدُ على سارقٍ، وعلى زانيةٍ، وعلى غنيٍّ!

ونام تلك الليلة، فرأى رؤيا، وقِيل له فيها: أما صدقتك على سارقٍ فلعلَّه أن يستعِفَّ عن سرقته، وأما الزانية فلعلَّها أن تستعِفَّ عن زِناها، وأما الغنيُّ فلعلَّه يعتبرُ فينفقُ مما أعطاه اللّه!

للأسف إن الناسَ مجبولون على سوء الظنِّ، إذا وقف الطائعُ مع العاصي سيقولون لو لم يكن مثله لما وقفَ معه، قِلة سيُحسنون الظنَّ ويقولون إنه يُحاولُ أن يأخذَ بيده إلى اللّه!

وإذا وقفتِ الملتزمة مع غافلة، سيقولون عما قليل ستُصبح مثلها، قِلة سيُحسنون الظنَّ ويقولون أنها تُعَبِّدُ لها بحُسنِ الخُلُقِ طريقاً إلى اللّه!

إذا زارَ الداعيةُ تاجراً، سيقولون ذهبَ عنده يستعطيه لنفسه، قِلة سيُحسنون الظنَّ ويقولون إنه يحُثُّه على الزكاة والصدقة، ويُخبره عن بيتٍ مُتعفِّفٍ يكفله، أو عمليةٍ جراحيةٍ مستعجلةٍ لفقير!

إن سوء الظنِّ لا يُعطي حقيقة المظنون به وإنما يُعطي حقيقة الظَّان! كل إنسان أفكاره وظنونه على مقاسه، فلا تحكمْ على الآخرين من كلامِهم عن أنفسهم وإنما من كلامهم عن الآخرين!

مشكلةُ كثير من المسلمين اليوم أنهم نصَّبوا أنفسَهم قُضاةً بينما أرادهم اللّه دُعاةً!

عقليةُ القاضي تجعلك تقول يا له من فاجرٍ لا يُصلِّي، وعقليةُ الداعيةِ تجعلك تقول سأبتسمُ له، وأصافحُه، وأُهديه كتاباً أو محاضرةً، ولن أتركَه حتى أراه في المسجد!

عقليةُ القاضي تجعلكِ تقولين يا لها من سافرةٍ متبرِّجةٍ مفتونةٍ بالموضة والأزياء، وعقليةُ الداعيةِ تجعلكِ تقولين يا لهذا الجمال لو صانه الحجاب، وتجعلين الأمر مُهِمتك، حديثٌ حلوٌ عابرٌ، رِقةٌ في المعاملة، موعظةٌ خفيفةٌ، ولا تملي منها حتى تُشاهدي الحجاب يُزينها!

وظيفةُ الأنبياءِ كانت على مر الدَّهر الأخذ بيد العُصاة إلى اللّه، فهنيئًا لكل من فيه شيء من نُبُوَّة!

عند الصَّدمة الأولى!

مـرَّ النبـيُّ ﷺ بامـرأةٍ تبكي عنـد قبـر ابنهـا، فقـال لهـا: اتقـي اللّٰه واصبـري!

فقالتْ له وهي لا تعرفه: إليكَ عني فإنكَ لم تُصَبْ بمصيبتي!

فتركها ومضى، فمرَّ بها رجلٌ فقال لها: هذا رسول اللّٰه ﷺ!

فقالتْ: واللّٰهِ ما عرفته!

فأصابَها من الكربِ ما أصابَها لمَّا علمتْ أنه النبي ﷺ خجلاً منه ومهابة، فأتتْ بيته، وقالت له: يا رسول اللّٰه لم أعرفك!

فقال: «إنما الصَّبرُ عند الصَّدمة الأولى»!

وقـال ابن حجـر فـي رائعته فتح البـاري: المعنـى أن الصبرَ الـذي يُحمدُ عليه صاحبه ما كان عندَ مُفاجأة المصيبة، بخلاف ما بعد ذلك فإنه على الأيام يسلو، ولذلك قيل: كل شيءٍ يبدأُ صغيراً ثم يكبُرُ إلا المُصيبة، فإنها تبدأُ كبيرةً ثم تصغُر.

واُنظُرْ لأدبِ النبيِّ ﷺ كيف تفهَّم نفسية المرأة المصابة بِفَقْدِ ابنِها، فعلى فظاظةِ جوابها لم يُجادلْها، ولم يردَّ عليها، وإنما تركها ومضى، وهذا درسٌ بليغٌ لنا في تحمُّلِ الشخص الذي ينزل به مصاب من فقدٍ أو مرضٍ أو فقرٍ مُفاجئٍ، فنجده على غيرِ ما اعتدنا أن نجدَه في ظروفه العادية، فالإنسان خُلِقَ هلوعاً، فلا تعتبروا كل جواب من مصابٍ أو فاقدٍ أو مكلوم مسألة شخصية، تفهَّموا حالته النفسية وتذكَّروا أن خيرَ الناس أعذرهم للناس!

هـذه الدنيـا دارٌ فقـدٍ بالأسـاس، مـا جاءَهـا أحـد إلا غادرَهـا، الأنبيـاءُ والفجـرةُ، الحـكامُ والمحكومـون، الفقـراءُ والأغنيـاءُ، العُلمـاءُ والجُهـلاءُ، وصحيـحٌ أن فقـدَ الأحبـةِ غربـة، ومُصـابَ المـوتِ أليـم، إلا أن الرضـا بقَـدَرِ اللّهِ بلسـم، وبيـوت الحمـد فـي الجنـة لا تُبنـى لغيـرِ الذيـن سـلَّموا أمرهـم للّه سـاعة الفقـد، وأعظـم الصبـر مـا كان عنـد الصدمـة الأولـى!

لا عليـكَ بالناصـح مـا دامـت النصيحـة صوابـاً! مـن النـاس مـن يقبـلُ الخطـأ ممـن يُحبـه ويرفـضُ الحـق ممـن يكرهـه، وهـذا مـن غَلَبَـةِ الهـوى، وغيـابِ الحكمـةِ والعقـل، فـلا تكُـنْ كالمـرأة فـي هـذه القصـة رفضَـتْ أول الأمـر نصيحـة فيهـا حـق لأنهـا لـم تعـرفْ الناصـح!

إذا أفسـدتَ ذاتَ فقـدٍ ومصيبـةٍ، فتفوَّهْـتَ بـكلام جـارحٍ لأحـد، فبـادرْ بإصـلاح مـا أفسـدت، فهـذا مـن خُلُـق النُبـلاء، وقـد كانـتْ هـذه المـرأة نبيلـة حقـاً حيـن جـاءت مُعتـذرةً تُصلـح مـا أفسـدَتْه، وهـذا مـن خُلُـقِ الأنبيـاء ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ وكان قد رماها ساعة غضب!

وترجعونَ برسولِ اللّه!

كان للنبيِّ ﷺ مالٌ كثيرٌ حصلَ عليه من فَيْءٍ أصابَه، فقسمَ المالَ بين قُريشٍ وبين قبائل العرب، ولم يُعطِ الأنصار منه شيئاً! فأزعجَهم ذلك، فجاءَ إليه سيدهم سعد بن عبادة وقال له: يا رسول اللّه إن الأنصار قد وجدوا عليكَ في أنفسِهم من هذا الفَيْءِ الذي قسمته في قومك وفي قبائل العرب ولم تُعطهم منه شيئاً!

فقال له النبيُّ ﷺ: فأينَ أنتَ من ذلكَ يا سعد؟ أي ما رأيك؟

فقال: إنما أنا رجلٌ من قومي! أي أقول بقولهم.

فقال له النبيُّ ﷺ: فاجمعْ لي قومكَ.

فخرجَ سعدٌ فجمعَ الأنصار، ثم أتى النبيَّ ﷺ وقال له: قد اجتمعوا لكَ يا رسول اللّه.

فأتاهم، وقال لهم: أما واللّهِ لو شئتم لقُلتم فصدقتم، أتيتَنا مُكذَّباً فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك! أوَجَدْتُمْ في أنفُسِكم يا معشر الأنصار في لُعاعةٍ/ حقيرٍ من الدنيا تألَّفتُ بها قوماً ليُسلموا ووكلْتُكم إلى إسلامِكم؟! أفلا ترضونَ يا معشر الأنصارِ أن يذهبَ الناسُ بالشاةِ والبعير وترجعون برسولِ اللّه ﷺ في رِحالكم؟! فوالذي نفسُ محمد بيده لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار، ولو سلكَ الناسُ شِعباً/طريقاً وسلكتِ الأنصارُ شِعباً لسلكتُ شِعبَ الأنصار!

اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار!

فبكوا حتى ابتلتْ لِحاهُم، وقالوا: رضينا برسولِ اللّه قسماً وحظاً!

أعطى الناسَ وحرمَ الأنصارَ، لا لأنه يُحبُّ الناس أكثر منهم، بل ليتألّفَ قلوب الناس، ويأتي بهم إلى الإسلام، ولأنه يعرف أنَّ الإسلام في قلوبِ الأنصار كالجبال الرواسي، فلما أخذوا على خاطرِهم بيَّن لهم سبب فعلتِه فرضوا.

الناسُ هم الناس يُحبون العطاء، وأن لا يستثنيهم أحد، ولكن بيِّنْ دوماً سببَ تخصيصك لفلانٍ حين لا تفعل مثله مع من تُحبه أكثر من الذي أعطيته، فالإنسان مفطور على سوءِ الظن، وتفسيرِ الأمور على غير ما هي، فلا تتركْ ملامةً في صدرِ أحد!

وإياك أن تُفسِّرَ عطايا اللّهِ للناس كما فسَّر الأنصارُ أول الأمر عطاءَ النبيِّ ﷺ للناس، إذا رأيتَ من هو أغنى منك، وأكثر صحة وأولاداً، وأوسع داراً على أنه يُحبه أكثر منك، إن اللّه سبحانه يُعطي الدنيا لمن يُحبُّ ويكره من عباده، ولكنه لا يُعطي الإيمان إلَّا لمن يُحبُّه!

إذا كنتَ تريدُ أن تعرف الذين يُحبهم اللّه أكثر منك، فهم أولئك الذين أَذِنَ لهم أن يعبدوه ويُطيعوه أكثر منك!

الذين يُحبهم اللّه أكثر منك ليسوا أولئك الذين راتبهم أعلى من راتبك، وإنما الذين قاموا للفجر وأنتَ نائم، وتصدَّقوا وأنتَ تكنز، وبرُّوا آباءهم وأنتَ عاق، وتحجَّبنَ وأنتِ سافرة، وحجُّوا وأنتَ تقولُ غداً أحجُّ وغداً أعتمر!

كان موسى عليه السلام أحب إلى اللّهِ من قارون، رغم أنه أعطى لقارون مالاً لم يُعطه لأحدٍ من خلقه، لقد أعطى عبده

الـذي يكرهــه المـاِل، ولكنـه أعطـى عبـده الـذي يُحبُّـه الإيمـان!

صحيـحٌ أن اللّه قـادرٌ أن يُعطـيَ العبـد المـال والإيمـان معـاً، ولكـن هـذه الدنيـا دار امتحـان لا دار جـزاء، فتـأدَّب أنـتَ فـي حضـرةِ قضـاءِ اللّهِ وقـدرِه!

الإياس ممّا في أيدي الناس!

جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول اللّه أوصِني وأوْجِزْ
فقال له: «عليك بالإياس مما في أيدي الناس فإنه الغِنى، وإياك والطمع فإنه الفَقرُ الحاضر، وصلِّ صلاتكَ وأنتَ مُوَدِّع، وإياكَ وما يُعتذرُ منه»!

جعلَ النبيُّ ﷺ الغِنى في أن يرضى الإنسان عما قسمه اللّه له، ويكتفيَ به، ويحمدَ اللّه عليه، وجعلَ الفقرَ في النظر إلى ما في أيدي الناس! إن غناكَ وفقركَ في قلبكَ كيف يشعرُ، وفي عينك كيف تنظُر!

الإنسانُ الذي ينظُرُ إلى ما يملكه الآخرون لن يستشعرَ قيمة ما يملكُ أبداً، لو جرَّبَ الإنسان أن ينظرَ إلى ما في يده، ويستمتعَ به، لن يكون لديه الوقت ليحسد الناس على أوتوا، وما أَوْرَدَ إبليس المهالك إلا الحسد، فحين أسجدَ اللّه تعالى لآدم عليه السلام ملائكتَه، قال إبليسُ: ﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾! وكثيرٌ من الناسِ يعيشون وفق مبدأ إبليس ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾!

إذا مرَّ أحدهم بالبيتِ الجميل قال في نفسه لو أنه لي، وإذا مرَّ بالسيارة الفارهة قال في نفسه بمَ هو خيرٌ مني لتكون له؟!
مثل هذا لن يسعدَ ولو ملكَ مالَ قارون، لأن فَقره في قلبِه!

الإنسان الذي ينظُرُ إلى راتبه نظرةَ رضى، ويستشعرُ نعمةَ اللّهِ فيه، كيف يسترُ حاجته، ويكفيه سؤال الناس، غنيٌّ ولو أتى آخر الشهر ولم يبقَ من راتبه شيء!

والذي ينظُرُ إلى فُلانٍ ماذا اشترى، وإلى علاّن ماذا ملكَ سيعيشُ فقيراً، ويموتُ فقيراً، فغنى الإنسان ليس في جيبه وإنما في قلبِه!

وصَلِّ صلاتكَ وأنتَ مُوَدِّع، تخيَّلْ كل صلاةٍ على أنها صلاتكَ الأخيرة، وبعدها ستُحمَلُ إلى قبرك، وعلى هذا الأساس صلِّها، استحضرْ فيها قلبكَ فأنتَ في حضرةِ الملك، ولا تستعجلْ بها خوفَ أن تفوتَك حاجة من حوائج الدنيا، أنتَ واقفٌ بين يدي قاضيَ الحاجاتِ، أتتركه لتعتمدَ على نفسك في قضاءِ حاجتك؟!

استشعرْ الآيات وتدبَّرْها، تلذَّذْ بالفاتحة، بالحمدِ الذي حُرم كثير من الناس أن يُناجوه به، بالرحمةِ كيف أَذِنَ لكَ أن تقفَ لتعبده، بمالك يوم الدين الذي ترجو ثوابه وتخاف عقابه، بإياك نعبُد وإياك نستعين، باللجوءِ إلى غِناه من فَقرك، وإلى قوته من ضعفك، بإهدنا الصراطَ المُستقيم، تدبَّرْها، وأنتَ تتأمل الكون من حولك، تذكَّرْ عابدي البقرِ والشجرِ والحجرِ والمُلحدين، والذين حرَّفوا أديانهم، وقتها فقط ستعرِفُ لماذا كان النبيُّ ﷺ يقول لبلال: أرِحنا بها يا بلال!

وإياك وما يُعتذرُ منه!

أمسِكْ عليكَ لسانكَ، لا تكن أهوجاً، تُقيم الدنيا ولا تُقعِدها لأجل موقفٍ عابرٍ، ولردةِ فعلٍ قاسيةٍ، ولكلمةٍ جارحةٍ ثم تأتي بعدها تعتذرُ وتتأسف..

الاعتذارُ خُلُقٌ نبيلٌ لا شك، ولكن الكلمة الجارحة كإدخالِ مسمارٍ في الخشب، حتى لو نزعتَ المسمار بعد ذلك فإن أثر الثقب في الخشب سوف يبقى ماثلاً للعيان، وهكذا هو أثر الكلمة الجارحة في قلوبِ الناس!

نِعمَ الرَّجُل!

كان عبدُ اللّه بن عُمر بن الخطاب شاباً أعزبَ ينامُ في المسجد، وكان الرَّجُلُ من الصحابةِ إذا رأى الرؤيا قصَّها على النبيِّ ﷺ، فتمنَّى عبد اللّه أن يرى رؤيا ليقُصها على النبيِّ ﷺ. وذات ليلة وهو نائم رأى في منامه أن ملكين أخذاه وذهبا به إلى النارِ فإذا هي مطوية كطيِّ البئر، وفيها ناس قد عرفهم، فجعل يقول: أعوذ باللّهِ من النار، أعوذ باللّهِ من النار! ثم استيقظ من نومه!

ولما كان الصَّباح قصَّ رؤياه على أُخته حفصة، فقصَّتها حفصةُ على النبيِّ ﷺ، فقال: «نِعمَ الرَّجُلُ عبد اللّه لو كان يقوم الليل»!

فلم يتركْ عبدُ اللّه بن عُمر القيامَ حتى مات!

وقال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «نِعمَ الرَّجُلُ خُريم الأسدي لولا طول جُمته/شعره وإسبال إزاره»!

فبلغَ ذلك خُزيماً، فأخذ على الفور شفرةً وقطع جُمَّتَه إلى أذنيه، ورفع إزاره إلى أنصاف ساقيه!

كان يكفي أحدهم أن يقول النبيُّ ﷺ نِعمَ الرَّجُلُ فُلان لو يفعل كذا وكذا، فكان على الفور يلتزم الأمر ولا يتركه ما دام على قيد الحياة!

يقومُ عبدُ اللّه بن عُمر الليلَ طوال عمره، ويقطعُ خُريمٌ جُمَّتَه ويرفعُ إزارَه، وقيامُ الليلِ نافلةٌ، وإصلاحُ الشَّعْرِ شأنٌ من شؤون المظهر، فقط لأن النبيَّ ﷺ تمنَّى فعلاً!

فهل فعلنا نحن الفرائض فقط لأنه تمنى؟!

هل حاسبْنا أولادنا على الصلاةِ كما نُحاسبهم على الدروس وعلاماتِ الامتحانات؟!

هل أمرْنا بناتنا بالحجاب كما نأمُرهنَّ بالجدِّ والاجتهادِ والتحصيلِ في المدارس؟!

هل برَرْنا آباءنا وأمهاتِنا لأن الأب أوسط أبواب الجنة، ولأن الجنة تحت أقدام الأمهات؟!

هل وصلْنا أرحامنا لأن الرَّحِمَ مُعلقةٌ بالعرش فمن وصلها وصله اللّه ومن قطعها قطعه اللّه؟!

هل أحسنَّا إلى جيراننا لأن جبريل ما زال يُوصي بالجارِ حتى ظنَّ النبيُّ ﷺ أنه سيُورِّثه؟!

تخيَّلوا أن النبيَّ ﷺ جاء إلى بيت أحدكم فجأة، تُرى ما الذي سيُعجبه إذا شاهده، وما الذي سيُزعجه!

ثابروا على ما تظنون أنه سيُعجبه، وأصلِحوا ما تظنون أنه سيُزعجه، هكذا فقط يستحق أحدُنا نِعمَ الرَّجُلُ، ونِعمَ المرأة!

يا أنجشة: رفقاً بالقوارير!

حجَّ النبيُّ ﷺ بنسائه، فلمَّا كان في بعضِ الطريق، أوكلَ لغلام له اسمه أنجشة قيادة القافلة، فساقَ بهنَّ، فأسرعَ، فقال له النبيُّ ﷺ: يا أنجشة، رفقاً بالقوارير!

وبينما هم يسيرون إذ بركَ جملُ أُمِّنا صفية بن حُيي، فجعلتْ تبكي، فجاء النبيُّ ﷺ حين أُخبِرَ بذلكَ، فجعلَ يمسحُ دموعها بيده!

لو أنَّ رجلاً غيره رأى زوجته تبكي لأنَّ جملها توقَّف عن المسير لربما عنَّفها، وصرخ فيها قائلاً: أتبكين لسببٍ تافه؟! ولكنَّ الرحمة المُهداة رغم أنه كان يكفيه أن يُطيِّب خاطرها بكلمة، ولكنه لا يزهد بتمام الخُلُق، لهذا مسحَ دموعها بيده، وكأنه يقول لها: دموعكِ غالية يا صفية!

النساءُ عاطفياتٌ، متقلباتُ المشاعرِ، يبكينَ عند أصغر الأزمات، وقد تشعرُ إحداهُنَّ بالضيق فتبكي لسبب لا تعرفه حتى هي!

هذا شيءٌ على الرجالِ فهمه، والتعامل معه بجدية تامة، والتصرُّف باهتمام بالغ وكأنَّ هناك مُشكلة حقاً، وأي تصرُّف غير ذلك هو باب لمُشكلة حقاً!

أحياناً لا تُريدُ المرأة أكثر من أن تُريها أنك تهتم!

أنتَ حينَ تعودُ من العملِ وتشكو إليك همّ الأولاد، وعملها في البيت، هي لا تطرح لكَ مشكلةً، ولا تُطالبكَ بحلٍّ، هي تعرفُ جيداً أن هؤلاء أولادها وعليها أن تَصبرَ عليهم، وأنَّ هذا بيتها وعليها أن تهتمَّ به، ولكنها تريدُ منكَ أن تُصغيَ باهتمام، وتُمسكَ يدها وتُخبِرَها أنها امرأة عظيمة، وأنكَ لو كنتَ مكانها ما استطعتَ أن تقومَ بما تقوم هي به، هذا سيجعلها مُمتلئة رضىً!

أما الأزواج الذين لا يعرفون عالمَ النساءِ فسيُبادر أحدهم ليقول بغلظة: لستِ وحدكِ من تعملين، أنا أيضاً أعمل خارج البيت وأتعبُ كثيراً، ثم هذا بيتكِ وهؤلاء أولادكِ، المرأة التي لا تُريد أن تربي ولا تُنظِّف كان عليها أن تبقى في بيت أهلها! صدِّقوني المرأة تتكلمُ عن الأشياءِ الحياتية العادية كأنها مشاكل عظيمة، وكل ما يُردنه أن تستمعوا باهتمامٍ كأن الأمر مشكلةً عظيمة!

المرأةُ حين تتحدثُ عن مشاكلها فهي في الغالب تُفضفِضُ لا تطالبكَ بحلٍّ!

أساساً هي تعرفُ أنه لا حلَّ لديكَ لهذا الأمر، وإلا لتصرفتْ بطريقة أخرى!

ضيقُ مساحةِ البيتِ، قلةُ المصروفِ، الأثاثُ الذي يحتاج بعضه إلى تغيير، هي تعرف تماماً أنه واقعٌ وعليها أن تتعايشَ معه، وكل ما تُريدُه منكَ أن تُشعرَها أنك بقربها، وتشعُرَ بها!

وليستظِلَّ!

بينما النبيُّ ﷺ يخطبُ في الناس، إذ رأى رجلاً قائماً في الشَّمس، فسألَ عنه، فقيل له: هذا أبو إسرائيل-هذه كُنيته، واسمه يُسَيْر وهو رجلٌ من الأنصار- قد نذرَ أن يقومَ في الشَّمسِ، ولا يقعُدَ، ولا يتكلمَ، ويصوم!

فقالَ النبيُّ ﷺ: مُرُوه فليتكلمْ، وليستظلَّ، وليقعدْ، وليتمَّ صومه!

إنَّ ممَّا ٱبتُليَ به الناسُ في زماننا كثرة النذور التي ما أنزلَ اللّه بها من سُلطان، تماماً كنذرِ أبي إسرائيل أن يقومَ في الشَّمس! فليس في هذا النذر لا طاعة، ولا قُربى إلى اللّه، ناهيكَ عن المشقةِ وتعذيبِ النفسِ، وما جاء هذا الدين إلا لإزاحةِ المشقةِ، ودفع الحَرَجِ، والتخفيفِ عن الناس، وإن شئتَ فاقرأ قوله تعالى ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾

يُقبلُ النذرُ في الطاعاتِ والقرباتِ، كأن ينذر المرءُ أن يصوَم للّه إذا تحقق له أمر، أو شُفِيَ له ولد، أو يتصدَّقَ إن قضى اللّه همّه، وما عدا ذلك استخفاف وجهل، كالذي ينذر أن لا يحلق شعره، أو لا يستحمَّ، أو لا يأكل الطبق الفلاني، أو لا يركب سيارة، وكلها كما ترون ليس فيها من التقرُّب للّهِ بشيء، مُجرد نذور فارغة أشبه ما تكون بنُذورِ العربِ في الجاهلية!

المسلمُ مُطالَبٌ بالصبرِ على مشقةِ الطاعة، فالقيامُ لصلاة الفجر شاقٌّ، والصيامُ يُتعِبُ البدنَ، وهذه مشقات تأتي ضمن العبادات، وليستْ مطلوبة بذاتها، فالاستيقاظُ ليس هو المطلوب وإنما صلاة الفجر، ولكننا نستيقظ لأننا لا نستطيع أن نصليَ في الأحلام!

والجوعُ ليس هو المطلوب وإنما الصيام، ولكن الصيام يجلبُ الجوعَ، بمعنى إذا توقَّف الإنسان عن تناولِ الطعام من الظُهر إلى ظُهر اليوم التالي تقرُّباً للّه، فليس في فعله أي تقَرُّب، إنه يُعذبُ نفسه فقط، فالتقرُّب إنما يكون وفقَ أمرِ اللّهِ لا وفق رأي العبد واجتهاده!

لم تكُن المشقةُ يوماً مطلباً من اللّهِ على عباده، على العكس تماماً، ففي أيام البرد إذا وُجد الماء الدافئ فليس تعبُّداً للّه أن تتوضأ بالماء البارد، ولكن إذا انعدمَ الماء الدافئ فنِعمَ المشقة في الماءِ البارد!

والذي يُقرر أن يذهبَ إلى الحج على أقدامه في أيامنا هذه مع توفر وسائلِ النقلِ وقُدرته عليها، إنما يعتقدُ أن اللّه يُريدُ منه أن يُتعبَ نفسه، بينما لا يُريدُ اللّه سُبحانه منا غير أداء العبادة على أكمل وجه بأقل تعب!

وإذا كان أمام الإنسان للذهاب إلى المسجد طريقان أحدُهما وَعِرٌ، وصعبٌ، وطويلٌ، وشاقٌ، والآخرُ قريبٌ سهلٌ مُمَهَّدٌ وجبَ عليه أن يختارَ الطريق الأسهل لأن النبيَّ ﷺ ما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكُن إثماً!

اسقِ يا زُبير!

كان للزبير بن العوام أرضٌ في أطرافِ المدينةِ المنورةِ فيها نخلٌ يسقيه من ساقية ماءٍ تمرُّ في أرضه، ثم في أرضِ جارٍ له من الأنصار. فشكا الأنصاريُّ الزُبير إلى النبيِّ ﷺ أنَّ الماء يتأخَّر ليصله.

فقال النبيُّ للزبير: اسقِ يا زُبير ثم أرسِلْ الماء إلى جارك.

فغضبَ الأنصاريُّ وقال: ألأنَّ الزبير ابن عمتكَ؟!

فتلوَّنَ وجهُ النبيِّ ﷺ، ثم قال: اسقِ يا زُبير، ثم احبسْ الماءَ حتى يرجع إلى الجَدْرِ!

الساقيةُ تمرُّ في أرضِ الزُبير أولاً، والمنطقُ والعُرفُ الزراعيُّ يقضي أن يسقيَ الزبير نخيله أولاً حتى يرتوي، ثم يُرسل الماء إلى جاره، ولكن النبيّ ﷺ طلبَ من الزُبير أول الأمر أن يسقيَ شيئاً يسيراً، ثم يُرسل الماء إلى جاره، فإذا سقى جاره عادَ الزُبير وأكمل، فالنبيُّ ﷺ أخذَ من حق ابن عمّته الزُبير بخلاف العُرف ليُرضيَ الأنصاري لِعِلْمِهِ أنَّ الزُبير سيُطيعه ولو قضى له بحقه ناقصاً تأليفاً للقُلوب، ولكن المصيبة هي أن الأنصاري لم يرضَ رغم هذا، وبلغتْ به قلة الأدب أن يتَّهمَ النبيَّ ﷺ بمُحاباةِ ابن عمته، عند ذلك قضى بالحُكمِ والعُرف دون مُراعاة للمشاعر، الحقُّ أن يسقيَ الزبيرُ أرضه كلها حتى إذا ارتوتْ فاضَ الماءُ إلى أرضِ الأنصاري!

يُعلِّمُنا النبيُّ ﷺ درساً عظيماً في فضِّ النزاعات، وهو «الحل الوسط» الذي يقوم على الأخلاق لا على القانون! فالقانونُ واضحٌ وهو في صف الزُبير، ولكن النبيَّ ﷺ راعى أدب الجيرة، وتأليف القلوب، فأعطى الزُبير بعض حقه، وأعطى الأنصاري حقاً ليس له، لأن ظنه بالزُبير أنّه مع كسبِ القلوبِ لا مع كسبِ المواقفِ، ولكن بعض الناس على قول العجائز: «رضينا بالبين والبين ما رضي فينا!»

في المشاكل التي تدخلُ بها حَكَماً، لا بأس أن تأخذَ من حقِّ من تعرف دِينه وكرمه وحسن أصله، لتُعطي خصمه لتُصلح النزاع وتفُضَّ الخلاف، لأنَّ استمرار العلاقات والإلفة بالتنازل، أفضل من قطعها بالقانون، أما إذا وصلَ الأمرُ لطريقٍ مسدودٍ فليأخذ القانون مجراه!

كان في الجاهليةِ رجلٌ يقضي في الخصوماتِ بين الناس، يقصدونه من أرجاءِ جزيرة العرب، وكان له ابن وحيد ليس له غيره، وفي يوم من الأيام لاحظَ الابنُ بعضَ الحزنِ بادياً على وجه أبيه، فسألَه عن السبب، فأخبره أنه حزين لأنه صارَ طاعناً في السِّن وأن الناس بعد موته لن تقصدَ بيته لحل النزاعات.

فقال له الابن: أنا أقضي بينهم مكانك!

فقال له الأب: إذا جاءك كريم وبخيل في خصام ماذا تفعل؟

قال: آخذ من حصة الكريم وأُعطي البخيل وأُصلحُ بينهما.

فقال له: إذا جاءك بخيلان ماذا تفعل؟

قال: أدفعُ من جيبي وأُصلح بينهما.

فقال له: إذا جاءك كريمان ماذا تفعل؟

فقال: يا أبتِ كريمان لا يحتاجان حكماً بينهما!

فرحَ الأبُ بجواب ابنه، وقال: هذا البيتُ لن يُغلقَ بموتي!

مثقال ذرَّةٍ من كِبر!

كان الصحابيُّ حكيمُ بن حِزام من أشراف قُريش، وكان يطلبُ العِلم عند مُعاذ بن جبل، رغم أنه أكبر من معاذٍ بخمسين سنة!

فقيل له: أنتَ تتعلَّمُ على يد هذا الغلام؟

فقال: إنما أهلكَ الناس الكِبر!

وعن الكِبر وخطورته، كان النبيُّ ﷺ جالساً يوماً بين أصحابه، فقال لهم: لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقال ذرَّةٍ من كِبر!

فقال رجل: يا رسول الله، إنَّ الرَّجلَ يُحبُّ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً!

فقال له: إنَّ الله جميلٌ يُحبُّ الجمال، الكِبَرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناسِ!

وبَطَرُ الحقِّ هو ردُّه وعدمُ قبولِه بعدما تبيَّنَ وصارَ واضحاً جلياً!

وما أكثر هؤلاء الذين يُجادلون على مبدأ عنزة ولو طارتْ! يجادلُكَ أحدهم في مسألةٍ فقهيةٍ عن الربا أو الميراث وهو بالكاد يعرف كيف يتوضأ، فتُحضِرُ له الآية، والحديث، وأقوال الأئمة، فيقول لكَ: لم أقتنع! وكأنه أبو حنيفة في الرأي، والشافعيُّ في القياس، ومالكٌ في الاستدلال، وأحمدُ في الترجيح! وما هو إلا الكِبر، وخالِف تُعرف!

جرى بين ابن حزم وبين أحد فقهاء الأندلس مُناظرة في مسألة، وانفضَّ المجلسُ على أن ابن حزم هو الغالبُ فيها، فلما عادَ إلى بيته، تذكر كتاباً عنده، فقام يقرأ فيه، فتبيَّن له أن الحقَّ مع الرجل وليس معه، فوضعَ خطاً تحت المسألة، فقال له أحد تلامذته: ماذا تنوي؟

فقال له: أذهبُ إليه غداً وأُخبرُه بصواب رأيه وخطأ رأيي!

فقال له: أتفعلُ بعد أن كانتْ الغلبة لكَ؟!

فقال ابن حزم: لو استطعتُ أن أذهبَ إليه الآن لذهبتُ!

وما أكثر الكِبر في الحياة!

تحصلُ الخصوماتُ بين الناس، ويدخلُ المُصلحون، ويَتبين للمُخطئ خطأه ولكنه يركب رأسه! وقد يأكل أحدهم حقَّ أخيه، فيعرف أنه الظالم، وما يمنعه أن يرجع إلا الكِبر!

أما عن احتقارِ الناس فحدِّثْ ولا حرج!

يظنُّ أحدهم أن شهادته، وماله، ووظيفته المرموقة تجعله ابن ستٍ والناس أولاد جَوارٍ، إن مرَّ لم يُسلِّم، وإن سلَّم فمن رأس منخاره!

العلمُ الذي لا يجعلك متواضعاً جهلٌ آخر!

وإبليس بالمناسبة من أعلم الخلق، ولكن ما أهلكه إلا الكِبر!

والمالُ الذي لا يجعلك تستشعر فقركَ أمام اللّٰه هو فقرٌ آخر، وقارون بالمناسبة كان أغنى منك ولكن ما أهلكه إلا الكِبر!

تواضعوا، فما تواضع أحد للّٰهِ إلا رفعه!

وهذهِ؟!

خطبَ ثُمامة الصوفي امرأةً، فسألتْ عن حِرفتِهِ، فكتبَ إليها يقولُ:

وسـائلةٍ عـن حرفتـي قلتُ حرفتي
مُقارعة الأبطـالِ في كل مأزقِ
وضربي طلى الأبطالِ بالسيف معلماً
إذا زحفَ الصَّفانِ تحت الخوافقِ

فلما قرأتْ شِعره، كتبتْ إليه تقول: أنتَ أسدٌ فاطلبْ لكَ لبوةً، فإني ظبيَّةٌ أحتاج إلى غزال!

يحسبُ كثيرٌ من الرجال أن المرأةَ يفتنها الرَّجُلُ القويُّ الشديد، ولا يعلمون أن المرأة لا يأسر قلبها إلا الرِّفق واللين، ولا شيء أقوى من حَبْلِ الحُبِّ لربطِ الناس، رجالاً كانوا أم نساءً، شُباناً كانوا أم شِيباناً!

كان للنبيِّ ﷺ جارٌ فارسيٌّ مشهورٌ بجودة طعامه، فصنعَ يوماً طعاماً وجاء إلى النبيِّ ﷺ يدعوه، فقال له النبيُّ ﷺ وهو يُشيرُ إلى عائشة: وهذه؟

فقال: لا!

فقال له النبيُّ ﷺ: لا أحضُر!

وفي مرَّةٍ ثانية صنعَ طعاماً وجاء إلى النبيِّ ﷺ يدعوه، فقال له وهو يُشير إلى عائشة: وهذه؟

فقال: لا!

فقال له النبيُّ ﷺ: لا أحضُر!

وفي المرة الثالثة، صنعَ الفارسيُّ طعاماً وجاء يدعوه، فقال له وهو يُشيرُ إلى عائشة: وهذه؟

قال: نعم!

فقال له النبيُّ ﷺ: الآن نعم! وقام هو وعائشة يتدافعان حتى أتيا منزله!

طبعاً لا بأس أن يكون للزوج حياته الخاصة، فيقبل دعوة صديق له مُنفرداً، أو يذهب مع رِفاق العمل في نُزهة، والمرأة كذلك!

وإنما المُشكلة أن تُجعل المرأة أثاثاً في البيت، وكأن الزوج يخجلُ بها!

وانظُرْ لأدبِ النبيِّ ﷺ، ولينه ورفقه، لقد نقلتْ كتبُ السيرة أنه دُعِيَ كثيراً إلى طعام وكان يذهبُ مع أصحابه، ولكن المسألة هنا مُختلفة، فالدعوةُ من جارٍ له، وقد تمَّتْ على مسمع عائشة، فكَرِهَ أن يذهبَ دونها تطييباً لخاطِرها، ومراعاةً لمشاعرها، لقد حرمَ نفسه مرتين من الطعام اللذيذ مراعاةً لمشاعرها، ولا شكَّ أنه بهذا الرَّفض قد امتلكَ قلبها، وعرفتْ كم هي غالية عنده!

ثمة مواقف صغيرة، التفاتات بسيطة، تعني الكثير للنساء، وهي عندهُنَّ أثمن من الهدايا والبيت الفاخر، نحن نُمتلك من الداخل، نُشرِقُ وننطفئُ بأثر الأفعال في قلوبنا لا بقيمة الأشياء من حولنا، فإياكَ أن تُشعرها أنك تخجل بها!

إن من لا يصنع قيمةً لزوجته لن يصنعَ لها العالم كله قيمة، ورحم اللّٰه جدتي ما أحكمها حين كانت تقول: من قالَ لزوجته يا عُورة لَعِبَ بها الناس الكورة!

لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقتْ!

سَـرَقَتْ امـرأةٌ مـن بنـي مخـزوم، ورُفِـعَ أمرُهـا إلـى النبـيِّ ﷺ، فاعترفـتْ بفعلتِهـا، والاعتـرافُ سـيِّدُ الأدِلـة، والحُكم لا لبـس فيـه فالنـصُّ واضـحٌ صريـح، قطـع اليـد!

وحزِنَـتْ قريـشُ واغتمَّـتْ لهـذا، فبنـو مخـزوم فخـذ عريـق مـن قُريـش فـي الجاهليـة والإسـلام، فأخـذوا يبحثـون عمَّـن يشـفعُ لهـا عنـد النبـيِّ ﷺ، ثـم اتَّفقـوا أنـه ليـس لهـذا الأمـر إلا أُسـامة بـن زيـد، حبيـب النبـي ﷺ، وابنـه المُدلـل الـذي لـم يلـده، وكذلـك كان أبـوه مـن قبـل! فجـاؤوا إلـى أُسـامة وطلبـوا منـه الشـفاعة، فذهـبَ أُسـامة إلـى النبـيِّ ﷺ وطلـبَ منـه أن يعفـوَ عنهـا فـلا يُقيـم عليهـا الحـدَّ، فقـال لـه النبـيُّ ﷺ: «أتشـفعُ فـي حـدٍّ مـن حـدود اللّهِ يـا أُسـامة»؟ ثـم قـامَ، فصعـدَ المنبـر وقـال: «إنمـا أُهلِـكَ مـن كان قبلكـم أنهـم كانـوا إذا سـرقَ فيهـم الشَّـريف تركـوه، وإذا سـرقَ فيهـم الضَّعيـف أقامـوا عليـه الحَـدَّ، وأيـمُ اللّه، لـو أنَّ فاطمـة بنـتُ محمَّـدٍ سـرقتْ لقطعـتُ يدهـا»!

لـو كنـتُ مـن أهـل الحديـث، وأردتُ أن أجمـعَ فضائـل فاطمـة رضـي اللّه عنهـا، لجعلـتُ هـذا الحديـث أول الأحاديـث فـي فضائلهـا، فـكأنَّ النبـيُّ ﷺ يقـول: ليـس علـى ظهـر الأرض أحـدٌ أحـب إلـيَّ مـن فاطمـة! وهـذا معنـى واضـح نسـتخدمه فـي حياتنـا اليوميـة، تخيَّـل أنـك مُدرِّسٌ مثـلاً، وجـاءك مـن يطلـبُ منـك أن ترفـعَ علامـات طالـب

راسبٍ، فقلْتَ له: واللّهِ لو أنَّ أُمي طلبَتْ مني أن أرفع علاماته ما رفعتها، أنتَ بهذا المعنى تقول: أنه لا أحد أحبُّ إليك من أمك! ولكنَّ الحقّ حق!

ما فسدَتْ البلادُ والبيوتُ إلا بسبب المُحاباة والواسطة وعقلية أنا من طرف فلان!

يُعلَنُ عن الوظائف، فيتقدَّمُ إليها الناس، من يستحقُّ ومن لا يستحقُّ، فتجدُ من يملك الشهادة الأكاديمية، والكفاءة المهنية، يدرسُ ويستعِدُّ ويُراجعُ، وينجحُ، ثم يأخذُ الوظيفة غيره الذي أتى من طرف فلان!

وهذه ليستْ خدمة لا للأقل كفاءة، ولا للمُتنفِّد الذي توسَّط له، وإنما هي سرقة وغِش، سرقة حق إنسان كانتْ له الوظيفة، وغِشٌ للأمة بأسرها، فحين يتقلَّد المنصب من ليس لديه الكفاءة ليقوم به ينعكس هذا على الناس جميعاً، وكُلما كانت الوظيفة أرقى، كان أثرها السيىء أكبر، لأن الشريحة التي ستضرر منها أوسع!

قبل أن تطلب الواسطة، تذكر أنك خطوتَ الخطوة الأولى في سرقةِ حق إنسان آخر!

فالسرقة ليست محصورة في أن تمدَّ يدك لتأخذ مال غيرك، كل حقٍّ ليسَ لكَ تسعى لأخذِهِ بطرقٍ ملتويةٍ هو سرقة!

وقبلَ أن تَدُقَّ على صدركَ لتكون واسطةً لغيركَ تذكَّر أنك خطوتَ الخطوة الأولى في غِش الناس، فخدمةِ فردٍ واحدٍ على حساب أُمَّة جريمة وليستْ خدمة!

إن صلاح الأُمم يبدأ في أن يتولَّى المناصب الأكفأ، بدءاً بسائقي الباصات العمومية وانتهاءً بالوزراء والرؤساء! وإن انحطاط الأمم يبدأ عندما تبدأ الواسطات والمحسوبيات!

عندما يتساوى الناس أمام القانون،

يُحاسَب القوي رغم قوته ويُنصَفُ الضعيف رغم ضعفه،

عندما يُطبَّق مبدأ تكافؤ الفرص،

فيتولَّى من يستحق، عندها فقط يمكن القول أننا صُرنا أُمَّة!

الخالة بمنزلة الأم!

عندها هاجر حمزة بن عبد المطلب إلى المدينة تركَ في مكة زوجته سلمى بنت عُميس وابنته الوحيدة أُمامة...

دارتْ الأيام واستشهدَ حمزة في أُحُد، وماتتْ سلمى بمرضٍ نزلَ بها، فبقِيَتْ أُمامة في بيوتِ من بَقِيَ من بني هاشم في مكة. ولمَّا كان صُلح الحُديبية، وجاء النبيُّ ﷺ للعُمرة، جاءتْ أُمامة تركض إليه وتقول: يا عم، يا عم! طبعاً هو ابن عمها ولكنها نادته عمَّها أدباً منها فهي في العاشرة من عمرها وكان هو قد ناهزَ الستين!

ولكنَّ زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب أراد كل منهما أن يُربيَها أيضاً في بيته، فتنازعوا أمرها عند النبيِّ ﷺ!

فقال علي: أنا أخذتُها أولاً، وهي ابنة عمي، وعندي ابنة رسول الله ﷺ وهي أحقُّ بها!

وقال زيد: هي ابنة أخي! يقصد ما كان بينه وبين حمزة من الحُب والأُخُوَّة!

وقال جعفر: هي ابنة عمي، وخالتها امرأتي، وذلك أنَّ زوجته هي أسماء بنت عميس أخت سلمى بنت عميس والدة أمامة.

فقضى النبيُّ ﷺ لجعفر، وقال: الخالة بمنزلة الأُم!

ثم قال: أما أنتَ يا جعفر فأشبهتَ خَلقي وخُلُقي، وأما أنتَ يا علي فمنِّي وأنا منك، وأما أنت يا زيد فأخونا ومولانا!

وٱنظُرْ لرُقيِّ الصحابة، خلافٌ استعرَ، ونزاعٌ نشبَ، لا على مالٍ ولا قطعةِ أرضٍ، وإنما تسابقوا إلى الخير، كلٌّ منهم يُريدُ أن يَكفلَ أُمامة ويُربِّيَها في بيته، بهذه القُلوب سبقونا، ولهذه النفوس الراقية اصطفاهم الله سُبحانه لصُحبة نبِيِّه!

وٱنظُرْ لأدب النُبُوَّة، إنَّه يُطيِّبُ خاطر المُتخاصمين، ويُذكِّرهم بصفاتهم الجميلة، وبمكانتهم في قلبه، فإذا قضيتَ بين صديقين أو قريبين، فالسُّنَّة أن تُطيِّبَ خاطر الذي لم ترَ الحقَّ معه! ربما اختلَفَتْ زوجتك وأختك، فرأيتَ الحقَّ مع أختك، فلا بأس أن تقولَ لزوجتك أنا أحبكِ، وأنتِ غالية عندي، ولكنَّ الحقُّ مع أختي، أو العكس، لا تكُن حكماً فقط، كن طبيب قلوب!

ومن أدبِ القضاءِ بين المُتنازِعين أن تُبيِّنَ العِلة التي لأجلها كان الحُكم، فجعفرُ حظيَ بكفالة أُمامة لأن خالتها زوجته، بيان عِلَّة الحُكم يُريح النفوس ويطردُ الشكوك!

ثم هنا بيت القصيد: الخالة بمنزلة الأم!
عبادة منسيَّة، ورحم لا يلتَفِتُ الناس إليه كثيراً!
بِرُّ الخالة من بِرِّ الأم، فلا تزهدوا بخالاتكم!

حنَّ الجِذع!

كان النبيُّ ﷺ إذا أرادَ أن يخطبَ في الناسِ وقفَ على جِذعِ نخلةٍ كانَ في المسجدِ لأجلِ هذا، فلمَّا صنعوا له منبراً، ووقفَ يخطبُ عليه حنَّ الجِذعُ إليه، وسُمِعَ له أنين المُشتاق، فجاءَه النبيُّ ﷺ، ومسحَ عليه بيدِهِ الشَّريفةِ كالمُواسي لهَ فسكتَ أنينُه!

وكانَ الحسنُ البصريُّ إذا حدَّثَ بهذا الحديثِ بكى، وقالَ للناسَ: يا عباد اللّه، الخشبةُ تحنُّ إلى رسولِ اللّه ﷺ شوقاً إليهِ لمكانِهِ من اللّه، فأنتم أحقُّ أن تشتاقوا إلى لقائِهِ!

وإلى هنا تنتهي سلسلة على منهاجِ النُّبُوَّةِ ولكن الحنين لا ينتهي..

فأينَ يدكَ لتمسح بها على قلوبٍ تحنُّ إليكَ؟
أينَ وجهكَ ننظرُ إليه ثم بعد ذلك على الدُّنيا السّلام؟
أين صوتكَ نسمعُهُ فنرتوي فإنَّ العطش إليكَ قد بلغَ الحناجر!

نُحِبُّكَ يا رسول اللّه، واللّهِ نُحِبُّكَ، وما تخلَّفنا عنك بإرادتِنا ولكنَّها مشيئة اللّه فرَضِيّنا بها!

ودِدْنا لو كنا في مكة يوم نزلتَ من الغارِ ترتجفُ من هولِ الوحي لنضُمكَ كما فعلتْ خديجة!

ودِدْنا لو كُنا معكَ يوم الطائف درعاً فتُصيبنا الحجارة بدلَ أن تُصيبك، أو على الأقل كُنا ضَمَّدْنا جِراح قدميكَ بقُلوبِنا!

ودِدْنا لو كُنا معكَ في شِعب أبي طالب لنُطعمكَ بأيدينا فإن عجزنا واسيناكَ وجُعنا معكَ!

ودِدْنا لو كُنا عند الكعبةِ حين وضعَ ابن أبي معيط سلى الجزور على رأسكَ وأنتَ ساجد لنأكله بأسناننا أو على الأقل نُعينُ فاطمة وهي ترفع أذاه عنكَ!

ودِدْنا لو نمنا كُلنا مع عليّ في فِراشِكَ لنَفديكَ!

ودِدْنا كُلنا لو رافقناكَ مع أبي بكر في هجرتِكَ، لكُنَّا رصفْنَا لكَ الطريق بقلوبِنا يا حبيب قلوبنا!

ودِدْنا لو كُنا في المدينةِ يوم وصلتَ فننشدُ ملء حناجرِنا أن البدر طلعَ علينا!

ودِدْنا لو كُنا معكَ يوم بدر لنقول لكَ كما قالَ الأنصارُ: واللّٰهِ لو خضتَ بنا برك الغماد لخُضناه معكَ وما تخلّفَ منا أحد!

ودِدْنا لو كُنا معكَ يوم أُحُد لنقول للرُّماة: باللّٰهِ عليكم لا تبرحوا أماكنكم، ولنستشرس بالدفاع عنكَ كما فعلتْ أُم عمارة، ولنمسح دمكَ الزكي الطاهر الذي سالَ على وجهِكَ، أو على الأقل لنضمكَ ونُواسيك بفقد عمكَ حمزة!

ودِدْنا لو كُنا معكَ يوم الحُديبية لنقول لكَ نحن جُندك في السِّلم والحرب!

ودِدْنا لو كُنا معكَ يوم فتح مكة فنفرح لفرحكَ حين أظهرَ اللّٰهُ دِينَه!

ودِدْنا لو كُنا معكَ في حجةِ الوداعِ لنسمع وصاياكَ بصوتِكَ ونقول لكَ: نشهدُ أنكَ قد بلّغتَ!

ودِدْنا لو كُنا في المدينةِ يوم وفاتِكَ لنبكيكَ، ونُخبركَ أنَّ فِداكَ أنفسنا وآباءنا وأمهاتنا وأولادنا وأموالنا!

عزاؤنا فيك قولك: موعدي معكم ليسَ الدُّنيا، موعدي معكم على الحوضِ، وإنَّا لنصدقكَ!

وعزاؤنا فيكَ قولك: المرءُ مع من أحبَّ يومَ القيامةِ، وإننا واللهِ نُحِبُّك!